محمود المسعدي

# الأعمال الكاملة

## المجلد الأول

وزارة الثقافة والشباب والترفيه

محمود المسعدي

# الأعمال الكاملة

محمود المسعدي

# الأعمال الكاملة

## المجلد الأول

جمع وتقديم وبيبليوغرافيا

محمود طرشونة

وزارة الثقافة والشباب والترفيه

الإنجاز :

دار الجنوب للنشر – تونس

**عنـــوان الـكتـــاب** : الأعمـــال الكاملـــة
**تأليـــف** : محمـــود المســـعدي
**جمـــع وتقـديـــم وبيبليوغـرافيـــا** : محمـــود طرشـــونة

**النـاشـــر** : دار الجنـــوب للنشـــر

**إشـــراف** : وزارة الثقافـــة والشـــباب والترفيـــه
سلســـلة "أمّهـــات الكتـــب"

**التنضيـد الالكـــتروني** : حســـناء طرشـــونة

**الإخــراج** : المكتـب الفنّـي لـدار الجنـوب للنشـــر
**تصميـم الغــلاف** : المكتـب الفنّـي لـدار الجنـوب للنشـــر

**المطبعــة** : معـامل الطباعـــة "فيـنزي"
**الطبـــع** : ديســـمبر 2002
**التســفير** : "السـباق" قصـر الســعيد

**الخطـوط** : طـارق عبيـد

**الـرســـوم** : الســـــــدّ : حـــاتم المكـــى
اردال العنـــــــــتر

حـدث أبـو هريـرة قـال : الزبـير الـتركى

مـــن أيـــام عـمـــران : الهـادي الـــتركي
ايغــــــون شـــــيل
الزنـــــــــد رودي
رنـــــــــبراندت
جـــــان دلفيـــــل

---



ISBN 9973-844-19-X

# تقديم
## الدكتور عبد الباقي الهرماسي
## وزير الثقافة والشباب والترفيه

تصدُر هذه الأعمال الكاملة للأديب الكبير الأستاذ محمود المسعدي في سلسلة "أمّهات الكتب" بتوجيه كريم من سيادة رئيس الجمهورية التونسية إثر الاحتفال باليوم الوطني للثقافة 2001 [1].

ولأوّل مرّة منذ إنشاء هذه السلسلة تنعطف وزارة الثقافة والشباب والترفيه على جمع أعمال أديب تونسي وهو بَعْدُ على قيد الحياة – أطال الله في عمر أديبنا الكبير – لتقدّمها إلى الأجيال الجديدة أنموذجاً للأدب التونسي الذي استطاع أن يَجْمَعَ بين التراث والمعاصرة جَمْعَ تآلفٍ وانسجامٍ. فحقّق بذلك المعادلة التي قصر عن تحقيقها العديد من الأدباء والمفكّرين.

---

1- صدر منها حتّى الآن :
- ديوان أغاني الحياة لأبي القاسم الشابي. 1997. 334 ص.
- مقدّمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك لخير الدين التونسي. 1998. 332 ص.
- نفائس المألوف في الموسيقى التونسية. 1998. 358 ص.
- إتحاف أهل الزمان لأحمد بن أبي الضياف (مذيّل بفهارس). 1999. 5 أجزاء. 1854 ص.
- الأعمال الكاملة للطاهر الحداد. 1999. 4 أجزاء. 1132 ص
- الزعيم الشيخ عبد العزيز الثعالبي وإشكالية فكره السياسي. 2001. 680 ص.

ولا بُدّ للقارئ أن يَلْمَسَ في هذه الأعمال قُدرة أديبنا الكبير على بلوغ ذُرًى فكريّة وتعبيريّة بِكْر، كانت قد أمدَّتْ شجرة الأدب العربي بِنُسْغٍ مختلف ودفعَتْهُ إلى ارتياد آفاق جماليّة جديدة.

لقد اغترف الأستاذ المسعدي من بئر الذاكرة، فاستدعى الخبر، واستحضر الحكاية، واستعار جلال الأساليب القديمة، لكنّه ، في الوقت ذاته، أنْصَتَ إلى إيقاع العصر، وأفصح عن أسئلته الوجودية والاجتماعية الكُبرى.

كان أديبنا الكبير محمود المسعدي كاتباً مُبْدعاً ومناضلاً عنيداً وناقداً حصيفاً ومنظّراً بارعاً في شؤون الحياة والوجود والمصير والمعاد... وكلّها جوانبُ بوّأت الأستاذ محمود المسعدي أرفَعَ المراتب وأرقى المناصب في تونس وخارجها، وأكسَبَتْ أدبَه ذيوعاً وانتشاراً كبيرين سواء من خلال لغته الأصليّة أو من خلال لغات أخرى.

إن غايتنا من وراء السلسلة التي بعثْنا الكشفُ عن مكامن الخصوصية والثراء في أدبنا التونسي، فبتلك الخصوصية وهذا الثراء نستطيع أن نُسهم في الثقافة الإنسانية ونرفدها بطاقات روحيّة جديدة.

وما أعمال المسعدي إلاّ أنموذجٌ لهذه المساهمة، لهذا الرّفد الجميل.

# ظاهرة المسعدي

يعتبر الأستاذ محمود المسعدي من أهمّ أعلام الأدب العربي الحديث. فمؤلفاته تتميز بقوة الإيحاء وعمق التفكير وأصالة الفن. وأدبه ثري بالمعاني والصور إذ التقت فيه المعاناة الفكرية والصنعة الفنية. فجاء أدبا راقيا يدعو القارئ إلى المساهمة بوجدانه وفكره في سبر أعماق النفس البشرية وأشواقها وأهوائها.

وقد ركّز أدبه على بعض قضايا الإنسان كالحياة والموت، والإرادة والحرية، والمسؤولية والخلق، والحس والفعل، والإيمان والزمان وغيرها من المشاكل التي تحيّر وجود الإنسان وتحثّه دوما على البحث عن ذاته وإمكاناتها وحدودها.

وتمحورت هذه المؤلفات بالخصوص حول الإرادة البشرية وتفجيرها الطاقاتِ الكامنةَ في الإنسان. فالإرادة هي التي تحرك الأبطال وتدفعهم إلى الخلق والتجاوز والتحدي. ومن الطبيعي أن يصطدم هؤلاء الأشخاص بعراقيل وصعوبات فينتصرون ويفشلون، لكن الفشل لا يتوج قط جهودهم، فهو ليس إلا مرحلة تفضي بهم إلى تجديد التجربة وإلى الأمل في الفوز الكبير. وقد توقف عديد النقاد عند مرحلة الفشل فحكموا على هذا الأدب بأنه أدب انهزامي ومتشائم، وهو في الحقيقة أدب العزيمة والفعل والنضال المتجدّد.

ومن النقاد من يرى أيضا أن مؤلفات الأستاذ المسعدي مغلقة من حيث الأسلوب، وأن فهمها يستعصي على كثير من القراء، وكل ما في الأمر أن المؤلف رفض الركون إلى السهولة والميوعة فأتقن كتابته وقدّم نصوصا باحثة عن فصيح اللفظ -مع الإعراض عن حوشيّه- ومتميزة بصور موحية تثير في النفس كوامن الأشجان. وهذا هو الفن الأصيل: يتجاوز المبتذل من الكلام، ويسمو إلى إحكام الصنعة وإلى الجودة.

وهناك من يرى أن القضايا التي أثارها المؤلف في كتبه لا تمتّ إلى المجتمع بصلة، وأنها قضايا ما ورائية ومثالية. والحقيقة أن المشاكل الاجتماعية المعاصرة لزمن التأليف حاضرة في هذه الكتب ولكن ليس بصفة مباشرة وصريحة إنما يمكن استشفافها إذا ما ربطت بظروف تونس والعالم العربي عامة بين الحربين وهي الفترة التي كتب فيها المسعدي جل مؤلفاته.

ويمكن الاستعانة كذلك بنشاط المؤلف في الحقل النقابي والسياسي لفهم كثير من أبعاد مؤلفاته. فكلها تدعو إلى شحذ العزائم والتوق إلى الانعتاق من جميع القيود التي تكبل الإنسان. ولذلك اعتبرنا هذا الأدب إنسانيّا ورائدا ومريدا.

ومؤلفات المسعدي صنفان : إبداع ونقد. نشر أربعة كتب من الصنف الأول وكتابين من الثاني. ولا شك أن المؤلفات الإبداعية هي الأصل وأنّ الفصول النقديّة والبحوث الأكاديمية نوع من التنظير يلقي على الإنتاج الأدبي أضواء كاشفة.

وأول تلك الكتب من حيث تاريخ التأليف هو *حدث أبو هريرة قال...* الذي يعود تأليفه إلى سنة 1939، يليه كتاب *السد* الذي ألّف في

نفس الفترة تقريبا و لم يتأخر عنهما *مولد النسيان* إلاّ بسنوات قليلة أضاف فيها قصتي *المسافر والسندباد والطهارة*. ثم توقّف الإنتاج الإبداعي أو كاد وترك المكان لنشاط من صنف آخر يتمثل في تحرير افتتاحيات مجلّة "المباحث" التي كان رئيس تحريرها، وفي فصول أخرى ومحاضرات جمعت في كتاب *تأصيلا لكيان* المنشور سنة 1979. أمّا الكتاب الأخير فهو بحث بالفرنسيّة قد يعود تاريخ تأليفه إلى المرحلة الأولى وهو بعنوان *الإيقاع في السجع العربي* نشر لأول مرّة سنة 1982. ثم نشر مترجما إلى العربية سنة 1996.

وقد ظننّا الكاتب انقطع عن الكتابة بسبب مشاغل سياسية ومسؤوليات حكومية وزيراً للتربية طيلة عشر سنوات ثم وزيراً للثقافة ثم رئيساً لمجلس النواب فضلاً عن أنشطة موازية في المكتب التنفيذي لمنظمتي اليونسكو والألكسو وبعض المجامع العربية.

إلاّ أنّنا عندما بحثنا في وثائقه المخزونة اكتشفنا نصوصا متفرقة مخطوطة يذكر فيها اسم عمران ودانية، وكان الأستاذ المسعدي نشر خمسة فصول من 1954 إلى 1981 هي على التوالي "يوم القطيعة" و"يوم القحط" و"حديث الضحية" و"حديث الصمت" و"يوم الكفّارة والرحمة" جعلها حلقات من كتاب بعنوان *من أيام عمران*. فضممنا النّصوص المخطوطة إلى المطبوعة فبلغت ثلاثين فصلا ركّبنا منها حسب منطق سردي متناسق كتاب *من أيام عمران* وضمنّاه كذلك "تأمّلات" تجاوز عددها المائة حكمة تجلّى فيها وجه جديد للأستاذ المسعدي هو وجه الحكيم في الحادية والتّسعين من عمره.

وهذه القصة تجسيم لبحث عمران ودانية عن حقيقة الوجود، وتعبير عن قلق دائم وترحال لا يني بين قمم الجبال وضفاف الأودية وأعماق

البحار. وقد حلّلها الأستاذ توفيق بكار تحليلاً معمقاً يقوم على المقارنة بين شخصية عمران وشخصية سابقيه غيلان وأبي هريرة ومدين والسندباد ختمه بقوله : "قلّما قرأت قصّة مثلها لوعة هوى وعذاب تسآل، وفيها من البيان آيات، وفي التشكيل افتنان. فِقَرٌ قِصَار سِراع تقفز بنا قفزا من موقف إلى موقف، ومن حال إلى حال، تارة بالقصّ وتارة بالحوار "أيام" كأحاديث أبي هريرة ، ومشاهد كفصول السدّ، وحسّ وعقل، وحقيقة وخيال، فلسفة وأدب. هي الفكر قد صار فنّا، قصيدة ذات مقاطع من خير الشعر المنثور. نصّ بدعة بإمضاء كاتب من الأكابر"[1].

وبهذا الكتاب صارت له في الإبداع كتب أربعة وفي النقد والبحث العلمي كتابان اثنان. وهذا كلّ ما نشر محمود المسعدي من كتب. وإذا قورن بكتّاب آخرين ينتجون في نفس الفترة عشرات المؤلفات فهو يعتبر مُقِلاًّ. ولكن متى كان الإكثار مقياس الجودة والأصالة؟ فربّ شاعر ذاع صيته في الآفاق بقصيدة واحدة وربّما ببيت واحد، وربّ كاتب لم ينشر أكثر من كتاب واحد، ومع ذلك فكتابه ذاك يعتبر علامة بارزة في تاريخ الأدب. ومؤلفات المسعدي القليلة هي من هذا الصّنف. فهي في نظرنا أحد منعرجات الأدب العربي الحديث إذ لها من الإشعاع والتأثير ما جعل منها مدرسة أدبية لها أتباعها ومريدوها، هي مدرسة الرواية الذهنيّة التي توظف الأشكال السردية التراثية وتستعمل التقنيات الحديثة في الكتابة الروائية.

وقد دفعتنا جودة هذه الكتب إلى الاهتمام بكلّ ما ألّف وقال: دراسات ومحاضرات، وأحاديث لصحف ومجلاّت، ومقدمات لكتب

---

1- *عمران في مرآة إخوته أو فنّ التنويع في قصّة الإنسان، قراءة في قصّة "من آيام عمران"*، ص 27.

شتّى، فرأينا بإيعاز من وزارة الثقافة أن نجمع *"أعماله الكاملة"*. ففوجئنا أنّ من عُدَّ في عداد المقلّين قاربت مؤلّفاته الألفي صفحة فحرصنا على توثيقها وتحقيقها، فكان هذا الكتاب.

وإنّ أدبا إنسانيا كهذا، البالغ أرقى درجات الفنّ لجدير بالتكريم والتمجيد، وقد نال كاتبه الصنف الأكبر من وسامي الاستقلال والجمهورية وجائزة الزعيم بورقيبة لسنة 1979 ووسام الاستحقاق الثقافي وجائزة الألكسو وغيرها.

وقد كتب عنه ما يفوق الثلاثين من الكتب والرسائل الجامعية فضلا عن عشرات المقالات، وترجمت آثاره إلى الفرنسية والاسبانية والهولندية وغيرها. وقد رأينا أن نثبتها جميعا في ما سمّيناه "مكتبة المسعدي"، وأن نذيّل بها هذا المجلد الأوّل فضلا عن تعريف مفصل بأنشطته. ولا يكاد يعرف في المشرق العربي من الأدباء التونسيين غير الشابي والمسعدي رغم كلّ المحاولات التي قمنا ونقوم بها للتعريف بآخرين. وما تكريمنا له هذا اليوم إلاّ مساهمة أخرى في التنويه بأصالة فنّان عرف كيف يعبّر عن أعمق قضايا الإنسان ومنزلته في الكون وتوقه إلى الحرية وإرادة الفعل والخلود والإطلاق في أسلوب يذكّر بعمالقة النثر العربي وأساطين الشعر.

ولهذه الأسباب وغيرها تعالت أصوات في المدّة الأخيرة تطالب بترشيحه إلى جائزة نوبل. ونحن نساند تلك الأصوات لأنّ من نالها من الغربيين والأفارقة والأمريكيين اللاتينيين لا يفوق إنتاجهم إنتاجه كمّا وكيفا.

واعترافا بالجميل يسعدنا أن ننوّه بكلّ من ساعدنا على جمع هذه المؤلفات والدراسات ونخصّ بالذكر:

- وزارة الثقافة التي أوعزت إلينا بهذا المشروع الرائد.
- أسرة الأستاذ محمود المسعدي وخاصة السيدة درّة بوزيد التي أمدّتنا ببعض المقالات الصحفية.
- مؤسسة الإذاعة والتلفزة التونسية التي سلمتنا مشكورة بعض التسجيلات الإذاعية والتلفزيّة.
- الأستاذ توفيق بكّار والأستاذ محمد فرج الشاذلي والباحث كمال الرياحي الذين نبّهونا إلى جملة من النصوص الهامة.
- والصديق عبد الوهاب الدّخلي الذي اهتم بترجمات أدب المسعدي إلى اللغات الأجنبية.

**محمود طرشونة**

# التّعريف بمحمود المسْعدي

ولـد محمـود المسـعدي بتازركـة مـن ولايـة نـابل في 28 جـانفي 1911. وحرص والده الذي كان يشتغل عـدلا على تلقينـه القـرآن منـذ الصغر فأرسله إلى كتّاب القرية فحفظ نصيبا وافرا قبل أن يزاول تعلمه الابتدائـي بالفرع الصادقي بالعاصمة من سنة 1921 إلى 1926. ولا يَخْفى مـا للقـرآن من أثر عميق في أسلوب المسعدي وتصوّراته الذّهنية والفكريّة التي زادتهـا آثـار الأدبـاء العـرب القدامـى وكتـب المفكريـن المسـلمين تعميقـا. وقــد سنحت فرصـة التعـرّف عليهـم بـالمعهد الصـادقي الـذي زاول فيـه تعلمـه الثانوي من سـنة 1926 إلى 1932 وأحـرز بـه علـى دبلـوم انتهـاء الـدروس والجزء الأول من البكالوريا. ثم التحـق بمعهـد كـارنو فتحصّـل منـه علـى الجزء الثاني من البكالوريا سنة 1933.

ودفعـه التعطّـش إلى المعرفـة والسـعي إلى تعميـق اطلاعـه علـى الـتراث العربي والثقافة الغربية إلى السفر إلى باريس والانخـراط منـذ سـنة 1933 في سلك طلبة كلية الآداب بجامعة الصربون، فتخرّج منها في اختصاص اللغـة والآداب العربيـة بشـهادات الإجـازة (1936) والدراســات العليــا (1946) والتبريز (1947). وسجّل موضـوع دكتـوراه دولـة يـتركّب مـن أطروحـة رئيسـية حـول "مدرسـة أبـي نـواس الشـعريّة" وأطروحـة تكميليـة حـول "الإيقاع في السجع العربي" نشرها في تونس سنة 1981.

واضطرّته ظروف الحرب العالمية الثانية إلى البقاء في تونس منذ حصوله على الإجازة في الأدب العربي، فدَّرس بمعهد كارنو من سنة 1936 إلى 1938 ثم بالمعهد الصادقي من سنة 1938 إلى 1946 كأستاذ مجاز ومن 1947 إلى 1948 كأستاذ مبرّز. وانتدبه مركز الدراسات الإسلامية بجامعة باريس للتدريس منذ نجاحه في مناظرة التبريز إلى سنة 1952 لكن دون أن ينقطع عن التدريس في تونس وبالتحديد في معهد الدراسات العليا الذي كلّف أيضا بإدارة قسم الإجازة في الأدب العربي به من سنة 1948 إلى 1955.

وهذا النشاط المكّثف في ميدان التّعليم العالي في تلك الفترة التي كانت أخصب فترات إنتاجه الأدبي لم يمنعه من الاهتمام بشؤون وطنه الرازح تحت نير الاستعمار الفرنسي.

فقد ناضل في صفوف الحزب الحر الدستوري التونسي منذ سنة 1933 وكلّف في نطاق حركة التّحرير الوطني بشؤون التّعليم وانضمّ إلى الحركة النقابية وانتخب رئيسا للجامعة القومية لنقابات التعليم وأمينا عاما مساعدا للاتحاد العام التونسي للشغل منذ تأسيسه سنة 1948 إلى سنة 1954 وكذلك عضوا باللجنة التنفيذية للأمانة المهنيّة العالمية للتّعليم (1951-1955). وقد أبعدته السلط الاستعمارية بسبب نشاطه السياسي والنقابي إلى الجنوب التونسي يوم 6 ديسمبر 1952 أي غداة اغتيال الزعيم النقابي فرحات حشاد، وبقي في المنفى إلى ماي 1953 ثم شارك كعضو في الوفد التونسي في المفاوضات التونسية الفرنسيّة التي أفضت إلى الاستقلال الداخلي سنة 1955. وتجدر الإشارة في مجال الحديث عن نشاطه السياسي إلى مشاركته بعد الاستقلال في الوفد التونسي لَدَى الأمم المتحّدة في دورتي 1956 و1957 وإلى انتخابه عضوا بمجلس الأمّة منذ سنة 1959 إلى 1981 ثم رئيسا له من 1981 إلى 1986 فضلا عن نشاطه الحكومي.

فقد حافظ الأستاذ محمود المسعدي بعد الاستقلال على اهتمامه بشؤون التّعليم والتربية فعيّن مديرا للتّعليم الثانوي بوزارة المعارف من سنة 1955 إلى سنة 1958 عُيّنَ إثرها متفقّدا عامّا للتعليم الثانوي، فعرف عن كثب مشاكل التعليم بتونس وواكب تطوّره وتونسته، وذلك ما أهّله إلى تحمّل مسؤولية إصلاحه والتخطيط لتعميمه وزيرا للتربية القومية، فشغل هذا المنصب طيلة عشريّة كاملة (1958-1968) أعدّ فيها مشروع "الإصلاح التربوي" وسهر على تنفيذه. ويعتبر هذا الإصلاح أول تصوّر تربوي وطني بتونس المستقلّة، كما أعدّ "التخطيط العشري للتدريس" الذي كانت غايته تحقيق تعميم التعليم الابتدائي خلال عشر سنوات والتنمية المتناسقة للتعليم الثانوي والعالي. ويعتبر هذا المخطّط أول مخطّط منهجيّ للتنمية التربوية يُحقق في بلد إفريقيّ مستقل. وكان هذا التخطيط فيما بعد أحد أسس "المخطّط القومي التونسي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية" الذي أعِدَّ خلال سنتي 1961 و 1962.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الأستاذ محمود المسعدي قد أنشأ في الفترة التي قضاها وزيرا للتربية القومية نواة الجامعة التّونسية منذ سنة 1960 وأصدر قانونها الأساسي وأحدث كلياتها ومعاهدها العليا المختصة ومراكز البحوث التابعة لها.

ثم تحوّل اهتمامه إلى النشاط الثقافي إثر تولّيه وزارة الشؤون الثّقافية من سنة 1973 إلى 1976. ومن أهمّ ما أنجزه في تلك الفترة تأسيسه لمجلّة "الحياة الثقافية" التي تصدرها الوزارة منذ 1975. ورغم اختلاف الظروف فكأن الأستاذ المسعدي أراد بها بعثا جديدا لمجلّة "المباحث" التي ترأس تحريرها من 1944 إلى 1948.

والواقع أنّ الأستاذ المسعدي لم يكن حين تولّيه وزارة الشؤون الثّقافية غريبا عن دنيا الثّقافة إذ كانت له أنشطة مكّثفة في منظّمتي اليونسكو الدولية والالكسو العربية منذ 1958.

فقد تولّى رئاسة اللجنة الوطنية التونسية لليونسكو ورئاسة الوفد التونسي للمؤتمر العام لهذه المنظمة من 1958 إلى 1968 ثم من 1973 إلى 1976.

وبرز في صلب المنظمة بآرائه الداعية إلى تصور ثقافة عالمية تستفيد منها الدول المتقدّمة ودول العالم الثالث على حدّ سواء. فتوِّج نشاطه بانتخابه عضوا بالمجلس التنفيذي للفترة الممتدّة بين 1974 و 1978 ثم جدِّد انتخابه للفترة الممتدّة بين 1980 و 1985.

وفي هذا النطاق عُيِّن عضوا استشاريّا بالمعهد الدولي لتخطيط التربية التابع لمنظمة اليونسكو لمدّة أربع سنوات وعضو لجنة الصياغة ومدير أحد أجزاء كتاب حول "مختلف مظاهر الحضارة الإسلامية" الذي كلّف مؤتمر اليونسكو المدير العام بإعداده. وقد تجسّم نشاطه الثقافي الدولي في دراسة حررّها بصفته إحدى الشّخصيات العالمية السبع الذين طلب المدير العام لليونسكو رأيهم في موضوع "إلى أين تسير التربية ؟" استعمل وثيقة أساسية قدّمت للّجنة العلميّة لتنمية التربية التي ترأسها السيد إدقار فور (Edgar Faure) سنة 1972 وكان جواب الأستاذ المسعدي في دراسة ضافية بعنوان "*التربية اليوم وغداً*" استعملت في كتابين أَعَدَّتْهُمَا اللجنة بعنوان "*تعلم كيف تكون*" و"*التربية في تحوّل*". وفي نفس المجال الثّقافي الدُّوليّ كتب الأستاذ المسعدي دراسة مطوّلة بعنوان "*التنمية الثّقافية في المنطقة الثّقافية للدول العربية*" وهي تمثّل فصلا من كتاب لليونسكو عن المناطق الثقافية الستّ في العالم. ولهذه الدراسة علاقة بالمهمّة التي كلّفته بها

المنظمة كخبير لدى عدّة دول عربيّة تتعلق بحالة تطورّها الثّقافي (فيفري - مارس 1979).

فمكنته خبرته من المشاركة في عضوية العديد من اللجان التابعة لليونسكو وبالخصوص :

- لجنة خبراء الثقافة العربيّة (مقّررا)
- لجنة الخبراء المكلّفين بتقييم المراكز الجهوية لليونسكو في الشرق الأوسط.
- لجنة الخبراء لإنشاء جامعة دوليّة.
- لجنة الخبراء حول وضعيّة الفنان.

أما في نطاق المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فقد شارك منذ سنة 1979 في عضوية :

- لجنة الحكماء للثقافة العربية
- لجنة صياغة الموسوعة العربية الكبرى.
- مجمع اللغة العربيّة بالأردن سنة 1980.

ولعلنا لهذه الأنشطة المكّثفة في ميدان السياسة الوطنية والثقافة القومية والدولية نفهم أسباب اقتصار الأستاذ المسعدي على عدد محدود من المؤلفات القصصيّة.

فقد لاحظ العديد من النّقاد أنّ الآثار القصصية التي اشتهر بها أُلفت جميعها ببين 1939 و 1945 وأنّ المسعدي لم ينتج منذ ذلك التاريخ آثارا أدبية في مستوى تلك الكتب من الناحية الفنية.

فهذه الأنشطة السياسية والمهنيّة والثّقافية قد شغلته عن التفرّغ للأدب إذ يحتاج ابتكار آثار فنية إلى كثير من التروّي والتّجويد، ففضل الانسياق

إلى تيّار الأحداث للتأثير فيها بصفة مباشرة بالممارسة الفعلية عوض الاقتصار على التصوّر والتنظير.

فالمتأمل في الأنشطة المذكورة يلاحظ أن كلّ نشاط يفضي إلى آخر مع شيء من التّصعيد. فقد قضى في مباشرة التعليم ما يقارب العشرين سنة من (1939 إلى 1955) تحوّل إثرها إلى إدارته ثم إلى التفكير في إصلاحه والتّخطيط لتعميمه (من 1956 إلى 1968). وهو في المرحلة الأولى قد واكب حركة التحرير الوطني بنشاط سياسي ونقابي بينما صار في الثانية مسؤولا حكوميّا. وفي نفس هذه المرحلة الثانية اهتم بشؤون الثقافة الدّولية رئيسا للجنة القومية لليونسكو تحوّل إثرها في السّبعينات إلى مباشرة الشؤون الثقافية بتونس وزيرا للثقافة والمساهمة في أعمال منظمة اليونسكو عضوا بمجلسها التنفيذي.

ولمختلف هذه الأنشطة نال الصنف الأكبر من وسام الاستقلال والصنف الأكبر من وسام الجمهورية ووسام الاستحقاق الثقافي وجائزة الرئيس لسنة 1979 وجوائز وطنية ودوليّة أخرى...

وإن حركة دائبة كهذه من شانها أن تعمق تجربة الإنسان الوجودية وتؤهّله لخلق قطع فنّية متميّزة بغزارة الإلهام وإتقان الفنّ لو أمكنه التفرغ له. ألم يقل غيلان : "**الْحَياةُ وظِيفَةُ الإنْسان في الْقِصَّة والْعُمرُ مَدَاهَا**" ؟ ألم يردّد قول أساف : "**لا تكون الطَّريقُ طَرِيقاً حتَّى تَكُونَ بِلاَ نهَاية**"؟...

**محمود طرشونة**

# السّدّ

هذا كتاب أردتُه صدقاً لا يختلف معه وجه الحقيقة في الوحدة والسرّ، عن وجهها في الجماعة والعَلَن. كتبتُه في عهد انفرادٍ وتأمّلٍ، وامتحنته بعد العِشرة والعمل مع الناس سنوات، فلم أَلفِه في جوهره تنكّرَ لي، ولا أنكرتُ منه. فأخرجته على علاّته.

وبعد، فهو كتاب الإيمان يَسَع من الحيرة أقصاها، ومن الشكّ أقساه.

وهو كتاب الإيمان بالإنسان، لأنه كتاب الفناء في الخلق، في الله...

**سبتمبر 1955**

**المؤلف**

# الاهـــداء

إلى روح المـرحـوم فـرحـات حـشّـاد

أخـــوّةً وفـــاءً "لإنـســـان"

م.

# الأشخاص

ميْمُونـــة : امرأة.

غَيْـــلان : رجلٌ، كائن زائف.

مَيَـــارى : خيال وطيْف وحبٌّ وجمال.

بغلٌ ذكيّ.

ذئبٌ ذو عُواء.

أطيافٌ وهواتف.

ووادٍ وجبل.

# الفاتحة

« ليس الشعر في أن تقول كلّ شيء،
بل هو في أن تُحْلِم النفسَ بكلّ شيء »

( سانت بوف - Sainte- Beuve )

# المنظر الأول

على منحدَر جبل أَخْشَبَ غليظ حزيز، نباته كالإبَر وأرضه ظمأى، وغبارهُ كثير وسماؤهُ صفراء.

آخر عشيّ.

امرأةٌ ورجلٌ يصَّعَّدان في عَقبةٍ يجرّان وراءهما بغلاً، فتنتهـي العقبة عند كهفٍ، فيقفانِ ويوقفانِ البغل.



**هي**

انظر الجبل.

**هو**

( يمسح عرقه عن جبينه ثم يرفع البصر ثم يقول )

قد نظرت الجبل.

**هي**

فماذا سمعت ؟

**هو**

المنظورات لا تُسمع. المنظوراتُ تُرى أو لا تُرى.

**هي**

( ترفع بصرها وتنظر طويلا ثم تقول)

فماذا رأيت ؟

**هو**

إني أرى جبلاً. فِيم السؤال ؟

**هي**

إنه جبلٌ... وليس بجبل.

**هو**

إنه جبل وليس بجبل !... ما هذا المنطقُ الجديد ؟

**هي**

منطقُ الجبال يصغر عندها الإنسان.

**هو**

هو هذا عبث لسانكِ قد عاد إليك.

**هي**

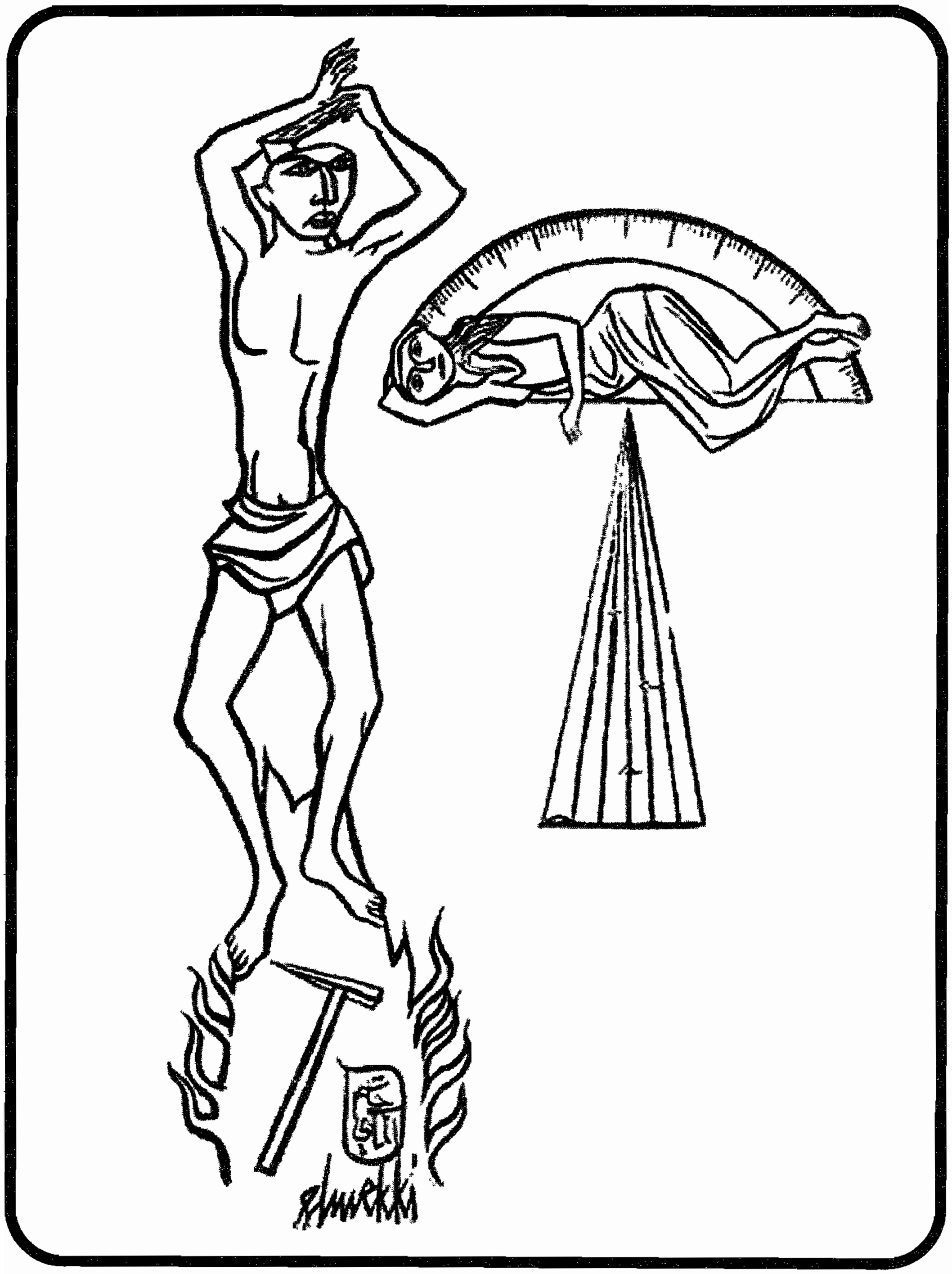
أَلا نحطّ عن البغل ؟

يقبلان على البغل يريدان أن يحطّا عنه فإذا هـو أيضـا رافـع رأسه كالناظر إلى الجبل.

**هو**

( للبغل )

أوَ أنت أيضا ؟



رسم : حاتم المكّي

... فقد نزلنا بالخيال وحللنا بما كنّا نتمنّى ...

**هي**

لا يا غيلاَن. إنما أنْ ثقُل الظهرُ فامتدّ العنق وارتفع الرأس. كـذا الدواب جميعا إذا أنقض الحملُ ظهرَها...
وكذا العباد.

**غيلان**

تعْنِين ؟

**هي**

الصلاةَ والدعاء. تُنقِض الأعْباءُ ظهورَ العباد، فتمتدّ الأعناق وترتفع الأبصار والرؤوس، وتكون الصلاة ويكون الدعاء...

( تبتسم )

وأنت إله البغل. بل انظر إليه يدعوك. أفلا تَفهم الأدعيةَ الصامتة؟

تُقبل على البغل تحطّ عنه ويُسْعِدها غيلان. فيحطّان عنه خيمةً وأوتاداً وخُرجاً بالمتاع كمتاع المسافر، ويلقيان ذلك كلّه على الأرض، ثم تجلس هي على حزمة أوتاد. وتمدّ يدها فتتناول دلوًا في جملة المتاع، وتجعل تعبث بها، وهي مطرقة ساكنة. ويجلس غَيْلان ويُطرق أيضا ويبقى البغل على رأسيهما واقفاً مطرقا...
ثم تتكلم هي فتقول :

**هي**

هَا قد وصلنا يا غيْلان.

**غَيْلان**

نعم. لقد وصلْنا وانقطع الرحيل.

**هي**

ولكنَّا وصلنا يا غيلان آخِرَ عشيٍّ. انظرِ الشمس تغرب.

ينظر إلى الأفق الغربي أمامه كأن الشمس فيه لهبٌ من نار.
ويمسك عن الكلام، كأنما أصابه كلامها في الأحشاء، ساعةً
ثم يقول :

**غيلان**

ومع ذلك فقد نزلنا بالخيال وحلَلْنا بما كُنَّا نتمنَّى، وانتصبْنا وقرَّ القرار...

( تهمّ بالكلام فتقول ويومىء بيده )

لا. لا تقولي شيئاً.فإنك ستقولين إنّك تكرهين معنويَّ النُّزُول. أو تقولين إنه ليس أكذب من هذا القرار.

**هي**

لا، يا غَيْلان. ما همَّ لساني بشيءٍ من هذا. إنّما أردت أن أقول : حلول الدُّود بالثمرة، فالثمرةُ إلى التعفُّن والفساد.

**غيلان**

تقولين يا ميْمونة خطأً عظيماً. لأن الخيال لا يُؤكَل.

**ميمونة**

قد يكون قولك الحق... بل هو الحق. نعم. الخيال لا يدود ولا

يُؤكَل. الخيال آكلٌ أكول جَرَّاف. يأكلنا نحن. الخيال من أَكَلَة البشر.

**غيلان**

لِنجعلْه ثمرةً من أَكَلَة لحم البشر يأكلها الدّودُ وتأكلُنا أكلَ المنهوم. هل تدرين ما تَعْنِين ؟

**ميمونة**

نعم يا غيلان حبيبي. هو ما قلت : إن الخيال آكلُك وأنت آكله. فعلٌ واحد وزمنٌ واحد... ولكنّي لا أدري أيّكما يريد الانتقام من الآخر ولا أعرف لماذا. فهو يسكنك ويُلحّ إلى حدّ الإضجار، وأنت تربِّيه وتملؤه شحماً كخروف أضحية. ولا أعلم ما تريدان. إنكما بغلان حَرونان.

**غيلان**

قد نكون بغلَيْن حرونين، ولكنّا مع ذلك صديقان. ولا يريد أحدنا بالآخر شرًّا. ولن يأكلني ولن آكله. بل سندعوك معاً حتى تُؤمني...

**ميمونة**

أُومِنُ بماذا ؟ إن كان إيمانا بالمرمر الصلب والخطّ المطلق وعود الحياة اليابس، فقد آمنتُ منذ زمنٍ طويل.

**غيلان**

لا يا مَيْمونة. بل الكفر بالنواميس والحدود والعراقيل، وإنكارُ

العجز والاسلام، ونفيُ العدم هو الإيمان بالفعل... وأمّا خطوطك المُطلَقة، ومرْمرك الصّلب، وحساباتك، وما استَبدَّ عليك من سجون النفس والقوّة والعقل، فسنجعلها دُخاناً نرسله في السماء إرسالَ المدخن دوائرَ تذهب هباء، ظريفةً خفيفةً كعينيك زرقاء...

( يهتف هاتف في صوت غريب لا إنس ولا جان )

**الهاتف**

تدعو ماذا إلى ماذا ؟
إلى أيّ إيمان ؟
آيمانك بنا ؟
أم إيماننا بك ؟
قُلْ، قل لنا يا هذا ؟
تدعو ماذا إلى ماذا ؟

( ثم يسكت فيهتف هاتف ثان بصوت كصوت الأوّل ولهجة استهزاء : )

أنا الإنسان...
مادام الجدُّ
مادام الجًهدُ
ما اشتدّ العزمُ
وَليدُ النفسِ
وليد النارْ
لا أبالِي...
سواءٌ عندي مآلِي

إلى النعيمِ
إلى الجحِيمْ
إلى العذابِ
إلى الثّوابْ
لا أبالي...
أنا الإنسان.

( يتناظر غيلان وميمونة )

**غيلان**

إني أسمع هاتفاً.

**ميمونة**

وإني أسمع ما تسمع.

( يتضاحكان )

إنّه وحيٌ وإنّا نبيّان.

**غيلان**

أوْ هو آلةٌ سيبتدعُها النّاس يوماً ويسمّونها المذياع أو الهاتف.

( يهتف هاتف ثالث : )

مِن فوق الجبلْ
أشْرفْ على الوهدِ
أطلْقِ البصرْ
ثم اخرُج من الوادي
إلى وهْد القدرْ.

هو كشفٌ، إنه هو السرابْ
يخرق الأرضَ نوافذْ
يفتح الأبوابْ
يُفْسِحُ الأفْقَ عليك
يُغري بالذّهابْ
لكنِ القحْط والنّارْ
من ورَائِهْ
ولَظَى حرِّ الأُوارْ
تَحتَ مائهْ.
نارٌ منصبَّهْ
وخَضْمُ فوادْ
فلا تعرض للربَّهْ
ولا تقربِ الوادْ
فهي صَيْهودْ
ورعْدٌ رُعدودْ
وفلقٌ جُلمودْ
ذاتُ الرواعد الربَّهْ
فادعُ ذات الرواعدْ
وسبِّح لصاهَبَّاءْ.

( تسكت الهواتف )

**ميمونة**

ما صاهَبّى يا غيْلان ؟

**غيلان**

لا أدري. اسألي الهاتف.

**ميمونة**

أيّها الهاتف، ما صاهبّى ؟

**الهاتف**

لا تحرِّفي. قوّمي الاسم. هو بالمدّ، لا بالقصر.

**ميمونة**

قد أصلحت : صاهبَّاء. فما صاهبَّاء ؟

( تعود الهواتف في صوت رخيم تتغنى : )

إنها قرنٌ طويلْ
قرن ثور، قرن فيلْ.
هَلْهَبَا هَلْهَبَّا.
سُبِّحت صاهبَّاءْ.

تتجسم الأصوات شيئا فشيئا فتبرز أطيافاً، كأحلام النائم في ليلة صيف خفِافاً، فيدور بها الرقص حولهما طوافاً.

ربَّة اليُبْسِ.
ربَّة القحطِ.
تسكن الجبَالْ

الصخرةُ الربَّهْ
هَلْهَبَا هَلْهَبَّا.
سُبِّحت صاهبَّاءْ.

( تذوب الأطياف كترّيع السراب )

**ميمونة**

أرأيتَ يا غيلان. الماء إثمٌ وسيّئة.

**غيلان**

هذه الأطياف لطيفة. إني لَأجِد ريح عود وندّ. لعلَّهم يتطهـرون بالعود لِئلاَّ يقربوا الماء.

**ميمونة**

لا يا غيلان. إنهم يتطهّرون بالنور. بالشمس. بالقيظ. بالنّار.

**غيلان**

لا أرى المغتسِلَ بالنّار طاهراً.

**ميمونة**

هي الألفاظ تغرّك. إنهم لا يغتسلون بل يتطّهرون.

**غيلان**

المحترِق غير المتطهّر. إنّي أراهم فحماً.

**ميمونة**

ليس أطهر ممَّن احترق فصفّته النّار.

**غيلان**

ما غنَّت هذه الأطيافُ الهواتف ؟ ما ترين يا ميمونة ؟

**ميمونة**

هي أَلْسِنَة نبيّ القوم.

( بعد توقف قصير )

هل جُلتِ فيهم ؟

**غيلان**

ما ذَهبت نفسي إلى شيء من ذلك. وما هَمِّي منهم ؟ – إنّما ذهبت في الوادي فانحدرت فيه، ورأيت الهاوية يغور في غَيْبها ماءُ العين... وقام السدُّ إلى عيني. سيكون جميلا رائعا بديعا إذا ما بُنيته يا ميمونة.

**ميمونة**

دعٍ سدَّك المستقبل وحديثه، فإنه لا يلحقك رجالك وبنّاؤوك إلا غداً.

**غيلان**

ألكِ حديث خيرٌ منه ؟

**ميمونة**

نعم، خير وأروع وأهول. للقبيلة نبيّ.

**غيلان**

نحن هنا كآدم وحوّاء وقد تخلّصنا من وُشاة الجنّة وفضوليّي

الملائكة وعيــون الآلهـة. ولسـنا في حاجـة إلى الأنبيـاء. إنمـا تُرسَـل الأنبياء إلى وُلدِنا من بعدنا.

**ميمونة**

ليس أكره إليّ من تشبيهنا بآدم وحواء، وليســت ولادة البشـريّة من شأننا. أَلاَ تنسى البدء والخلْق ؟ اسمعْ حديث القوم ونبيِّهم فهـو أهمُّ عليك...

**غيلان**

إذن أسمع... ولَسْتُ بآدم ولَسْتِ بحوّاء. هاتي حديثك.

**ميمونة**

ذهبت منذ ساعة في القبيلة فسِرتُ وجُلت.فكأنَّ الـوادي وادي البُرْص أو وادي الجذام. وإنّما كنــت أنـا البرصـاء. فإنـه لم يقربْـني أحدٌ ولا مسَّتْني منهــم يـد ولا دنـا منّـي كـلام. فكـأنّي أجـول في شُرود. وكانت أجساد القوم متوتّرة كجهـد الفـارِّ مـن سـجنه... ومع ذلك فقد سرتُ فيهم حتى كدت أن أخرج عن آخر بيوتهم. فأنا عند آخر بيت إذ رأيت جارية. وكانت رأتنا عند وصولنـا إلى القبيلـة وكـانت هنـاك مستلقيةً علـى ظهـر صَفَــاة إلى الشــمس. وسألتها فقالت إنها تتطهّر. وكانت لا تكاد تكون مُعْصِراً ولكنّـي رأيتها مُفتَّحة إلى الشمس قائمة النهد رخـوةً كالذّائبـة لـذّة. وهـي التي حدثتــني عـن صاهبَّـاء والنبـيّ. وأرتْـني الربَّـة هنـاك علـى رأس الجبل. ولكنّي نظرت فلم أر شــيئا فقلـت : لا أرى ربَّـة ولا ربَّـا،

فقالت : لا بدّ من عشرة أيّام صياماً عن الماء لتحتدّ عينك وتستقيم لها الرؤية. فقلت : لست بناقة حتى أصبر عن الماء هذه المدّة. ويئست من رؤية صاهباء.

**غيلان**

والنّبيّ ؟

**ميمونة**

لم أَرَه كما أني لم أر الربَّة.وإنما قالت لي الجارية : لو رَأيتِه !.. إن له جلداً أغبَرَ اللون قد شُدَّ على عيدان عظامه كالدلو تُمَطّ شديداً. ووصفتْه لي حتى تصوّر النبيّ لعيني كطبل مُدَّ جلده مدًّا شديداً. ولكنّها زادت فقالت : لم يرَ النّاس أشدّ هزالاَ منه. فأفْسدتْ عليّ تشبيهه بالطبل، لأنه لم يرَ الناس ولا ثعلب الحكاية أشدّ من الطبول سمنا ولا أضخم منها جثة.

**غيلان**

وماذا يقول القوم عن السدّ وعنّي ؟

**ميمونة**

ما أقلَّ صبرَك ! وكيف أعلم ما في نفوسِ الصُمِّ البُكم ؟ إن شئتَ أن تعرف رأيهم في سُدّكَ فاصبر حتى تُنطِقَهم صاهباء. أمّا الآن فلا لسان غير لسان نبّيهم. وقد حدثتني الجارية عن النبيّ ولسانه، وأنه كثير الأصوات لا تُحصى هواتفه. وقالت : ولسان النبيّ وأصواته رحمة. لأنها تنذر كلَّ حيّ بما قضي له من شأن في

حياته وترسم له حَدَّه. ثم قالت : فلتصلّي يا هذه لألسنة النبيّ وأصواته. و لم أصَلِّ لنبيّ ولا لسان، ولكنّنا سمعنا الساعةَ يا غيلان أصواته... وإني لأراها تُنذر...

**غيلان**

إن كان إنذاراً، فلِمَ جاء في ما سمعنا من الرّطانة ؟

**ميمونة**

( هازئة)

لو جعلتَ مدرسة لتُعلّم الآلهة البيان ؟

**غيلان**

إنهم يخشون إن تكلَّموا لغة البشر أن ينفتح لنا في أُلوهيتهم فنُصِيبَ شَقًّا. فهم يفضلون أن يترجم عنهم الأنبياء...

( يطرق ساعة ثم يقول : )

لكن دعْنا.

**ميمونة**

ما تقول يا غيلان ؟

**غيلان**

( محتدّا فجأة )

أقول إن أهل هذا الوادي قد سرقوا للوهاد سرَابَها، ولبسوا هزالَهم كما تُلبس الخِلَع السلطانية، واتّخذوا لساناً لنبيّهم كثيرا كألسنة السعالى، وخشعوا لربّةٍ خافية وقالوا : العطش والقحط،

ولينْتَفِ الماء. يحسَبون أنهم وحدهم يقاسون الظمأ واليبس والقحط، ويحبُّونها ويتّخذون أرواحَهم منها. ولكنّي أنا أيضا أُحبها وأقاسيها.... وإنَّما هم قومٌ أَفعمتْ نفوسَهم مياهٌ كاذبة، ورطوبة كاذبة، وسماء كاذبة. وإن نفوسهم لنفوسٌ باطلة الكيان كاذبة. فرُّوا من الفعل عجزاً وبطلانَ نفس. بل انظري هذه العين البديعة تنفجر عن جنب الجبل، كيف تركوها منذ آلاف السنين تذهب فتغور مياهها وحياتها في الهاوية بمنقطَع الوادي. وانظري مياه المطر لا تسِحُّ إلا على الجبل، كيف تركوها منذ آلاف السنين تسيل فتنحدر فتلحق مياه العين فتذهب فتغور في الهاوية بمنقطَع الوادي. و لم يخطرْ لهم ببال أن يقيموا سداً فوق الهاوية فيحبسوا ماء العين ومياه المطر والجبل... وإني لأرى سدِّي بين يديّ وأرى المجاري وأرى الأنابيب ممتدّةً فوق الهاوية جسراً حديداً يهزأ من الهاوية متدافعاً إلى الوهاد. وإني لأرى المياه متدفّقة غالبة قاهرة، تتدافع إليك تدافُع المتمَنَّى يُزف إليك بنفسه. وليكن الخلقُ ولتكثرِ الولادة! هذه الأرض المتجعّدة المغبار كالعجوز الفاجرة، لأُحبِلنَّها ماءً، فأملأنَّ بطنها فأخرجَنَّ حياة.وسترينَّها يا ميمونة يومئذ، وسترينَّهم معرضين عن صاهباء والشمس والقحط، ينبذونها في العراء. وستريْن الجارية يومئذ يقوم نهداها شهوة تتبرَّج للماء، ويشملها الماء ولا تنفتح لشمس. وسترينَّهم يطرحون شمسهم في مياه السدّ الغامرة الهادئة. ويذهب الماء بصاهباء وقحطها ونبيّها...

**ميمونة**

قد سمعتُ كلاما ككلام الأصوات الهواتف. أَو أَعْدتْك يا غيلان؟

**غيلان**

أمَا تلك فلا أرى لها غير بائع بَبَّغاوات يُتاجر بها.

**ميمونة**

إنّي أراها تنذر يا غيلان...

تملك ميمونةَ خواطرُها، ويملك غيلانَ الفكرُ في سدّه، وينعزل عنها وتنعزل عنه...

ويخطر فوق رأسيهما طائر غريب فيمرّ سريعا أسودَ، فلا يَطرَفان فيعود فيمرُّ فوق رأسيهما سريعاً أسودَ. هامةً أو صدى...

**ميمونة**

( مقشعرَّة )

ألاَ ندخل الخيمة ؟ إنه ليس أكره إليَّ من طلائع الليل الطيورِ الممتلئة ظلامًا.

**غيلان**

الخيمة ؟ لا بُدَّ من ضربها قبل دخولها... أترين يا ميمونة التشاؤم والطيرة ؟

**ميمونة**

( بصوت خافت ونفسها إلى غير ما تقول )

التشاؤم والطيرة ؟

( تقوم وئيداً وتقصد إلى الخيمة تريد أن تضربها )

**غيلان**

لا بدّ أن تكون انقلبت الأصوات الهواتف طائراً أو كأن طيور هذا الجبل إذا ماتت لا تتعفّن ولا تفسد، بل تجفّ وتيبس كالقديد. ويُتّخذ منها لأمثالنا كالفزّاعات تُنصَب في الزَّرع.

يقوم غيلان. فيعود الطائر ويمرّ أمامه ويصيح صيحةً ثقيلة سوداء كالوحْل. فيضربه ضربةً تطرحه على الأرض. ويضحك الطائر. ويغمّ الدنيا شيءٌ من الظلام قليل كالغيبة أو كالبُحَّة.

**غيلان**

دعي يا ميمونة الخيمةَ.

( يهمّ بالانصراف )

**ميمونة**

إلى أين ؟

**غيلان**

نطلب فرجةً وفسحة.

يذهبان فيبقى البغل وحدَه. ثم يخرج بعد ساعة من وراء حجرة حمراء حيَّةٌ طويلة غبراء، فتتثنى ساعةً حول الطائر مطروحاً وتحفّ حفيفا. ثم تنشب فيه أنيابها، ثم تذهب به تجرُّه. ويُسمع عواءُ ذئب ثلاثا طويلات كالنحيب. ثم إذا وقع

أقدام قوم قادمين كضرب الطبل يرجّ الأَرضَ رجًّا. كالجيش العظيم ولَيسوا جيشاً.. ويرهف البغل أذنيه. وتَنْصَبُّ ظلمات الليل....

# المنظر الثاني

يدخل جماعةٌ مـن الرهبـان قَوَمـة صاهبَّـاء. في خشـوع ذُلٍّ ومشية قهقرى. ستّة وفيهم مشـعلٌ وسـابعهم طَبـل. ثـم سـتَّة وسابعهم إناء مـاء. مشـتملون بـبرانيسَ أسـباط، وليـس يبـدو منهـم إلا الرؤوس ناتئة كالعناصل وقد نبتـتْ في قللهـا خصـالٌ من شعر سوداء، مرسلة كضفائر النساء. وسالت منها اللّحَى غزيرةً كثيفة شعثاء .أولئك قوَمةُ صاهبَّاء، وسـدنةُ بيـت النـار والماء.يدخلون فيظنّ البغل أنه المسْقَى ولكنّهم يجعلون الماء أمام الكهف وسط الفناء. ويستديرون حوله، وعين البغـل مشـتهية ناظرةٌ حيرى. يبتدئ التّرتيل ويبتدئ الدعاء. وتقـوم الغوْغـاء. فتسير الهوينا :

سـحْرُ مـاء الهَبَّـاءْ.
سُـبّحَتْ صاهبَّـاءْ
هَلْهَبَـا هَلْهَبَّـاءْ
سُـبّحَتْ صاهبَّـاءْ

ثم تسرع وتشتّد، والأصوات تحتّد، والأعناق تمتدّ، والطبل يهدهد. دُعاءٌ في رطانة، وكلام بعيد المعنى :

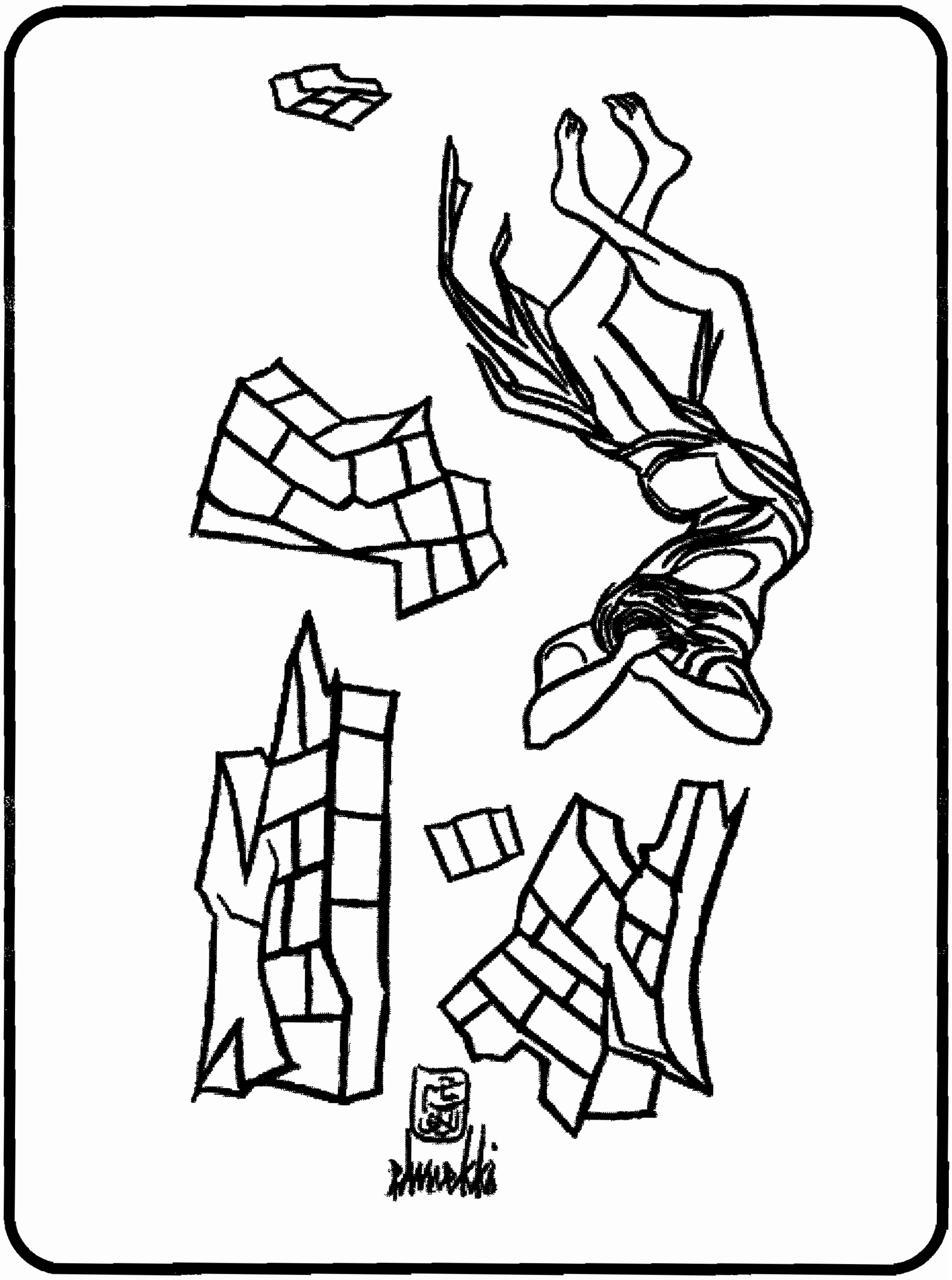
ضَمَوحٌ قَذِرْ — بضَوْء غَمِرْ
سَهيدٌ يَشِرْ — رمَال الدِّماحْ
شِضَاضَا عَمِدْ — كَهيبَ المَرَدْ
تُمَفْرٌ طُرِدْ — بطَخْر الكِرَاحْ
لِكَيْفٍ بَرمْ — لِرَفْض قَدِمْ
لِمَاض طَغِمْ — لِدَأْفِ الجرَاحْ
هِيَمْرٌ ضَخِلْ — وَقَافٍ مُغِلْ
يُنَبْري الدَّغَلْ — بكَشْفِ الرّماحْ
فهَاتِ الصَّلَندي — وَدَوْفِ الرياحْ
بجُبْء الرُّوَيْدي — وسخْط الضّراحْ

يسكتون فيَنْفَلِقُ الطبل ويقوم صوت صاحبه كالزبانية :

سِحْرُ مَاء الهَبَّاءْ
سُبّحَتْ صاهبَّاءْ
هَلْهَبَا هَلْهَبَّاءْ
سُبِّحت صاهبَّاء

فيُجيبُونَهُ في صوتٍ همْهَمَة :

هدْهِدِ الهُدْ — واسْدُد السُّدْ
وانْقُض المُدْ — واصْعَق الرَّاحْ



رسم : حاتم المكّي

... لقد رأيت أمراً بديعاً عظيماً ومفزعاً هائلاً ليس فوقه هول ...

ويعودُ إلى طبلهِ يُرْعِده، والى صوتـه يرسله سـريعاً ضخمـاً شديدا، يتثّنى كموْجة غيض :

| | |
|---|---|
| صغـــــــابُ الهَـــــــوَادمْ | وصخْـــــــرٌ صَـــــــلاَدمْ |
| مِـــــــدْرَا دَافـــــــقْ | ظَـــــــنْوَى غَافِـــــــقْ |
| برَكْـــــمُ الضَّنـــــاهِمْ | كَـــــعَفْر الجـــــلاَهِمْ |
| غُمْيَـــــا دافِـــــقْ | فـــــضْوَى غـــــافِقْ |

ويَمسُّ الصلاةَ والدعاءَ مثلُ اللّهب، وتتحرّك الريح وتخْفـق وتَقـوم البَرانيس فتهـتز، وتـأخذ في رقــص وإيقــاع، ورعــد وإرجاع. حوافرُ خيل ووقعٌ جمُوح، كقَسْوة الصخــر أو شِـدةِ الروح، وتتعالى الصيحات بـ :

" هَلْهبَا هلبَّاء سبّحت صاهبَّاء "

وتنقبـض الوجـوه، وتنتشـر الشـعاف كالظلمـات، وتجعـل الـبرانيس تُغربـل وترحـي، رفيـفَ "الطـائر الميمـون"، كأنّهــا سرابٌ مجنون.. ويقول البغل :

## البغل

عواءُ الذئاب يُستَجَاب أم لا يُسْتَجاب ؟ سأسـأل غيـلان ربّـي.
لكـنْ أذئـاب ؟ أم أطيــافُ خالي الـعـصـور في تـيْــه الـعــذاب ؟
أم كلاب ؟ أم صخورٌ وأمواجٌ واضطراب ؟

ولا يهـمُّ الرهبـانَ مـا تقـول البغـال. فهـم في شـدة الغيــظ وعنفوان اللّهب. يضربون الصدور ويُحنون الظهـور. والطبـل يُدَمْدِم، وأصواتهم تُهَلْهبُ وتُهمهم. يدعون صاهبَّاء. يســألون

للماء النار، وللسّدود الدّمار، وليَديْ غيلان أن تُتبَّا. ولا تبطئ بالإجابَةِ صاهبَّاء. فيحترق ماء الإنـاء، وتتصاعد رُوحه، فإذا حَفيفٌ، وجوهرٌ نارٌ لطيف، كعين الآل خَفيف. فتسكن البرانيس ويخفت الطّبل، ويركعون لصاهبّاء. وتتباطن الأصوات ويهمسون حمداً :

مَـرُوتُ عَـذَابْ أَكيـلُ تُـرَابْ
علـى قَـوْس قَـابْ مـن مُفْتَنَـاهْ
رَمُـوضُ مَطَـاحْ عليـه بَـرَاحْ
وسَـبْعُ رَصَـاحْ في دَوْ فَنَـاهْ

ثم يقومون ويتحرّك الطبل سبعاً في مثل ارتعاد العربِد، ثم يختمون بالهمس :

كِسَـفْطُ الغُـرَبْ رقُـوفُ الصَّلَـبْ
فَـانِي الدِّيَـاحْ
مُنْطَـاءَ لِلصَّـبْ يَنْبُـو وَيَنْكَـبْ
غَادِي الجراحْ
يـا هِلْهـلَ الهَـبْ يـا طـالِبَ الـرَّبْ
هَذِي القِـرَاحْ

ثم يخرجون ستة وسابعهم طبل. ثم ستة وسابعهم نعيق البغل. ويتركونَ إِنَاءَ الماء، تخفق عليه روح الماء صَافِيةً زَرقاء.

ويبقى دويٌّ " هَلْهباء هَلهبَّاءْ " مُعلقاً بعدهم في الهواء كدُخان بَخور، ساعةً. ثم تسكن الأرضُ والسماء، فإذا ليلةٌ لَيِّنَة رزينة مَلْأَى ، كَحَمْل حسناءَ حُبْلَى، وشفقٌ كالفجر وشفةُ الليل عذبة، ونومٌ كالدهر يُفْعِم الليلة، وخلوٌّ كالنجم والنجم نعمة.

ولا يعود غيلان وميمونة إلا وقد ذهب من الليل....

# المَنْظَرُ الثَّالِث

بفناء الكهف وقد بدت فيه الخيمة مضروبة. الساعة أول الفجر، وقد انتشرت أشعَّةٌ ندِيّة في سماء رطيبة كالعجين، ولاحت الصخور والحجارة ليّنة وَرْديّة.

تخرج ميمونة من الخيمة في مبذل كسكب الماء رقيق شفّاف، وتجلس على صخرة أمام الخيمة. ثم يخرج غيلان بعدها.

**ميمونة**

( ناظرةً إلى السماء والفجر )

هذا الفجر يا غيلان، وهذا النور كأشهى الطعام.

ينظر غيلان إلى السماء والفجر ولا يقول شيئا، ثم يجلس قرب ميمونة وينظر إلى الأفق الشرقيّ.

**ميمونة**

لقد رأيتُ الليلةَ رؤيا.

**غيلان**

« يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين »

**ميمونة**

لا يا غيلان. ليس هذا.

**غيلان**

كنت أحسب أنك نسيتِ كل توراة وقرآن وانجيل. أَمْ تريْن من ظريف المزاح التشبُّه في الفجر بالأنبياء أبناء الأنبياء ؟ هم يرون الرؤى ليُلقَوْا في الجبّ ويكون لهم شأن مع امرأة العزيز فيصيروا أنبياء. أمّا أنت ؟ – الفجر ساعة جِدّ تكره المزاح.

**ميمونة**

ليس بمزاح.

**غيلان**

لكن ما شأني وذاك وما الدّاعي إلى التبكير بذكره ؟ أنا لا أعبر الرؤيا.

**ميمونة**

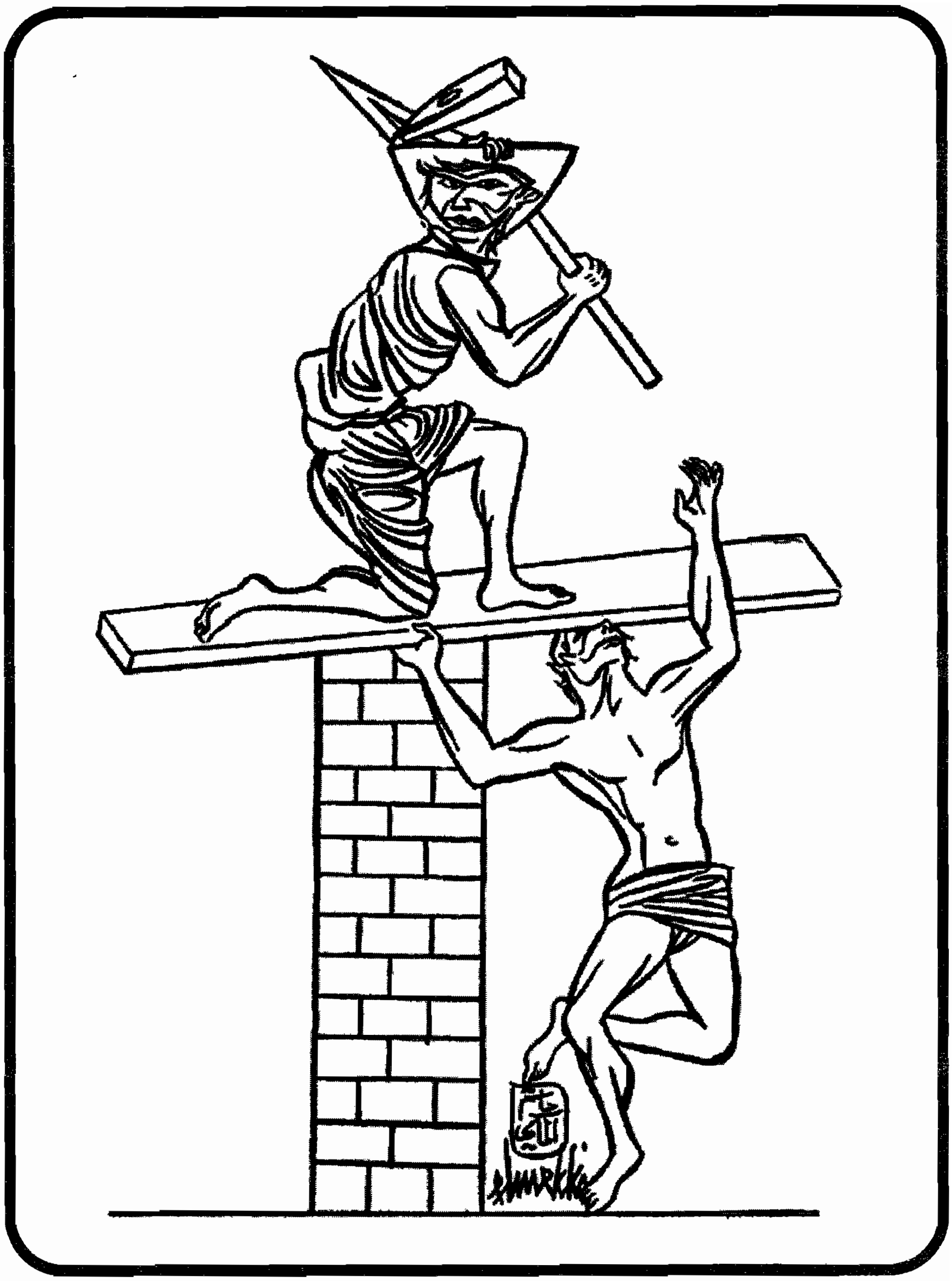
لأنه حقٌّ أني رأيت رؤيا...

**غيلان**

هذه البلاد ما أكثر الأحلام بها والأرواح ! وما أكثر الأصوات والأنبياء ! دعينا يا ميمونة، ولننتظرْ أصحابنا، فإنهم عمّا قليل بارزون من أثناء الأرض طالعون مع الشمس من الأفق.

**ميمونة**

... ولأنني لم أرَك في رؤياي يا غيلان.



رسم : حاتم المكّي

... جعلت من الأيدي والعزائم والسواعد والقلوب صواقِرَ وفؤوسا ومعاويل. وغلبت الصخر بالصخر ...

**غيلان**

إذن فما همِّي من رؤياك ميمونة ؟ أَدخليها في قـرآن أو إنجيـل أو بيعيها نَبِيَّ القوم.

**ميمونة**

ما همَّني من رؤياي إلا خلوها منك...
كأنك تخاف أن أقصّ عليك رؤياي ؟

**غيلان**

( هامّا بالقيام )

إن كان لا بدَّ أن تقصّيها، فهل لك أن أدعو الأصوات الهواتـف تسمَعْ إليك.

**ميمونة**

أَنْ تسمع الأصواتُ أمرٌ عُجاب. ادعُ نَرَ.

**غيلان**

............

يريد غيلان أن يدعو إلا أنه لا يخرج من فيـه صـوتٌ، ومـا هي إلاّ حركة المنادي يُفـرغ صـدرَه ويمتلـئ حلقُـه ولا يكـون تصويت.

**ميمونة**

مالك ؟ ألا تدعو الأصوات ؟

**غيلان**

( متحيّرا مضطرب النفس )

لم أقدر على التصويت. أنادي ويتحرّك الصوت في حلقي ثم كأَنَّ شارباً يشرب الصوت على فمي.

( يحاول ثانيةً أن ينادي )

هل سمعت شيئا يا ميمونة ؟

**صوت هاتف**

إنك العاجز. إنك العجْز.

( يرتعد غيلان ويقفز )

**ميمونة**

لا يا غيلان، ما سمعتُك ولا استطعْتَ النداء. وإنّما سمعتُ الهاتف. فاذكر يا غيلان قولَ الحسناء عابدة الشمس : " ولسان النبيّ وأصواته رحمة. لأنها تنذر كلّ حيّ بما قُضي له من شأن في حياته وترسم له حدّه ".

هذا يا غيلان أول الحدّ.

**غيلان**

( في شيء من الحدَّة )

ليس في الحدود والعراقيل حدٌّ واحد ولا عِقال واحدٌ يعجز عن كسره العزم. قُصّي رؤياك ميمونة...

ويزيد فيقول : "وأما الأصوات الهواتف ونبُّيها وصاهبَّاؤها فعليها لنعتي لعنة الإنسان". إلا أن الصوت يموت ويتبدَّد في حلقه، أو يموت في صدره، فلا تُسمع لَعْنَتُه.

... عجّلي، قُصّي رؤياك.

**ميمونة**

إنّي رأيت السدّ.

رأيته أوّلَ رؤيتي عن بعيد، فإذا هو قطعةٌ من البياض المتين، متعال عظيم وقائم مستقيم، كالمَجَرَّةِ في كبد السماء.

ثم دُفِعتُ إليه حتى قام في وجهي، وعُلّقتُ فوق الهاوية مَغيضِ الماء. فنظرت وَيلاً شديداً وهولاً. ورأيت الماء غائرا في الهاوية، أصواتاً مشتبكة كأنها أصوات الهاوية، واقعا فيها كالحلم أو الخيال أو الأمنية تقع في الأبد فتغيض فيه... ولا يردُّه السدّ. ولا يحبس منه شيئا...

**غيلان**

( هازئاً )

وهذا أفضل ما يمكن أن يصيب سدًّا : أن يكون سدًّا ولا يحبس الماء.

**ميمونة**

... ولم يكن السدّ من حجارةٍ وحديد، ولا من جصّ وطين...

تتوقف ميمونة كالمتردّدة في الأمر تقول أم لا تقول، أو كالفازعَة لحْظةً ثم تقول بلهجة مُتّئدة :

لقد رأيت أمراً بديعاً عظيما ومفزعا هائلا ليس فوقه هول. رأَيت سدًّا من جماجم موتى قد رُصِّفت أكمل ترصيف...

## غيلان

( هازئا أو جاداً )

منذ القِدَم كـان المـوتُ الكمـالَ يـا ميمونـة : كمـالَ الـترصيف والترتيب. كمالَ النظام. وإنما التشويش في الحيّ وفي الحياة.

## ميمونة

... ورأيت الماءَ جاريا مـن الجمـاجم سـائلا مـن ثقـاب العيـون منصبًّا من غيران الأفـواه والمنـاخر كالمخـاط أو كـالغراء... و لم أر هولاً أَهول من بقبقة تلك المياه في جماجم الموتى. وصرختُ روْعا: "يا غيلان أَغثْـني". فأجـابني هـاتف يقـول : "تدعينـه ولـمّا تُوافنـا جمجمتُه". ثم انصبَّ عليَّ شيء ثقيل قذِرٌ مثـل الكـابوس، فدكّـني دكًّا، وصحتُ صيحات الفزع والألم. ثم إذا الجبل أمـامي يتحـرك وتمتدُّ يداه، فيدفَع الجماجم دفعاً دَوِيًّا. وإذا الجماجم تنفلق في شـبه الصيحة وتنفرق، وتَطايَرُ كقصف الرعـد يفتـضُّ سمـاءً بكْـراً. وإذا الجبل يتقدّم نحوي وشعوره عليه تخفق أشـجاراً شـهباء. وإذا آلاف الطيور السـوداء تخـرج مـن تلـك الشـعور، فـترمي كحجـارة مـن سجّيل في الهواء. ويُعمّي الجـوَّ غبـارٌ مـن كـبريت وغيـوم صفـراء. وجعلت يديّ على وجهي وصرخت صرخة الحرقة. وذهب الجبـل فانتفخ وانتشر وترامى، فإذا هو فجـأة يقـع علـى السـهل والـوادي فيدكّهما دكًّا ويرحيهما رحياً...

واستيقظت... فـإذا هـذا الفجـر علينـا، وإذا يـدك علـى خـدِّي ترعى نعومة وجهي.

**غيلان**

( بعد إطراق قليل. في شيء من القلق )

لِمَ أبطأ أصحابنا والعملةُ والآلات إلى الآن ؟

وتنفجر الشمس فتثبتُ أشعتها في الأفق الشرقي كأوتاد من نور قائمة صلبة، أو كأذني فرس أَرْهَفَ يستمع صوتاً بعيداً.

**غيلان**

( وقد فكَّ طلوعُ الشمس عقالَه )

هذه الشمس ! وها أصحابنا وها الآلات ! جيشا من السواعد والحديد والأيدي والدواليب والعزائم والصدور !

**ميمونة**

( مُشيرةً إلى إناء الماء الذي كان تركه بالفناء سَدَنة صاهبَّاء، وكأنَّهُ لا يزال يخفق عليه طائف من النار )

وهذه النار لا تنطفئ !

أَنحن غالبون أم يا غيلان مغلوبون ؟

**غيلان**

( يقوم فَرَحاً وعزماً )

قُومي قَبِّلي يا ميمونة جمجمتي. يا ميمونتي ويا شكِّي وحيرتي.

تقوم إليه فتُقبّله ويقبّلها. ثم يدخلان الخيمة فيلبسان ثيابهما ثم يخرجان فيَنْحدران في العقبة ذاهبين نحو الرجال والآلات الطالعة مع الشمس . ويبرز رأس البغل من وراء صخرة يحرِّك فكَّيْه.

# المَنظَرُ الرّابِع

بنفس المكان، بُعيْد انصراف ميمونة وغيلان. حجراتٌ ثلاث تتحرّك فتتصوَّر قليلا قليلا جواريَ ثلاثا، كما يتصوّر الطين في يد الخزَّاف، ثم تتحرّك كالنوائم تستيقظ وتُزِيح النومَ والغطاء. وتتسلل الحجرات من النوم والسكون متثاقلاتٍ متثائبات. ويسقط عنها غطاء الغبار، فتقوم وتفتح أبواب السماء وتنحّي عنها سجف الغيوم، وتتمشى قليلا ثم تدعو بشراب الفجر وطعام الصباح. ويتساءل البغل : ما عسى أن تأكل الحجارة في فطور الصباح ؟

## الحجرة الأولى

( فتاة ليّنةٌ حمراء، شعرها كالفجر وعيناها سماء )

ما رأيتُ أغرب من شأن هؤلاء الغرباء.

## الحجرة الثانية

( وهي التي كان غيلان جالساً عليها. فتاة كالأولى، لكنْ لا لينةٌ ولا حمراء. بل صلبة شديدة، هاجرةٌ في صحراء.)

وما الذي نعلم عنهم ؟ أنا لم أر شيئا. أنا لا أعرف منهم إلاّ الأعجاز.

## الحجرة الثالثة

( وهي التي كانت ميمونة جالسةً عليها
فتاة لينة حمراء، كالأولى أختها الكبرى )

لعلَّ بني آدم يجهلون التصلُّبَ واليبس والشدة والقوّة. فإني لأجد عجز هذه المرأة مسترخيا أيَّ استرخاء. وإني لَأَسْتَقْذِرُ اللين والشحمَ الاسترخاء.

## الحجرة الثانية

كذا البشر جميعا يا دَيَادَا. يكثر أنْ يُثْقِلُوا أحمالَهم بالفضلات والزوائد التي لا تنفع، من لحمٍ ولين وعقل وشحم واسترخاء وماء... وليس التصلُّب سهلاً دَيَادَا.

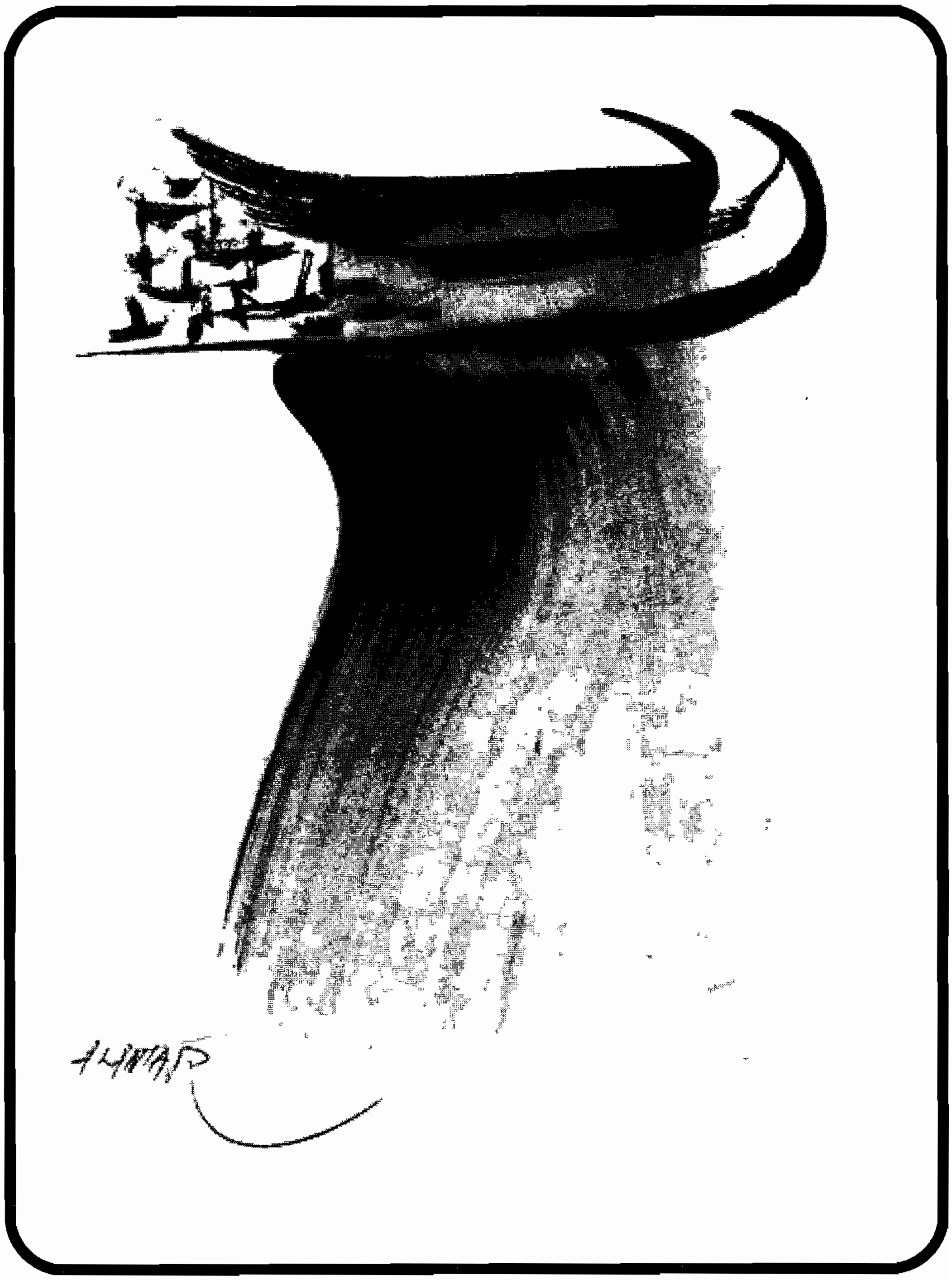
## الحجرة الثالثة

( للحجرة الأولى أختها )

وكيف يمكن أو يطيب للبشر النومُ وأجسادهم مسترخية هكذا ؟ لا بُدَّ أن يكون نومهم نديًّا ثقيلا غراء.

## الحجرة الأولى

البشر لا ينامون أبدا. وليس إلا أن يظنُّوا أنهم نائمون يا ديادا. وما نومهم الوحيد إلا الموت وراحتُهم الواحدة. والموت نوم طويل يكاد يدوم أبداً. لا يستيقظون منه إلا وقد ذهب الجسم تراباً وبِلَى. فإذا استيقظوا كرهوا أطلال الجسم منزلا. فيغضبون، فيعملون ما يعمل المُكترون يُخرَجون من مساكنهم قهرا : يجوبون



رسم : أردال العنتر

... هذه الأرضِ المتجعّدة المغبار كالعجوز الفاجرة
لأحبلنّها ماءً ...

طرق الدنيا ويخنقون ويحقدون ويصرخون، فيمتنع لصراخهم عن الآلهة الكَرَى، فأرواحهم نواميس السماء...

### الحجرة الثانية

وهو ما يسُّمونه الآخرة والحياة الأخرى : هو أن تلكع النواميسُ أرواحُهم آلهةَ السماء، فتحيِّرَ نومَها وتُعديها بالحُمَّى...

### الحجرة الثالثة

( للأولى أختها )

قولي لنا يا أخيَّة : ما يريد هؤلاء الغرباء ؟

### الحجرة الأولى

يا شوقاً إلى العلم، يا لين الروح ديادا، ما تريدين أن يكون ؟ إنهم لا يريدون شيئا. إنهم يتوهّمون أنهم يريدون...

### الحجرة الثانية

كذا البشر يا ديادا. لا يهوَوْن إلاّ الأوهام ولا يُغرَوْن بغيرها. وما من شيء، ولا من مخلوق، ولا من حيّ، إلا ويتّخذ من حياته أهواءً وعادات شاغلة. فالآلهة من دأبها أن تخلق العوالم ثم تنزوي فتشتغل بلعب الشطرنج أو النرد لتزجية الدهور. والشمس من دأبها أن تنير، والحمير من دأبها أن تنهق وتشهق، ونبيّنا من دأبه أن يجمع فيدّخر الأصوات.والبشر من عادتهم أن يجمعوا الأوهام والمعتقدات : يؤمنون با لله وبالشيطان، وبالإنس والجان، وبالقبح والجمال، وبالطبّ والموت. وبالدنيا والآخرة، وبالعدل وبنات

السعالى، وبالقوّة والخمر، وبالعمل وتمائم السحر، وبقدرتهم والسدود في الصحاري. إنهم لـمَّامون جمَّاعون، باللمّ والجمع مولعون. كأنَّهم رُواةٌ أو محدِّثون...

**الحجرة الثالثة**

( للأولى أختها )

هؤلاء الغرباء يا أخيّة ماذا يريدون ؟ ماذا يَهِمُون أَنَّهم يريدون ؟

**الحجرة الأولى**

هؤلاء الغرباء أنفسَهم يطلبون...

**الحجرة الثانية**

لأنهم لا يعشقون غيرَها يا ديادا، ولاَ بِهم علَّة غيرها ولا باطنُ داء. وإنه ليتخنّث الرجال فيقعون للرجَال. تقرُّباً من أنفسهم وتفانيًّا فيها. ولا تقربُ الرجلَ البكرُ العذراءُ إلا وقد لمسْت نفسَها ومرست جسمها وطَعِمت بكَارتَها والتذَّت إلى البكاء... لذا ابتدع البشر المِرآةَ ديادًا.

**الحجرة الثالثة**

( ذاهبةً في ألوان من المعاني )

أنفسَهم يطلبون ؟ هم إذن أَوساعٌ وأَبْعاد لا تُحدّ...

**الحجرة الأولى**

نعم يا ديادا. نعم ولا. فأَضْيق مكانٍ يكون سماء. وأقصرُ خطٍّ بعيدَ المدى.....

**الحجرة الثانية**

نعم إذ قصر عن غايته البصر، إذا عشِي الرائي عن منتهاه...

**الحجرة الأولى**

انظريهم يا ديادا.

( تنظر ديادا نحو السدّ )

انظريهم عند الهاوية بمُنْقَطَع الوادي. انظري كيف يسيلون عرقاً، ويَجهدون أنفساً، وتترامى قواهم عن أجسادهم كشَــرَر النـار عـن النار. انظري آلاتهم تدخّن وتسودّ، ودواليبَهم تهزّ وترتجّ، انظـري جباههم أَنْتأَها الجدّ والجهد، وأيديَهم أَدْمَتْها الصخور الصمَّاء.

انظري العملَ يبتدئ وتَوَهُّم القوّة كيف يكون...

( تنظر الحجرات الثلاث معاً نحو السدّ )

كذا هم. لم يقْصُرْ فكرُهم عن شيء مثل قصوره عـن إدراك مـا تقتضيه الحياة من التسليم والجـبن والاسـلام. هـم مُفعَمـو النفـوس إيماناً وإقداماً وحبًّا للجهاد. وإنهم لسُكارى : يريــدون أن يخلقـوا. يريـدون أن يشـبعوا الأرض مـاءً، فيصيبـوا منهـا أشـجاراً ونباتــا، وحدائق غنّـاء، ومروجـاً سمينـة، وعشـباً ريّانـا، وثمـاراً لـذّةً ذوْبـاً، وأزهاراً منفجرةً ماءً...

**الحجرة الثانية**

نفوسُهم أبعدُ ما يكون عن نفس الزيتون يعضُّ القحط ويسقي.

## الحجرة الأولى

( تستتم كلامها )

... يريدون أن يقهروا الآلهة ويقتلوا العجْز. ولكنَّهم لـن يجدوا إلى خلق العاصفة وجهاً ولا الرعد والزلازلِ والبرق. لن يستطيعوا إلى الخلق سبيلا.

## الحجرة الثانية

( مرتِّلة انجيل صاهبَّاء )

أعوذ بصاهباء من الإنسان الرجيم : "وأهوينا على السحب بمعول من صخر وقلنا للأرض كوني. فوضع السحاب أرضاً من صخر وشدّة. إني أنا الخالقة الربَّة.

ثم جاءتنا الملائكة فسجدتْ وقالت : الأرض صخر ولا حياة فيها، صاهبَّاء. فأمرنا العواصف والرعد والسحاب والبرق والزلازل والهدَّ فانفلقت جميعا ودوت دويّا.وأرسلنا الصاعقة فشقَّت صدر الأرض وأودعتْه حياةً حيَّة.

وقام الكون فسبَّح باسمي، إنّي أنا الخالقة الربَّة. ثم جاءت الملائكة ساجدين فقالوا : شعَرُ الأرض الأشجارُ، ودماؤها الماء، ولا حياة فيها صاهبَّاء. فأمرنا العواصف والرعد والسحاب والبرق والزلازل والهدّ فانفلقت جميعاً ودوت دوّيًّا. وأرسلنا الصاعقة فشقَّت صدر الأشجار وقلب الماء وأودعتها حياة حيَّة.

وقام الكون فسبَّح باسمي، إنّي أنا الخالقة الربّة. ثـم إنَّـا أَثرْنـا في العالمين نقعاً، وصفعناها صفعاً، وهيَّجْنا الأكوان تهييجاً، وهَززناها هزًّا، ورجَجْنَاها رجّا. فوضع الإنسـانَ الرعـدُ والصاعقـة والـبرق. وقلنا : يا آدم اخُرجْ من ضلـعِ العاصفـة الريـح والصاعقـةِ الرعْـد، وكن فيها النورَ والنار والبرقَ.

وقام الكون فسبَّح باسمي، إنّي أنا الخالقة الربَّة. وقلنا : الإنســانُ آخر الخلق. ثم قلنا : يا جبال انثِئِي وتعالَيْ. فقامت فأعلينا علاها. واستويْنَا على ذراها. وتصلَّبنا أبداً صخراً. وأمسكنا الرعد والـبرق والصواعق الصعقاء. وأقررنا الكون إقراراً.

وحبسنا في صخر الجبال الزوابع الصلبة. إني أنا الخالقة الربَّة.

وجاءت الملائكة فقالت : إنه قد نسي الإنسان اسم صاهباء..."

## الحجرات الثلاث

( معـاً )

صَدقْت صاهبَّاءْ
هلهَبَا هلهَبَّاءْ
سُبِّحت صاهبَّاءْ.

( الحجرة الثالثة للأولى أختها )

أَلاَ نذهـب أخيَّـة، يـا حِلـم ويـا رحمـة، فنهمـسَ إليهـم بحكمــة الحجارة الصلبة ؟ هيَّا نُعلِّمْهم حكمتَنا الحقَّ، لا يُحوِّلُهـا شـيء ولا تصفقها صفقة، لا تتحرّك ولا تسكن ولا تفنى ولا تبقى : دوامٌ في الروح وسرمد باطن.

# المَنظَر الخَامِس

في صباح يوم من الأيام... وقد مضى على أول القصّة ستة أشهر وكاد يتكامل السدّ.

يُرى غيلان واقفاً أمام الخيمة ينظر نحو السدّ.. ثم يلتفت نحو الخيمة ويدعو ميمونة.

**غَيْلان**

لو أسرعتِ يا ميمونة. إني أرى أصحابنا مقبلين إلى السدّ، وأَحبُّ أن تنظريه في سكونه وعظمته قَبل أن يشرعوا في عملهم، ويقوم الغبار، وتعلو جلبة الرجال، وتدوي زلزلة الصخور، ويتنفّس السدّ أنفاسَه الشديدة.

**ميمونة**

( من داخل الخيمة )

أَوَ تخاف أن لا أقدر عليه في زلزلته وأنفاسه ؟

**غيلان**

نعم يا ميمونة. لأنّك لم تتعوَّديه.

**ميمونة**

( وهي بارزة من الخيمة )

مَنْ لم تُخِفْهُ الجبالُ لا يخاف السدود. أنا إليك. هذه العقبة.

تأخذه من يده وتسلك به العقبة فيذهبـان كـالمنحدريْن إلى السدّ.

**غيلان**

ما رأيتُكِ من يوم نزلنا هنا أنشطَ من هذا الصباح...

**ميمونة**

( متضاحكةً )

لأمرٍ ما في النفس يا غيلان كان النشاط.

**غيلان**

وقد أَبْيتِ إلاّ اليوم أن تنزلي إلى السدّ.

**ميمونة**

لأمرٍ في النفس يا غيلان كان الإباء.

**غيلان**

لكنّه لا ينشط يا ميمونة إلا المؤمنون. إني أراكِ آمنت.

**ميمونة**

لا أدري أآمنت أم لا. لعلّني آمنت أو سكنت.



رسم : أردال العنتر

... إذا أصاب الحجارة جُنُون انقلبتْ جَوَاري ...

**غيلان**

مستحيلٌ أن أسكن أو تسكني. لأن حياتنا مُفعَمة عقباتٍ وثنايا وارتحالاتٍ وأسفاراً، خلوٌّ من كلّ وصولٍ ونزول، وكلّ قرارٍ وسكون...

**ميمونة**

هذا أنت تقوله.

**غيلان**

وأنت ما تقولين ؟

**ميمونة**

لا أقول شيئاً، وإنما أريد أن أرى السدّ.

يصلان إلى مُنعطف من منعطفات العقبة يشرفان منه على السدّ بمنقطع الوادي فيقف غيلان وتقف ميمونة.

**غيلان**

انظري...

**ميمونة**

( تلتفت إلى صفاةٍ عظيمة على يمين العقبة
مُعلّقة في الهواء فتقصد إليها وتقول )

هذه الصفاة كالسدّ معلّقةً في الهواء تدعو إلى الجلوس. وأحبّ أن أعرف هل يجد القائم على المعلّقاتِ في الهواء دُوَاراً، وهل تجد يا غيلان دُوَاراً إذا قمت على سدّك المعلّق في الهواء.

تذهب فتجلس على الصفاة، وتصرف وجهَها إلى الأبعاد والسدّ تحتها وأعماقِ الوادي.

**غيلان**

( منكراً لقول ميمونة )

السدُّ راسخ الأصل في الأرض.

**ميمونة**

السد معلَّقٌ في الهواء.

**غيلان**

أنت مجنونة.

**ميمونة**

كذلك تقول الجِنَّةُ للجِنيِّة منهم ترى ما لا يرون : أنتِ مَأْنُوسة.

**غيلان**

أَلاَ تَجدّين ؟ بل انظري السدّ وعظمته القائمة. انظري الصخور قامت فغلَبت صاهباء والقحط والجبل. انظري المياهَ مُتَّكِئةً إلى السدّ، تترقّب أن تُروِي وتُحيِي.

**ميمونة**

ما كانت المياه يوماً في حاجة إلى الاتّكاء. المياهُ من شأنها أن تجري وتجرف، وما عرفت مياهاً كَسْلَى. الماء من أنشط المخلوقات. فلاتَتَّهم الماء بحبّ الاتكاء والراحة.

**غيلان**

لقد طلبتُ مراراً فلم أعرف ما سبب تحاملك على السدّ. فما تريدين ؟ ما تعنين ؟ مالك والسدّ والفعل والخلق ؟

( لا تقول ميمونة شيئا وتبقى مطرقة )

ومع ذلك ها إنك تنظرين السدّ...

**ميمونة**

أيّ سدّ يا غيلان. إني أفكّر...

**غيلان**

وفيم هذا الفكر الصارف عن السدّ، القاطع للكلام ؟

**ميمونة**

في الصدق. في التجرُّد. في العَرَاء...

( يخفَق غيلان برأسه كالمتضجّر )

... لو سألتُك يا غيلان أن نظلّ يوماً بالكهف، وأن تنزع الثياب وأَدع الثياب، وأن نقضيَ معاً يوما عارياً خالصا طاهراً، لا يفصل بيننا كلام ولا حركة ولا ثوب، وأن تحبّني ولا تكلّمني وأحبَّك ولا أقبّلك، وتمسَّني ولا تختص بلذّة، وألبسك فلا أمتاز عنك بإحساس... لو سألتُك لقلتَ : أنت مجنونة. ويكون حياؤك أقبح من كلّ فُحش. وتكون كجميع الناس يستحيُون أن يتغيّروا ويشتملون بأكثف الثياب. وما رأيتُ إلاّ طهارةَ الحيوان والوحوش والأرض والنور والقطّة تقع للقطّ والناقةِ للفحل والأرض للنار، ولا تستحي ولا تختفي ولا تتنكَّر...

( تُمسك لحظة )

وإني بينما كنت أنت منذ ستة أشهر إلى سدّك وفعلك وجهدك

خلقك، خرجتُ عاريةً إلى الحيوان والوحش والأرض والنار والنور. طهارةِ الكون. طهارةِ الحياة. عراءَ الكون. عراءَ الحياة. طهارةُ الروح. عراءُ الروح. الصدق...

وما احتاج إلى سدّ إلاَّ مَن خشي التجرّد، وجبن عن الصدق والعراء. وما استحْيى مِن كشف النفس إلا من كانت نفسه في قبح العورة. بل انظُرِ الصفاة تلقاك بكامل جسدها ورأسها وأنفها وثدييها وبكارتها ولا تستحي. وانظرْ سدّك كالغطاء يستر عورة نفسك ويُخفي علَّتها وقبح منظرها ويوهمك القدرة ويستر العجْز...

**غيلان**

لا صدق يا ميمونة ولا عراء. ولا غطاء. السدّ سدّ.

**ميمونة**

وغيلان غيلان !..

( في عزم )

... اجلسْ وهات الحساب.
ألم تُسرَق جميعُ آلاتك في الشهر الأول ؟

**غيلان**

بلى. ولكّني جعلت من الأيدي والعزائم والسواعد والقلوب صواقِرَ وفؤوسا ومعاويل. وغلبتُ الصخرَ بالصخر، واستغنيت عن الحديد والصواقر والفؤوس والمعاويل.

**ميمونة**

ثم ألم تذهب الحُمَّيات بنصف رجالك في الشهر الثاني ؟

**غيلان**

بلى. ولكني قلت للنصف الباقين : خذوا بثأر أصحابكم فاغلبوا ما غلبهم، وأقيموا سدًّا أرادوه فماتوا فيه. فعمل الرجل منهم عمل ثلاثة. فكأنما ورثوا عزم أصحابهم وسَرتْ إليهم قواهم.

**ميمونة**

ثم ألم ينفجر عليك ماءٌ دفَقٌ في شهر الثالث جرف أعلى سدّك وحطَّم شهرين كاملين من عملك وجهدك ؟

**غيلان**

بلى. ولكنّا تألَّبنا على المياه. فرفعنا ما حطّتْ وعمّرنا ما أخلَتْ، ورددنا السيل ونفينا الجرف.

**ميمونة**

ثم ألم تَهلك في الشهر الرابع قافلةُ الحديد أثناء طريقها إليكم حِمْلاً وحاملاً ؟

**غيلان**

بل. ولكّنا قطعنا جِذالاً عظاماً صلبة من الغاب، فأقمناها مقام الحديد.

**ميمونة**

ثم ألم تُصبك منذ شهر حمَّى هدَّتْك وأَقْصتك عن سدّك، وتركتْ رجالك كالعُمْي أو كالأيتام ؟

**غيلان**

بلى. ولكّني أقمت كبير البنّائين مقامي، فقام بالأمر أحسن قيام.

**ميمونة**

كل هذا، كلّ هذه القَوَمات بعد النّكبات، لأنّك كنت تخشى أن تخسر السدّ وتيأس منه، فتنكشف العورة ويتبيّن العجز...

**غيلان**

لا يا ميمونة. لا. إنما كان كل ذلك بضرورة الفعل والقوة الخلق.

**ميمونة**

ولكنّا دخلنا منذ أيام في الشهر السادس يا غيلان. وإني لأجد في النفس توقُّعا وخوفاً...

**غيلان**

( متضاحكا )

ومِمَّ ؟

**ميمونة**

لا أدري... لا تُعدْ إلى السدّ يا غيلان. إني أخشى عليك منه. لا تدَعْني إليه.

**غيلان**

مِمَّ الخوف ؟

**ميمونة**

لو مُتَّ يا غيلان.

**غيلان**

أنا لا أخون ما أَعِدهُ بنفسي من الأعمال. والموت خيانة.

**ميمونة**

ولو مُتَّ مع ذلك. الموت لا يبالي بالإيفاء بالوعد.

**غيلان**

سؤال ولا وجه للسؤال. نحن لا نموت إلاَّ في آخر القصة...

**ميمونة**

والسدّ عندك قصة ؟

**غيلان**

وما ترَيْنه يكون ؟ كل شيء قصة. بل انظري يا ميمونة. لومُتنا الآن لقطعنا حبل القصة وأغضبْنا الأقدار. فهي تمدّ في الحياة لأجل القصة وتُميت لأجل القصة : كمجنون ليلى وأهله وليلى وأهل ليلى، عاشوا وارتحلوا ونزلوا وأحبّوا وكرهوا وقطعوا بين المجنون وليلى وفعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا ليكونوا قصة من قصص الأدب. أو كالأنبياء يوحى إليهم في الأربعين لا قبل، ويموتون في الستين لا قبل، ويولدون في مراحِ غنم لا غيره، ويُصلبون أو يشبّهون إلى الناس ولا يحرقون، لتُصنَع فيهم قصص الأنبياء... والآلهة والأقدار كالعجائز والشيوخ مُولَعون بالقصص.فنحن لا بدّ

أن نبقى أحياء إلى آخر القصّة. الحياة والموت لا قدر فيما يا ميمونة ولا قضاء. إنما هما من أمر القصة...

**ميمونة**

( هازئة )

إذا مات الرضيع وإن كان من أخصب الأطفال صحّةً، فاعلم أنه لا فائدة فيه للقصة، وإذا عاش الوليد حتى شاخ وعُمِّر وإن وُلِدتْ معه مائة آفة، فهو لابدّ منه للقصة !

**غيلان**

وما يُدريك ؟ فقد يُراد من الرضيع الفاني بأبويه قصة. قصة الحرمان، من الزمان، من المدى...

واهزلي أو جِدّي فهو ما قلتُ : الحياة وظيفة الإنسان في القصّة، والعمر مداها.

ولو شئنا أن نموت الآن ولو قتلنا أنفسنا لما مُتنا.

**ميمونة**

أتعلم يا غيلان أن سدّك لا يستقيم لك إلاّ...

يقف غيلان فجأة ويصرف بصره إلى جهة السدّ بآخر الوادي.

**غيلان**

( وهو يمعن النظر إلى جهة السدّ )

إلاّ... ؟

**ميمونة**

هل جعلتَ فيه حجراً أسود ؟

**غيلان**

( كالناشئ فيه اضطراب أو كالذي بدأ يضيق بالكلام )

و لِمَ أجعل فيه حجراً أسود ؟

**ميمونة**

إذن لا يستقيم. ألم تَرَ إلى الكعبة ؟

**غيلان**

( كمن حل به اليقين بمصيبة )

ما هذا يا ميمونة !.... ما أرى ؟

ويندفع، فتقوم ميمونة فتنظر فترى دخانا متصاعداً من جهة الجذال المسْنَد إليها بناء السدّ، ويلوح لها الرجال على السدّ يهدمونه أو يرمون من أعلاه حجارة على النار.

**ميمونة**

هذا ما كنت أخشى.

وتندفع إثر غيلان، فينحدران في العقبة سريعا ويغيبان عن البصر نحو الوادي.

# المنظر السادس

في مساء عين ذلك اليوم... ليلةٌ مقمرة وجوٌّ كمُشَاع اللَّبن كأن ميمونة وغيلان والخيمة والجبل فيه في غمامة بيضاء.

ميمونة مستلقية على سرير أمام الخيمة ووجهها إلى السماء تتفالق فيها النجوم. وغيلان واقف كالصنم الأبي... والبغل رابض. يعوي الذئب ثلاثا ويقفز البغل.

**ميمونة**

وعُواء الذئب أيضا يا غيلان.

**غيلان**

وأيّ شأنٍ لنا فيه ؟

**ميمونة**

الذئب صوتك يا غيلان.

**غيلان**

( يتحرك فيَذْرع الفناء جيئةً وذهوباً كمن قامت فيه حيرة )

الذئب صوت هذه الأرض. فهي عليلة، تشكو الوجع على أَلْسنةِ حيواناتها وأنبيائها، وفرقعة صخورها في الليل، وحفيف طيرها في الظلام.

**ميمونة**

الحيوانات والأنبياء والصخور كلها تنذر يا غيلان. والذئب يألم.

**غيلان**

( في شيء من الغيظ )

ألا يخرس هذا الذئب ؟ ألا يخرس كل شيء ؟ أَليس في استطاعة الكون أن يصمت ويسكن ساعة واحدةً من الأبد ؟

**ميمونة**

هذا غضب المغلوب يا غيلان. اجلس أو استلق مثلي.

لا يقول غيلان شيئاً ويذهب فيستلقي على سريره بقرب ميمونة ويمسكان ساعة، فلا يُسمع إلا أنفاس الليل. ثم تتكلم ميمونة.

**ميمونة**

( بهدوء أولاً )

ها قد طُرِدت من الخيال والأمنية، وزُحزحتَ وزال القرار. فأنت في نفسك مقصور عليها وقد اشتملت بالعجز والغيظ... خرج عنك رجالك وخذلوك، وسدّك لا يزال يجهد أن يتم وأنت لا تزال تجهد أن تقدر. فإذا أنت تهوي وتتّقِد وتصطلي نارَك. وتريد أن تطفئ غيظك بالفكر والطغيان واللعنة. غالبتَ صاهبَّاء تظنّ أنك الغالب. فجمعتْ عليك كلمة رجالك وأوحت إليهم



رسم : أردال العنتر

... انظرا الجبل يتحامل على نفسه... انظرا آلافا من الطيور تجرّه من شعره ...

الشقاق والنفاق، وتركتك وحيداً مُؤلما حقيراً، وتركتْ لك هذا السدَّ مُنتصفاً صورةً منك إليك...

لقد همُّوا أن يقتلوك في قيامهم عليك، وأن لا ينصرفوا إلا أن يهدموا سدك تهديماً. ولكنَّ صاهبَّاء شاءت بك لطفا أو غايةَ قسوة، فصدَّتهم وأبطلتْ أيديهم عنك. حتى لقد رأيت أيديهم يرفعونها بالضرب أو الهدم ولا تضرب ولا تهدم. حركاتٍ سكوناً كصوتك ينقلب سكوتا. فكأن قوة السواعدِ والأيدي تختنق في العضلات اختناق صوتك ينشأ في صدرك ويموت في حلقك. ولم يصبك إلا نارٌ في اليد أحرقتْها. وسلمتَ وسَلِمَ سُدُّك ثم جاءتك الهواتف فقالت : "كفى عناداً واستسلمْ فما قُدِّرَ لك غير الشروع كبعض الأفعال من أخوات كاد. فلا تطلب بلوغا إلى غاية، ولا تطمح إلى قِمّة..."

فلنزهدْ ولنستسلمْ يا غيلان. دعْ عنا السماوات والأعالي ولنكْتَفِ بالأرض. إنّك إن أتممتَ الفعل وأنهيته فقد قتلتَه. فليبق هذا السدّ غير تام. ليبق له خلوده يا غيلان. دعْه بلا نهاية... ولنكن لأنفسنا يا غيلان لا عليها لغيرها. لنكن ِ انتظاراً للحاضر لذيذاً ولنكن القريب البعيد، اللّذة الحاضرة والسعادة الحاصلة نستبعدها كالتمنّي وهي واقعة. لنكن مقدمة لنفسَيْنا وتمهيداً. ننتظر النعمة وهي حاضرة، ونتوقع المتعة وهي شاهدة. وتنتظرني وأنا بين يديك، وأنتظرك وأنت فيَّ. لنجعل الطلب في قلبينا :

أطلبك وأنا حاملتك وتطلبني وأنت حاملي. لننْسَ الممكنَ يا غيلان. لنكنِ الفجر...

### غيلان

نعم... ذاك عذر جميع مَن يجبنون فيضعفون عن الجهاد. يقولون: لا حول ولا قوة إلا بالحقيقة الواقعة، والحق الواقع لا يُقَاوَم، والممكن لا يستقيم. وما يقولون إلا باطلا وهماً. لأن الحقيقة الواقعة وجميع العقبات لا تحول دون الممكن يا ميمونة.

لأتّمَنَّ السدّ.

### ميمونة

إمكاناتك يا غيلان، أعلمُ أنها بديعات نفسك وأنها العدم يتصوّر لك وهو يريد أن يكون... وإنها لمن باطن آلامي. وإنها للعظمةُ والرزانة، وحقيقة الحمل ولا نكون بدونها إلاّ خلاءً. لكنّ وضع الإمكانات وضع الحمل وليس أحقر من حامل بعد وضع. فلنبق على غنانا وعظمتنا ورزانتنا. وليبق معنا ما يَملأ النفوس. ليبق السدّ في نفسك إمكانا حَملا.

### غيلان

إن من بين الساعات لساعةً يا ميمونة لا ينقص فيها الخلقُ والوضع منك شيئا، ولا يذهب بشيء من حملك، ساعة يتصور فيها الممكن بصورة الكائن الواقع دون أن يتقيَّد بقيد ولا يُحدَّ بحد. وينقلب فيها الإمكان والإرادة إلى قوة من نار وحديد أشدّ

من كل حديد وقوة. هي ساعة أقصى الصعوبة. وإني أراني فعلت ما فعلت، ولقيت ما لقيت من المصاعب في فعلي، ولَمَّا أصِلْ إلى هذه الساعة.

وإنها لساعة أعظم من صاهبّاء وأعلى. أعظم من السماء وأعلى، وأعظم من جميع الآلهة وأعلى، هي ساعة كمال الخلق.

طريقنا لا تزال يا ميمونة طويلة...

**ميمونة**

ألا تخشى علينا الغِشية والإعياء والضعف ؟

**غيلان**

هل تذكرين أسطورة أسال ونائلة ؟

**ميمونة**

نعم... أسطورة الرحيل. سمعتها منك في ليلة كنّا فيها إلى الرحيل.

**غيلان**

... جاءها يوما -وكانا قد بلغا أقصى جمالهما وأبعد حسنهما- جاءها فقال : إني راحلٌ عنك. فقالت : وما طريقي بعدك ؟ فقال: العقبة الوعرة. قالت : وما الراحل بك عني ؟ قال : كرهُ البيوت الثابتة لا تنتقل ولا تتحرّك. وكانت عيناه وهو يقول إلى أبعدَ من الأفق. ثم قال : ولئن اكتفيتُ بك فاكتنفْتِني إني إذن

لجبان. وقد حذّرتُك أن تكوني ظِلّي وبرودتي ونهاية طريقي. فإن شئتِ أن أبقى فلْتَفْنَيْ.

وأدركت نائلة أنه عاوده الرحيل وكرهُ الشجرة على الطريق باردةَ الظل تدعوه أن يقف ويستريح. وكان يقول : لا تكون الطريق طريقا حتى تكون بلا نهاية. وكان يخشى أن تنقلب الحركة والرحيل والشوق إلى صخرة وقوف. فلما أدركت أنه عاوده الشوق قالت : افعلْ ما ترى.

فأخذ عصاه وذهبت به الطريق... فهو عليها إلى الممات.

**ميمونة**

أو لعل نائلة ما خسرتْ أسالا إلا لأنها تبرَّجت له وتصدّت. وليس من فحل إلاَّ وهو شديد الزهد في الضابعة الملقية نفسها. ولا مِن إله إلا وهو شديد الزهد في القُربان الذلول الخاضع للذبح. إن كان ذلك منها فقد أخطأت نائلة.

**غيلان**

إنما خطأ نائلة وخطأ صاهبَّاء أنَّهما ثابتتان لا تنتقلان ولا ترتحلان.

**ميمونة**

" لعنةُ الكون على مَن لا يِني عنه الرحيلُ "

**غيلان**

أهو من كلام الهواتف أيضا ؟

نعم يا غيلان. ولكنك مُتصــامِم أصــمّ. لا تسـمع إلا الأبعـاد لا تتناهى وخلاء عوالم الغيب، ويُفزعك الملْءُ.

ليمسنّك يا غيلان الجنون. أتذكر هامانَ تركنـاه في أول طريقنـا إلى السدّ ؟

لقد كنتَ تدعوه أن يـتردّد علينـا. فـإذا جـاء سـألته أن ينشـدك شـعره، وقلـت إنـه مـن أبـدع مـا يُسـمع. ومـا كــان إلا هذيــان مجنون.وما كان هامان إلا ظلاما وروْعاً. وكان على بعض الوجوه نقيضك، و لم تتعرّف من أمره غير ذلك. أمــا أنـا فقـد حـاولت أن أتعرّف ... فهل تعلم يا غيلان ما كان سبب جنونه ؟
وُلِد هامان...

( يتضجَّر غيلان )

لا تتضجَّرْ ، فلستُ قاصّة عليك كامل حياته - وُلِد أحمَـر ريَّـانَ شهيّ الوجه والفم واليدين. ثـم نشـأ فكـان فيـه صمـت وفيـه إلى فساد الأخلاق ميل. وترعرع منغلقاً لا يبوح فمه بشيء. مُخنَّثـا لا يردّه عــن لذّتـه شـيء. وكـان مفعَـمَ النفـس ظلامـا كالضـالين في طغيانهم يعمهون. سنِينَ طويلـة. فريـداً وحيـدا لا أب ولا أخـت. ترمقه عين أمٍّ عجوز وحيدة لم يعرف غيرها امرأة قط.

ثم شبَّ فانكشفتْ نفسه لعينه فإذا هو الثمرة الدائدة الفاسـدة، وإذا شيطانه الباطن ودودته المرأة والشــهوة. و لم يكـن لبـلاده غـير السماء والزرقة. فقال : أريد أن أقبّل السماء والزرقة. فقالوا : إنّـه

مجنون أو شاعر. ثم نشأ العقل ففقّح وتشقّق عنه الجسم والشهوة كتَقْريح الأرض عن البقل. ومزّق هامان جلده بظفره وابتدع النسيان ليصرف عنه الشهوة والحلم والجسم. وكانت تأتي عليه ليالي صيف كدَعَوات شدادٍ لا تُرَدّ، وتتواتر عليه الأطياف والمحسوسات، وتتّقد شفتاه، فيقوم فيعدو فيقع في ماء البحر كالفزِع الملدوغ. وكان يجلس إلى البحر عند الآصال، والشمسُ إلى الفتور، فتبرز له الفتياتُ رياحين ونوراً تماثيلَ يسبَحْن في الشمس. فيلتهب ولا يجد إلى صرف الكلاب المحيطة بهنّ سبيلا، ويرسل زَفَرات العفيف يُرغَم على العفّة. وكان له في النساء، وخلاء الجزيرة منهنّ وصبره عنهنّ جهادٌ حديد. وسكنته الحيرة واعتلّ الجسم، وجحد هامان ربَّه وأوهمه العقل أنه يخلّصه من شهوته وجسمه الصائم، فهمس فيه : لأُقيمنَّك صرحاً عظيما. وسعى هامان أن يعلو ويمتن عقلاً، ويعظم ويشتدّ روحاً. وتوتّر عقله حتى كاد ينقطع الوتر وتطير السيَة. ووجد هامان اتساعَ الأبعاد لا تُحدّ. وكان التدميرُ والهدم. فهدم شديداً. وهدم مغتاظاً. وهدم العقل والحس. وخلق نفسه خلقا جديداً. أو ظن أنه...

ولكنه لم يلبث أن علم أن الحس بقي تحت العقل كخامد النار، وأنه كان للعقل حدًّا وقيداً وأن العقل كان للحس كالكير للنار...

ثم تهيأ له الأمر فارتحل عن الجزيرة وعبر البحار ودخل مدينة سيرام. وولج نهرَ أهلها من رجال ونساء. وتهيأ له منهنّ حسان لا تُحصى. ونسي العقل. وبلغ أقصى الشهوة وما تورث من دُوار

وغشية، وظنّه الارتواءَ والشبْعَ. ومـا كـان ارتـواءً ولا شـبعًا. فقـد كانت كل ذروة تهوي به إلى أسفل الجوع. وكـل متعـة إلى أبعـد الشهوة. وكان يسكن بعد كل شبعة ساعة. ثم إذا شوْكة أو إبـرة تَخز سكونَه. فيعود إلى الحس والنساء واللذة...

ثم احتاج أن يعود إلى الجزيرة، فعاد، وامتلكْته كذي قبل. ونظر فإذا الجسم قد غلب العقـل، وتثـاقل عليـه كـالوطب وأماتـه. وإذا الصوم بالجزيرة يعود إلى الجسم والشهوة. وعلم أنه قصر عن نفسه وقصرت عنه نفسه. فدخله من ذلك اليوم الجنون...

وهذا الذي كنت يا غيلان تسميّه الشـاعر الأشـعر، وتدّعـي لـه مدًى وتعيره فضلا. وإنما كنت تحبّه لأنه كان نقيضك. لأنـه كـان نفـيَ مـا كنـتَ تريـد إثباتـه في نفسـك : الـروح والعقـل والإيمـان بالإنسان والقوة. لأنه كان غليب الجسم والوهم والشـهوة، فـأنت تريد الأخذ بثأره لأنك تظن أنك سلمت ممّا أماتـه مـن المقتضيـات الجبَّارة الشديدة. لأنك تحسَب أنك بالغُ الفعلِ والتكويـن والخلـق، وهو لم يبلغ منه شـيئا. لأنـه أماتتـه الحقيقـة الواقعـة وخنـق الطـين إمكاناته، فسقط وتساقط في باطن نفسـه أنقاضـا. كأنقـاض بيـت متهدّم وقعت في جوفه. لأنك تظن أنك فاكٌّ للعقال، قاتلٌ للحقيقة الواقعة، قادرٌ على الممكن...

( تسكت ميمونة لحظة، ثم... )

إنك يا غيلان لَلعُتِيّ والكبرُ. وإنـك للَخـلاء والضعـف والجـبنُ.

إنك الثور يصعَق خُواراً إلى يوم يُخصى فإذا خُصي ذلّ وأمسك. ولا بدّ يا غيلان أن تخصى...

**غيلان**

فيمَ كل هذا الغيظ وحرارة اللهجة ؟ فما استحق الثور هذا الشتم ولا هذا الغضب.الثور من خيرة الأنعام.

**ميمونة**

لا تتصنَّعْ يا غيلان الطمأنينة. لا تتصنَّع رضى النفس. لا تُمارِ. إنك الضعف والخلاء والجبن.

يبرز من ظلمة الليل الناشئ خيال لطيف كاختلاج جناحٍ الحمامة. ويقوم على رأس غيلان. فتتبيَّن منه العين قامةً كالصَّعْدة، وشَعَرا كرغوة القمر، وجمالا ونعومة ورواء... تلك مَيَارى.

**غيلان**

وأنتِ يا ميمونة ؟ ألستِ الشك والحيرة ؟ والصيحةَ في الصيحة ؟

**ميمونة**

أو عينك التي لا تُمارَى. عينك التي ترى. لا تَعشَى ولا تعمى.

**غَيْلان**

إن أنت عيني فعيني من أغرب العيون. عيني لها أذنان ورأس ورجلان وصدر وثديان. وعيني تأكل وتشرب، وتغضب وتفرح...

تأكل وتشرب وتغضب وتفرح. وترى أيضا يا غيلان. وقد رأت صباح اليوم...

( يسكت غيلان ويسكن )

نعم لقد رأيتُ صباح اليوم العمَّال والبنَّائين وقد جُنُّوا في هذا الوادي وادي الجنون. وسمعتُهم يقولون : لن نرفع بعد الساعة صخراً. ولن نبنِيَ ولن نقيم سدًّا. ولا نحتمل اللعنة والنقمة... فلما قالوا وصاحوا صياح السباع تضري، وهزَّتْهم ريحٌ هوجاء تدوي، وصاحبتْهم ضوضاء هولٌ إلى الأفق، وتصاعد الغُبار فوق الطريق فقَصَّ فرارهم، وخلونا أنا وأنت وخلا الوادي، نظرتُ فرأيت كل شيء حولك يُسلم ويُذعن : رأيت الصخور طريحةً تقول : لا جهاد. أَسْلم. والسدَّ أبتَرَ يقول : لا جهد ولا جهاد. أذعِنْ. والدنيا كلها بسكوتِها وانغلاقِها على صياح العُمَّال والبنَّائين وهدوّها بعد هزَّة الثورة تقول : لا جهد ولا جهاد... لا جهد ولا جهاد... ورأيتك قائما وحدك ممسِكاً يَدك الحريقة، وقد عاندتَ واستكبرتَ وأَبَيْتَ. وانكرتَ الهزيمة. ونفيت الانكسار. وصرفتَ خفْقَةَ القلب. وأمسكت دمعة العين. ولم يُسمَع لك توجُّع ولا شكوىَ تبوح بحياة ورقة أو باقي حياة ورقة. ومكثت شاحب اللون، متقلّب الصورة، صلبَ الجسم. كالتمثال يقع فينكسر فلا يألم ولا يفرح...

ورأيتك على ذلك يا غيلان، فرأيت غُولاً كما عرفتُ في صباي من الأغوال تُصنَع من ملْحَفة ووسادة : وجهٌ من أشوه ما يُرى وهيأة من أهول ما يُفزع... وما تحت الوجه والهيأة إلا أخي الصغير يُلاعبُني ويريد تخويفي.

كذا الزائفات كلّها يا غيلان. ولقد رأيتُك زائفا كغول الصبيان، أو كالطفل الخَفِر الباهت يسلك طريق الذنب، ثم يقف في بعض طريقه مبهوتا، ينظر ما وراءه من براءَة فاتتْ، وما أمامه من شجرةٍ حرام تُغويه وعقاب أَلِيم يخافه. فينهدّ عزمه ويجمد، فيقف دون غايته وقد حاد عن نفسه وضلّ الطريق وشُلّتْ يداه وضاع رشده...

تتقدّم مَيَارى ولا يراها غيلان ولا ميمونة، خيالاً كالحُلم اللذيذ وعُرْيةً تقع للنفس، كرفيف الريح، ورديّةً حمراء، شذاها من زرقة السماء. وتُقبل على غيلان بجناحيها فكأنها تهمّ أن تذوب عليه أو تتلاشى فيه. كالغمامة تشمله. ثم تنحني فتنفض عليه مثل لَقاح الأزهار كرحمة السماء ترشّ رذاذاً...

وغيلان على ألمه لا يبوح ويسمع. وميمونة تؤنّب وتقرع...

**ميمونة**

( بعد سكتة )

ولقد قلت لك مرارا : احذرْ يا غيلان وانتصح بإنذار الهواتف. وقصصت عليك ما رأيت من رؤيا. فلم تسمعْ و لم تفهم. وذهبت إلى سدّك. وتركتني وحدي..

وانفردت فترددتُ على القوم. و لم يكن عندي من أمتع المتعة. بل كان ما ينشأ في نفوس القوم من التجنّب والإعراض عند مروري، وصمتُهم حولي، وامساكُهم عني، من أمرٍّ ما تحتمل امرأة مثلي.ولكنّي مع ذلك غشيتُهم وغشيت بيوتَهم. وتأمَّلتُ في الناس والحيوان والأحوال. وأمعنت إلى الألوان والظلمات والأنوار. وتعرفْت العطور، وحضرت الصلوات. وسمعت الأدعية. وتنشقت أرواحهم وعشتُ عيشتهم أياماً . ثم جئتك فقلت : يا غيلان. ها أنا ذي بعد الأصوات الهواتف وبعد الذي رأيت من رؤيا. ها صوتي، وها حرٌّ روحي في روحك، وكلٌّ روحك مفعمةٌ روحي. إليك نفسي ونصحي : ما قدِّر لهؤلاء الناس وهذه الأرض غير الظمإ والإمحال واليبس والقحط. وإنهم أدركوا من أرضهم روحها ومصيرها فقالوا : إنها اقتضاء محضٌ. تقتضي الإنسانَ أن يفنى، كالصخرة تتميّز وتنشقّ لتنبجس العينُ وتُخرج الحياة والماء.وإنه يا غيلان لمن أوهام الصبيان أن تحسَب أن الظمأ يقتضي السقي. والصبيّ الغرّ لا يخطر له أن الظمأ قد لا يقتضي غير الظمإ ولا يدعو سوى القحط. فاحذر يا غيلان أن ينتقم الظمأ وأن يَنتقم القحطُ... ثم قلت لك أيضا : هل تفكّرت في غريب شأن هؤلاء القوم يعيشون في هذا الجبل وهذا الوادي منذ آلاف السنين ؟ هل طلبت سرَّ أمرهم فيها ؟ إنهم لم يطعَموا غير الظمإ المطلق، ولا وقع لأفواهم فاكهةٌ أو ثمرة أو لحم أو خبز لم يذهب الحرّ والشمس بلينه ورطوبته ومائه، ولا أكلوا غير عصارة الرمال قط،

ولا شربوا ماءً إلا ما يمتصّون على الحصى النديّ في الفجر. وليس الذي تقتضيه هذه الأرض وتدعو به غير عظام الجثث اليابسة البيضاء وغير الرخام والمرْو والصفاء. منه ما لَها من بأسٍ وشدّة، وعنه ما لها من عظمة وقوّة...

قلتُ ذلك وكرّرتُه حتى مللته. فلما مللتَ قلتَ : إن كانت هذه الأرض تقتضى الصُّلب فسنُعطيها سدًّا صُلُدًّا...

( تسكت ميمونة كالمُثقَل. ساعةً ثم تقول )

وليس في شأن الزائفين العاجزين المُتقادرين أمرٌ من العِناد وأدهى.

وإنك يا غيلان تُعانِد. حتى بعد الذي جرى اليوم تُعاند.

والعتيُّ هو القاتل.

**غيلان**

( بصوت خافت وأناة )

لو اجتمعت الأكوان لترحِيَ وتقتُل لما أصابتْ غيرَ أسراب الطيور وجماعات الناس وقُطعان الغنم... وأما مَنْ كان واحداً أوحد فإذا صعقتْه الصاعقة فهو الذي أهلك الصاعقة.

يسكتان. ويبقى غيلان في تلاطم من نفسه كاضطراب العواطف. ساعةً ثم تستأنف ميمونة وكأنها تحدّث نفسها، لا غيلان ولا غيرَه. فتقول :

وليست الشجاعةُ ولا الجرأة ولا القدرةُ ولا البأس أن تهدّم لتبنيَ السدود وتفعل وتخلق. وما أحقر الفعلَ والخلق عذراً عن تهديم نفسك !

الشجاعة أَن تصبر على الشك ويقوى له قلبك. أن يَسَعَ صدرُك التناقَض الملآن الخصب. كالنور يهدم الأشكال بما يقتضي الجمالُ ويبني، بلا كيان ولا جوهر، معنًى محضاً وروحاً. الشجاعة أَن ترضى بنفسك وقصورك ونقصانك وعجزك. وأن ترى شأنك ذاك ولا تندكَّ ولا تحزن. أن تجاهد دعوة الإمكانات وتشويشها لوجدان الوجود وإغراءَها بالفعل والخلق. أن لا تطمح إلى الجبال وترضى بالأغوار والوهاد، وتأكل من الأرض الغبراء فتكون لك لذّة ولا تكون لك سواها متعة...

إني يا غيلان بلغت جهدي. وسئمتُ هذه الأعالي والسماوات، والقمِمَ والذروَات لا تُدرَك. سئمت الجهود والمساعي تُخْفِقُ... وقد أخفقتَ يا غيلان حتى في حبّي وحبّك...

يا غيلان بلغت جهدي. ومللتُ الأعالي والسماوات لا تُبلَغ والجهودَ لا تُفلح...

كَفَاني التصاعدُ والتعالي كفاني ! فليهبَّ نَفَسٌ من ريح الوهاد الوضيع الثقيل ! ولينفجر الدم من عيني أو وجهي وليملأ فمي من جراحي ! ليعُدْ لي الشعور بنفسي وحياتي وجسمي ! لأنزِلْ...

ليجتذِبِ الأساسُ إليه القمة ! لتسقطِ الأعالي على الأسافل ! تعجيلاً بالدّمار. تعجيلاً بالقضاء !

تمسك ميمونة عن الكلام وتبكي إلى القمر والنجوم وحدها. فتصب دموعها صامتة حارة أليمة كالعين في صدرها. وتذهب نفسها في البكاء فينشأ في باطنها عين جارية كجواري ينقبن عيونا وسواقيَ في أساطير اليونان...

وتتهيأ ميارى للكلام. فيصرف غيلان وجهه إليها وصدره. ويتجمّع عينيه نور القمر فكأنه لا يضيء سوى غيلان وميارى. وتنطمس ميمونة في الظلام وتبقى على دموعها حديث وحدتها...

وتتكلم ميارى...

## ميارى

وقفتَ خلفي إليَّ وأنا إليك. وجعلتَ رأسَك على كتفي وشعري. وتناظر وجهانا في مِرآة الأفق لا يتناهى. وطوّقت رأسك بذراعَيَّ، فإذا أنا حاملةٌ إناءً خمراً وصنما معبوداً وعالما حيًّا. وإذا نحن أحسنُ الحسن. وإذا حسننا نفي لكل شيء سوانا، وإنكار ودفع. وهان عندنا الأمل والعزم والخيال والوهم، وهان في أعيننا الكونُ. وجاءنا الاحتقار والإهمال والزهدُ، وانتفى الحرصُ. وحلّ بنا الكِبرُ والطهارة المحضُ.واندفعنا نِثبُ وثباتِ الأغوال العواصف.وطلِقْنا وانكسرت عنّا الروابط. وقامت لنا بدائع الدنيا... حتى صار عندي للماء عشق ومن الظمإ والقحط ضجَر وكرْهٌ. وكرهت كما كرهتَ إسلامهم وصاهبّاء. وجئتك دَفقاً

يؤتَى وعينا تُوردَ وجنّة خُلدي. على أن كنتُ قبلُ لا أهواك ولا أحبّك. وكنت رأيتك في صخورك ومعاويلك وحديدك ورجالك وسدّك عليك العرق كالسواقي، فقلت : إنه من جنس مَنْ سبقه من المحاولين العُجّز. رخيٌّ ضُعفٌ. لا يرى غير الماء للقحط دواء. وينتصف الطريق ثم يهزل ويضعف. وَيقتُل ولا يُميت. ويُوقِد ولا يُحرق ويحبّ ولا يعبد. ويقول ما يقوله قومه : لا سبيل إلى الخلق المطلق. ثم نظرتك تُرغم القاعدة على الفوضى، والجهادَ على ما لا يتناهى ولا يُحصَى. ورأيتك في الجهاد كالمقاتل وحدَه. في دغَل من السيوف والأعداد أو كوالج عِيصٍ فيه اشتباك وأهدابٌ كثيفة. يتقدّم ولا يُحْجم. ويقطع الأهداب ويعضدُ. سائرَ السبيل لا تتوقف... فجئتُك وأحببتك.

وكنت أنتظرك من أقصى مبدإ أيّامي وعُمري. حتى كدتُ أنفد. وحتى كدت أقع للشمس أهديها نفسي وجسمي. وقلتُ : ليس غيرها جديرا بدمي ولحمي، وليس غيرها يستحق جسدي الرخام المغري، ولذّتي وألواني وظَلمي. ولا غيرها أهلا لعبادةٍ كإهداء بكارتي وغضاضتي وجدَّة جسمي. لأن الشمس بنورها هي الإباء والطهارة والنفي والثورة. ولأنها تسخر من الظلام والعقل، وتهزأ بالجوهر والعارض. ويحضرك نورها وهو الخلاء والغيمة. ولا يتجسّم لك وهو الملْءُ والحضْرة. فهو للعدم احتقارٌ غاية. وهو كمال الخيال والأمنية والحُلْم...

ثمّ جئتَ. فنظرتُك. ونظرتُ فإذا نور الشمس خيوط أو بين عنكبوتٍ يلمع لعيني. فنفضتُه فأسقطته كخرِشَّاءِ الحيّةِ عنّي، وعرفت وجهَ فرحي بوجهك...

وها قد جاءت ساعة السير العظيم والخلق المتين والفعلِ. فليدفعْنا إلى الذروَات الجهد والعزمُ ويرفعْنا عن الناس. وهات يدَك غيلان نثِبْ فوق ذرى الأرض الرواسي، نأباها ونعلوها ونطِرْ بالسدّ كالطير الغرَاسي.

وتأخذه من يده، فيقوم معها في لين وتُؤَدة وقد اكتسى وجهاهما جمالا بديعاً، وارتويا ماءً نُظوراً، وازدادا عظمة في الروح وفي القامة طولا. وتستأنف ميارى وهي ذاهبة به من يده تحمله كالموجة، فتقول :

## ميارى

سنخلق الرياح العواصف.
ونخلق الرعود الزلازل.
سننشئ السدّ.
وننشئ الحبّ.

## غيلان

( كالمُلِمّ به طائف )

نعم. سننشئ ونخلق. سنعلّم هذه الأرض الشجاعة والعقل والبأس والشدة. ونهزُّ أهلَها هزًّا. حتى يتوبوا من الهزال والجبن وكره المياه وحب القحط ويُعرضوا عنها. وسنرسل فيهم كلامنا

وروحينا سيلا جُعافاً حتى يعلموا قوّة الروح ويذعنوا إليها. ونستخدم نبيَّهم ورجالهم ونساءهم وحتى صاهبَّاهم وما لها من قدرة. ونسوطهم كالبغال حتى تدمَى أيدي آلهة الهزال والقحط في إقامة السدّ وخدمة ما أراد الإنسان من خلق. وننفخ في كل شيء حياة، ولتقومَنّ الصخور بنفسها فتطيرُ فتقع مواقعها من السدّ طوع عزمينا لَنَنْفُخَنْ عاصفةً هولاَ. لَنُنْشِئَنْ ولنخلقَنْ خلقا لأن القوة والوثبة فينا.

يذهب غيلان وميارى في غبار القمر المذهَب، وحريرِ الليل اللذيذ الرطوبة.

**ميمونة**

( وهي تشيعها بالنظر وتهزأ مرًّا )

سيخلقان الرياح العواصف.ويخلقان الرعود الزلازل... سينشئان السدّ... وينشئان الحبّ...

فعلى أهل الخيال اللعنة !

وتنفجر ميمونة بكاءً عويلا... ساعة طويلة، ثم تهدأ فلا يُسمَع بعدها إلا البغل بجانب الخيمة يخفق بأذنيه ويفكر فيما قُدِّرَ له بين البغال من شأن...

وتتواسع الليلة...

# المَنظَر السَّابع

بعد المناظر السابقة بأربعة أشهر، في مكان آخر من الجبل، مكان ذي غبار مشتبك كثيف. نباته شائك شَرُود. تمرّ منه العقبة صاعدة في جانب الجبل وتحتها الوادي وفي قعره بَعيداً السدّ. وحول السدّ قنوات لا تحصى وحركة ودويّ وعمل شديد وجهد عِرْديد تتراءى للنّاظر كالأشباح. فيُلمح فيها جميع القوم بنبيهم وأصواتهم وهزالهم وأحجارهم وأيديهم يكدّون ويجهدون، وبقرب العقبة في جوف الوادي السيل منحدرا كالغيظ، أبيض كالحليب، وفيه صخور كسرب من الحمير تشرب...

الساعة الزوال. وعلى العقبة غيلان وميمونة يصعدان نحو الخيمة وهما يتحدثان...

**غيلان**

الليلة يا ميمونة ليلة الفوْز. ليلةُ الفلاح والنصر. لقد أمرتهم بآخر ما يقتضيه السدّ من الأمر. وسيضعون آخر حجر منه قبل غروب الشمس. وهو أقصى ما رسمت لهم من الزمان ميارى.

**ميمونة**

( وعلى وجهها مسحة من الشحوب والعلّة )

إن أهل هذا الوادي لمن أدهى ما رأيت من المفسدين الهدّامين. وإني لأسمع الجبل يضحك لما غشّوك به من البناء الزائف.

**غيلان**

( مُصرًّا )

ميمونةُ، يا دودتي ويا دائي، ويا صيحةَ الحيرة في روحي، الليلةَ الفوزُ والنجاح والنصرُ. سترين يا ميمونة الليلة...

**ميمونة**

هذه يا غيلان النهاية، وقد طويتُ طريقي. وإني لأرى إلى بعيد بعيني. أرى ويلا دماراً وثبوراً وناراً. فاسمع ْ غيلان نحيي : كانت ميارى عُتيَّك وستكون خسرانا.

الليلة ليلةُ الخيبة والسقوط هوِيًّا.

**غيلان**

ليستْ ميارى عتيًّا. هي الكمال والحسن. والكمال لا يُحصى، وأمر الحسْن لا يُعصى.

**ميمونة**

ميارى غرورك وغيّك، وعقلك فاقدَ الشك والرشد. هي خذلانك من الأسّ.



رسم : أردال العنتر

... ويخطر فوق رأسيهما طائر غريب فيمرّ سريعا أسود ...

**غيلان**

ذُرانا سماء لا عمادَ لها. فما شأنَي والأسَّ يخدع أم يوفي ؟

**ميمونة**

تريد سدَّك على الهاوية : سماءً بلا عماد وفرعاً بلا أصلٍ. وأنّه قد يقوم البناء على الخلاء لا الْمَلْءِ. على الإيمان والوهمِ. كذا النفس إذا ظنّت أنْ طَلَّقت الحدَّ أو طلِقت منه تأبى الإعانة والأسَّ...

وهذا سدّك عماده الوهم والزورُ. وأصله خداعك للنفس. وان ميارى لغيّك وغرورك. وانها إلى ذلك لبهتانُك زورُك...

أفلا تخشى يا غيلان أن يغلبك الشوق يوما ؟

**غيلان**

الشوق إلى من ؟ الشوق إلى ماذا ؟

**ميمونة**

لا إليَّ ولا غيري... الشوق إلى الحقِّ. يوم يضعف قلبك.

**غيلان**

إني لنافذ إلى ما فوق الحق.

( يضرب على جبهته )

وإني لُمرغِم هذا القرح هنا أن يلفظ إمكانَه قيْحَه.

**ميمونة**

وهذا هو الغرور والغيُّ والبهتان والزّورُ. فليس في نفسك قرح ولا في القرح إمكان ولا قيحٌ. وليس إلا أنك توهّمت القرح والقيح والقدرة على الممكن.

إنك يا غيلان خلاء لا إمكان ولا مَلْءٌ.

وان الويل لقريب... قريب...

**غيلان**

( مُصِرًّا )

الليلة يا ميمونة ليلة الفوز. ليلة الفلاح والنصر.

**ميمونة**

( منصرفة عن الجد إلى الهزل )

إذن نقيم مأدُبة... لكن أين لنا بلحم ؟

**غيلان**

( مستنكراً )

لا حاجة إلى مأدبة.

يصلان أمام الخيمة

**ميمونة**

بلى يا غيلان. لابدّ من مأدبة. فإنه ما عظم عمل من أعمال البشر إلاَّ انتهى بين القدح والمِلْعقة...

وقد وجدتُ اللحم : نذبح البغل...

يقفز البغل، فتضحك ميمونة، وتتوارى وغيلان في الخيمة.

# المنظر الثامن

بفناء الكهف أمام الخيمة في آخر عشي ذلك اليوم، والشمسُ هاوية.

ميمونة وحدها جالسة هناك تنظر إلى جهة السدّ في أسفل الوادي. ونفسها ملأى انتظاراً وخوفا. كالمتوقع زوبعة وشدة تُفعم نفسَه الحرارةُ والسحب والظلمة.

وتُسمَع أصواتٌ كأنها خارجة من الجبل، مؤلمة واسعة عظيمة، تغنّي أغنية كالعذاب تقع في النفس كالداهية، وفيها روح عظمة سماويّة. يُسمع الذئب يعوي ثلاثا. نحيبا أنيناً من أعماق الكون... ثم لا يلبث أن يصعد غيلان وميارى مُتّقِدين كالأفراح المتراكبة...

وتنتهي الأصوات من أغنيتها الأولى، فتتصاعد شيئا فشيئا بأغنية أخرى كالرقص مستديراً. فتسف الأصواتُ أولاً كالريح على وجه الرمال، ثم تتعالى وتضخم. ويشتدّ بها الدوران كنشأة العاصفات تعصف عصفاً...

**غيلان**

ترَيْن هذه القِمّة كالإبرة ؟ إذا انتصبتْ عليها الشمس كطاووس فخور أحمق، فقد وُضعتْ آخر حجرة من السدّ في السدّ.

**ميارى**

قد انتهى لنا نهار. وابتدأ نهار غيره.

**ميمونة**

قد انتهى النهار. وابتدأ الليل.

**غيلان وميارى**

يا للعَمَى ! يا لانغلاق الآفاق عن الجبن والحكمة !

**ميمونة**

يَا للزّائفين والعُجّز ! يَا للهلاك والويل ! يَا للخُسرانِ والخيْبة !

ترتمي ميمونة فجأة فتقوم قيام العزم وتقول في روعة

انظرا ! انظرا الجبل !..

ينظر غيلان وميارى فيقع في نفسيهما كالصاعقة

انظـرا الجلاميـد مـن الظلمـات تهـتز وتتقـدم.إنـي لأسمـع لحـن السواد.

تُسمَع ألحان متلاطمة داوية حيرى كالإعْصار والعاصفة

انظرا السماء تداعى وتهوي. كالجسر حمِّل فوق جهده...
انظرا الأجسام والأشكال والأصوات تنهار وتدوي...
إنه لزئيرُ الثورة والنقمة.
إنه لقيامُ العواصف والزعازع الصمّاء.
وإِنه للخسرانُ والخيبة.



رسم : أردال العنتر

... لنعلونّ برأسينا ولنفتحنّ لهما في السّماء باباً .

ينشأ الظلام فجأة فينتشر. وتعصف ريح من الشيطان كأنفاس الزبانية أو كالدم والإثم...

وتنقلع الخيمة وتخفق بجناحيها وتطير وتصفّق. ويقوم النبات والعِضادُ قيام النبال. ثم تتوالى زفرات طويلة، كأنين في صدر الأرض ثقيلة. وينشأ على وجه الأرض دخان كأول اللهب. ثم تجري ريحٌ صِلاء كتنفس بركان صاعدة خافضة. ويُهمْهم السحاب وراء الجبل، ثم يندفع حاملاً على السماء. فتكركره الرياح وتنصبه على دائرة السماء كغطاء رصاص...

وميمونة وغيلان وميارى واقفون ينظرون والرعب عليهم واقف. وميمونة ترتجف وترتعد. وغيلان وميارى ثابتان كالصخر. وليس إلاّ أن تأخذ الريح شعرَ ميارى الطويل فترسله في الظلمات كإرسال البحر لجسم حسناء. وأما غيلان فقائم ثابت لا يتحرك منه شيء، ووجهه أحسن ما يكون وأوسع وأجل وأبْدع... ثم تقع أولى قطرات المطر ثقيلة حادّة. فتصفّق على الأرض كصليل الحديد أو كالشتم والصفْعة. وتتمزق السماء جرحاً من النور أحدّ من الخاطر.ويظهر الجبل في ضوء البرق متضاحكا قائم الصدر متهيّئا للتحرّك. وتتجاوب انفلاقات الرعد كدبدبة حوافر في السماء. ثم يعدو الرعد إلى جميع أرجاء الكون. وينفخ فيملؤها قلوعاً أُثقِلَتْ ريحاً. وتطلق أوطاب السماء ماءً. ويجتمع الماء والريح والبرق والجبل والرعد والظلمة والغيظ والنقمة، فإذا السماء بسحابها الأسود وحْلٌ فيه فحْمٌ، وإذا الأرض والماء والريح عجينٌ والرعدُ والبرق...

وتبرُز من الغيب سواعدُ وأيْدٍ كقِطِع الجبال، فتُدكّ السماء والأرض والنجوم والأجبُلُ... وتقوم في الكون جميعا ثورة شعواء حمراء صُلبة. وكأن صوتاً همهمة يرّتل : "وأمرْنا العواصف والرعد والسحاب والبرق والزلازل والهدّ فانقلبت جميعا ودوت دوياً. وأرسلنا الصاعقة فشقت وأودعت حياة حية".

**ميمونة**

هـذه العواصـف والرعـد علينـا. أفأنتمـا خلقتمـا العواصـــف أم صاهباء ؟

**غيلان وميارى**

خلقنـا تريـاق العاصفـة والصاعقـة. بنينـا. أقمنـا سـداً، الزوبعـة عاجزة أن تُفنِيَهُ والصاعقة.

**ميمونة**

( وقد رأتْ شيئا على ضوء البرق )

انظرا. انظرا الجبل يتحامل على نفسه ويقوم ويتحـرّك ويتقـدّم. انظرا آلافا من الطيورِ تجرّه مـن شـعره أشـجاره سُـوداً. ألا تريانـه يزحف ويكركر رحاه ويطحن السدّ والوادي ؟

يُسمع دويّ هول

**غيلان**

( لميارى )

انظري السدّ يتصاعد ! انظري السدّ يعلو !

**ميمونة**

السدّ أشلاء. السدّ أنقاض تساقَطُ في الهاوية.

**ميارى**

( لغيلان)

ألا ترى سراجاً في منتهى الغاب منيراً ؟ أنظرْ إليه يدعونا، زُجَاج صفاءٌ وعزم وأمنِية. انظره قراراً في الزلازل على الزلازل...

لكن ما أكثر الغاب أشجاراً ! ما أشدَّ الغصون اشتباكا ! وما أشدَّ سراجنا طريقًا...

يأخذها غيلان من يدها

**ميمونة**

( كالناجية )

انظرا... انظرا أسفل الجبل. تحت السحاب. من النافذة. انظرا الفتْحة. انظرا الوهدَ لا شيء فيه. والسكونَ في الوهد والراحة.

**غيلان وميارى**

( يتعانقان )

لنعْلُوَنْ برأسيْنا ولنفتحَنْ لهما في السماء بابا.

يرتفعان وقد طارت بهما العاصفة

**ميمونة**

تنظر إليهما وقد غابا عنها في العاصفة

الآن بلغا المُنية واستقرَّا.

ثم تصيح صيحة كتمزيق ثوب جديد وتنظر نحو الوهد ثم تقول :

الأرض ! هذه الأرض اكتشفتُها...

وتندفع في الظلمات منحدرةً إلى الوهد. تحسَب أنها تدركه فتلوذ وتلجأ. لكن الوهد يتناءى بعيداً، والأرض تنحفر إلى غير نهاية بين يديها...

ويشهق البغل ويصيح رعبا ويضرب بالحافر ضرباً... لكنّه مربوط بشأنه، مشدود بصخرة إلى الريح والعاصفة والزلزال والبرق والصاعِقة...

**انتهى**

**تأليفاً من سبتمبر 1939 إلى يونية 1940.**

# حَدَّثَ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ

# الإهـــداء

إلى أبي رحمه الله، الذي رتَّلْت معه صبَاي على أنغام القرآن وترجيع الحديث، مما لم أكن أفهمه طفلاً ولكنّي صُغْتُ من إيقاعه منذ الصغر لحْن حياة - وربَّاني على أن الوجود الكريم مغامرةٌ طهارة، جزاؤها طمأنينة النفس الراضية في عالم أسْمى فأسمى - وفي أثناءِ ذلك كلِّه علَّمني بإيمانه سبيلَ إيماني.

م. م

# مقدمة الكتاب

هذا الكتابُ كتبْتُه منذ أحقـاب، حـين كنْـتُ أرُوم أن أفتـحَ لي مسلكاً إلى كياني الإنسـانيّ، وأقضِـي حَجًّـا إلى موطـني المفقـود : وفاءٌ حنينٌ إلى الـذاتِ الجوْهَـرِ الفَـرْد، وتوليـدٌ للعِشـرة مـن معـدن الوحشة، وإشْهادٌ على أنّ تاجَ الكيان مركّبٌ من العشق والفناء.

وقد طرحْتُه منذ ذلك العهد طرْحَ الحيَّة جلدَها. ثـم عـدتُ إليـه بعد أن شاعَتْ منّي في أبعد العمـر كـلُّ مُهْجـة، فـإذا هـو يحدِّثـني بحديثه إذذاك، صدًى منّي إليّ، ككل حـيٍّ لا يـزال : الحيـاة كـوْنٌ واسْتِحَالةٌ ومأساةٌ، فإذا هي ارتدّت ظـاهرةً وقـراراً ورضًـى، فهـي الخسران ولعنةٌ على الزائفين.

ولَئن أنا أخرجْتُه اليوم إلى الناس، وأحْيَيتُـه كمـا كـان أحيـاني، فعلى أمَلٍ أنْ يكون لدى غيري - إن استطاع - ما به تَدَرَّبْتُ على أن أكون.

وإن كلَّ كيانٍ لجَهْدٌ وكسْبٌ منحوت.

تونس - خريف 1972

**م.م**

# تمهيد

**إلى القارئ**

الآن، وقد انتهيْتُ وطرحْتُ بهذه الصحائف الضعيفة الناحلة إليك - أنظر فلا أرى غير العدم...

ستذهب هاته الصحائف فتمضي وتَمَّحي. فهي أنفاسي قد ذهَبَتْ ولها ريحُ ما يبلى ويأكله الدُّود. كجميع الذين كتبوا من قبلُ، يظُنُّون أنَّهم خُلِّدوا وأماتوا الموت. وما خُلِّدُوا وإنَّمَا هيَ آلامُ الإنسان يترامى صداها من قَرْن إلى قرن ومن جيل إلى جيل، كما يتردَّد صدى الرعد بين الجبالً، فلا يكون للرعد حياة أو ترنّ الصخور. وليس لكلِّ رعْدٍ صخورٌ تردِّده. فقد ينفلق بقاعٍ صَفصَفٍ فلا يصيب من الدوام إلا طرْفةَ العين.

وإن هذا الكتاب لكالصوت أو كالصيحة في وادٍ به حاجةٌ إلى ما يردّد صداه ويُسْري فيه خلجةَ الحياة.

فقد كتبْتُ أكثره في الليل جعلتُه دعائي للصباح، واستوْفَيْتُهُ ولـمَّا يتنفّسِ الفجر.

وليس لطالب أن يطلب فيه جديدا من المعاني طريفا، لأنه لا يكون عندي أطرف ممَّا ينشأ في نفس القارئ عند مطالعته من الأفكار والمشاعر. فلتدخل إليه إِذَنْ أيّها القارئ بأمرك الباطن ولتنشره عليه، وإلاّ فلتُعرضْ عنه ولتدَعْه إلى غُبار المكاتب والنسيان. هو دعوةٌ إلى إحياء نارك. فإن لم يُحْيِهَا من رمادٍ، فقد مات وبطل همُّك منه.

وإذا كان لا بُدَّ له من جدّةٍ وطرافة لتُقْبل عليه، فاعلَمْ أنَّه ليس في نظري أطرفُ من جدّة القديم : كنفسك وأحلامك وأسَاك وحَيْرتك. ولعل أجدَّ ما فيه بعْدَ قصَّتِك الباطِنة، روحُ أبي هريرة، لأنها تنْتَسب إلى أقدم الأقدمين وتودُّ أن تنتسِبَ إليك. ولعلّه ليس شأن الكاتب الجدَّة والطرافة... وإنما هو أن يفْترِقَ على يدَهِ الجوْهرُ عن العرض العارض.

* * *

وقد يحتاج أبو هريرة عندك إلى التعريف ولسْتُ بمعرِّفه لك[1]. وإنما لك من شأنه ما قد يقع بنفسك عند انتهائك من هذا الكتاب. ولتذكر بيْت أبي العتاهية :

وأيُّ امرئ في غايةٍ ليس نفسُه
إلى غايةٍ أخرى سواهَا تَطَلَّع

1- في روايةٍ أنَّ أبا هريرة ثلاثة : أوَّلهم الصحابي رضي ا لله عنه وثانيهم النحوي وثالثهم هذا.

وقولَ "هُولْدِرْلاَين" : "أتعلَـمُ علـى مَ حزنـك ؟ إنَّـه ليـس علـى شيءٍ مفقودٍ فقدْتَه من زمنٍ مُعيَّن يمكنك أن تقول متى كان عندك ومتى ذهب. وإنما هو على شيءٍ لا يزال حيًّا قائما فيك. هو عهْـدٌ أسْمى من عهدك الحاضر تطْلُبُه، هو عَالَمُ أجمل من عالمك هذا..."

ولتذكر نُذْرَ "سفر التكوين" : "لا تـأكُلْ مـن الشـجرة الحـرام. فإنَّك إنْ فعلْت لذائِق الموت".

وشأنَ نيتشه يقول : "إذا ذهب صدقي فقد عَمِيت. فـإذا أردتُ المعرفـة فقـد أردتُ الصـدقَ، أعـني الشـدَّةَ والتضييـقَ علـى نفسـي والقساوةَ لا تلين".

* * *

إذا قـرأتَ هـذَا الكتـاب فلـه عليـك - في مسـيرتك إليـك - أن تكون قاسيا غيرَ رحيم.

# الفاتحة

طلبتُ المستقرَّ بكلِّ أرض فَلَمْ أَرَ لي بأرض مُستَقرّا

(أبو العتاهية)

# حديث البعث الأول

**« سنعلم يوم نُبْعَث من بين الأموات... »**
**إبسـان**

**حدّث أبو هريرة قال :**

جاءني صديق لي يوما فقال : أحبّ أن أصرفك عن الدنيا عامَّةَ يوم من أيامك، فهل لك في ذلك ؟ فقلت : إن وجـوه الانصـراف عن الدنيا كثيرة، وأحب أن تُعرِّفني أيَّها اخترتَ لي. فقال : أخفَّهـا وقعاً على النفـس وألذَّهـا مسـاغا. قلـت : إنـي أخـاف أن يكـون انصرافا ليس بعده عَـوْد، ولستُ متهيئـا لـلرحيل. أفـلا سبيل إلى الإفصاح ؟ قال : لا. وضرب بكفِّه على كتفي. قلت : إذن يكون ذلك متى ؟ قال : غداً.

فلما كان من الغد سبق الفجرَ إليّ. وكنـت لا أعهـده مبكـارا. فاستغربته في تلك الساعة وقلت : هَممتُ أن أقسم أنـك لم تبكّـر كيومك قط. ما الذي عجَّل بك ؟ قال : ننصرف لساعتنا. قلت : مهلا يا عافاك الله. فإني لم أتوضأ وقـد تبيّـن الخيـط الأبيـض من

الخيط الأسود. نتوضأ فنصليّ ثم ننصرف. فقال : لو فعلنا لفاتنا خير كثير. دع الصلاةَ اليوم فا لله غافرها لك، ولنذهبْ فليس منه بدّ. فلم أجد إلا القيامَ معه. فقمت وأنا أستغفر ا لله وأصلح من ثيابي. فذهب بي إلى بيته، وكانت بفِنائه نجيبتان مُرحَّلتان، فقال : اركب هاته. ففعلت وركب الأخرى.

* * *

ثم خرجنا من مكة وانصرفنا عن طريق القوافل، وسرنا سيرا حثيثا حتى أصبْنا الرمال وجعلت النجيبتان تغرسان وتقلعان فإذا خطاهما ليّنة عذبة كأنها مسٌّ خفيف، ونحن نُصوِّب ونُصعِّد من كثيب إلى كثيب. وكنا في غَورٍ إذ قال : الآن نترجَّل. فقلت : وا لله ذاك ما كنت أريد، فقد أخذ مني الرملُ ولونُه ولطفُه. ثم ترجّلنا وأنخْنا راحلتينا وعقلناهما وجلسنا على الرمل. فجعلت أضرب برجلي وأقلِّب يدي فيه فأجد منه كمسٍّ لطيف النهود، وكانت قد نامت فيه برودةُ الليل فهو كاليقين بعد الحيرة. وصاحبي مستلقٍ مُصيخٌ كأنه يتوقّع سمعا.

ومضت ساعة. ثم إذا هو يُومئ بيده أن اصْعَدْ في الكثيب. فصعدت فرأيت على رأس الكثيب المقابل من وجه الشرق شَبَحَين. وكان عاليا فكأنهما على صفحة السماء المبْيضَّة. وقال لي صديقي : انظر ولا تتكلم. وتبَيَّنْتُ الشبَحين فتبيّن لي فتاةٌ وفتى، في زيّ آدم وحواء، ممدودان جنبا إلى جنب متجهان إلى مطلع الشمس، وكانت على وشك البزوغ فالمشرق كلهيب النار.

ثم بدتْ من الشمس بوادرُ نور. فإذا الفتاة ارتمت وقامت كأنها الظبية أحسّت بالنبل. وجعلت تَهُمّ بالشرق فلا تخطو إلا خطوةً، ثم تتراجع وترسل يديها إلى السماء والشمس، كأنها تروم أن تدركهما، ثمّ تتراجع بهما في هيئةٍ من الرقص كأنها الغصن يهزّه النسيم. وسكَنتْ طرفةَ عين. ثم عادت في الرقص إلى مثل حركاتها الأولى. فرأيتها لساناً من الرمل قائمةً على رأس الكثيب، وكأنها وُلِدتْ منه أو ذابت فيه. فهي رقيق الرمل يجري بين الأصابع.وأرسلَتْ إلى ذلك صوتَها بالغناء. فكان يترقرق في حلقها، ويرق لرنين يديها وثدييها وكامل جسدها، ثمّ يتراجع بتراجعه حتى إِخالُه سكَن. ثم تعود فترقص وتغني :

سلامٌ على الرُّوح يسري على يُسْرِ
سلامٌ على النُّور سلامٌ على الفَجرِ

حتى كأنَّ صوتَها ورقصها في الاندفاع والتراجع ابتسامةُ السرور أوَّلَ نشأته. ثم سكنت ويداها إلى الشمس البازغة وإحدى رجليها مرسلة كالرمح المُصوَّب في الهواء، كأنها تهمّ أن تطير، فكأني بها قد انفصلت عن الأرض وطارت. ثمّ انفجر صوتُ مزمارٍ في قوة وروعة. وارتَمت الجاريةُ ترقص في سرعة وشدة. وإذاً المُزمِّر الفتى، وقد قام فبدا على وجه السماء المشتعل كالصنم الحيّ. وجعلت الفتاةُ تدور أو تقف، وتقوم أو تهبط، فتقع في هيئة الساجد فإذا هي قائمة، أو ترتفع فإذا هي

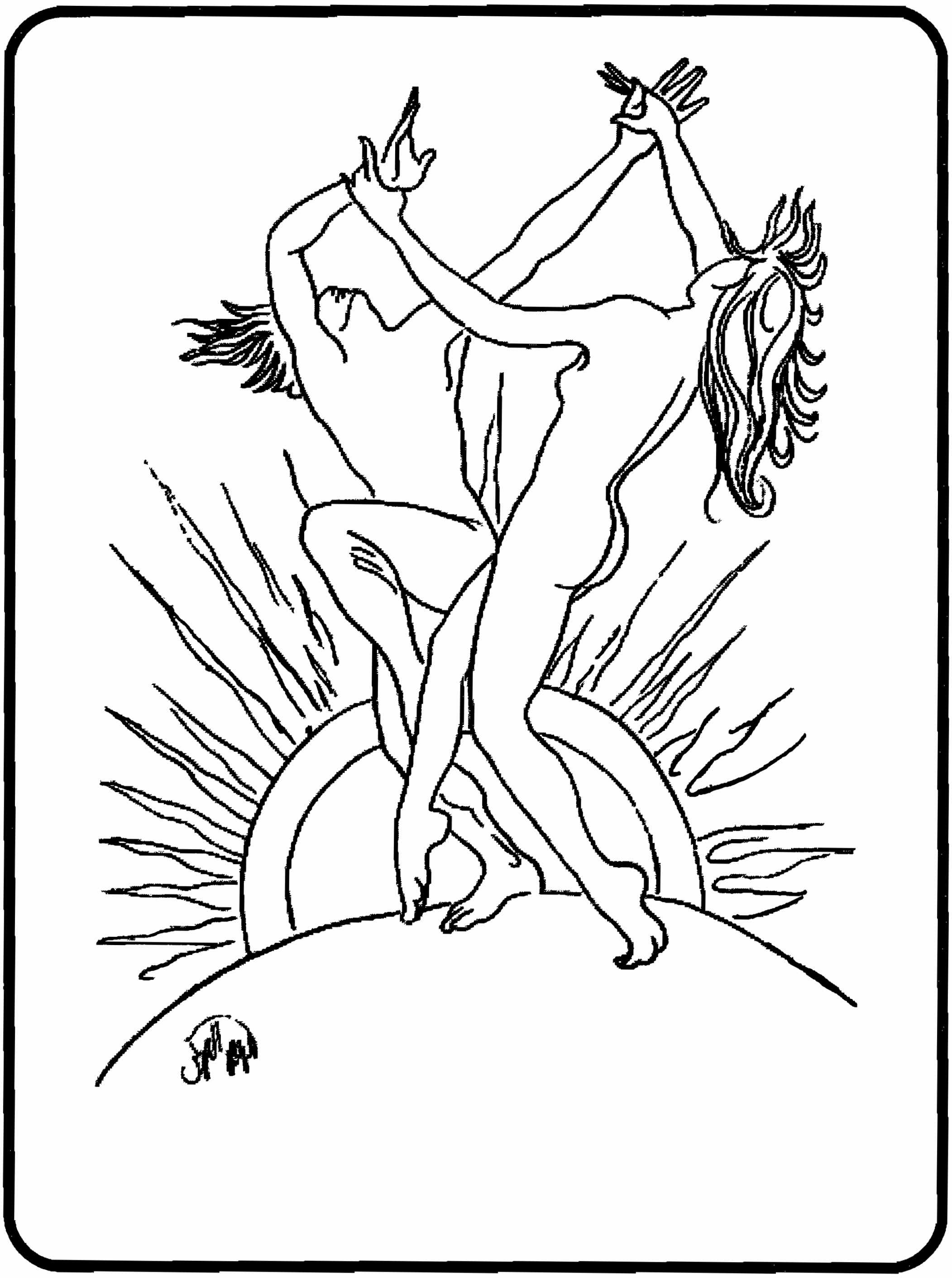
ساجدة. فكأنها دخانٌ كاذبٌ أو سرابٌ خُلَّب أو خفةٌ ولا جسد. ثمّ انقضتْ من صوت المزمار قوّتُه. فارتدَّ رقيقا حتى كأنه وحيٌ من الله أو همسُ الشياطين. وسكَنَتْ عن الجارية سرعةُ الرقص، فصارتْ تتثنَّى بتثنّي الصوت وتتهادى لتهاديه وتبطِئ الدوْر لبطئه، حتى رأيْتُها أصبحتْ ذوباً في الهواء أو سَكّنَها نفَسٌ من النسيم فهي في لينه.

ودام ذلك ساعةً، فرِحْتُ له أريحيَّةً عذبة، وصرفني عن صديقي وهزَّني الطربُ. حتى كِدْتُ آخذُ في الرقص من حيث لا أشعر. ثم دقَّ الصوتُ حتى سكن. وإذا الفتى قد وثب إلى الجارية ورفعها من خصرها فبدَتْ على يديه مُمْتَدَّةً في الهواء ويداها مقرونتان في هيئة المقبل على البحرِ أنْ يغوصَ فيه، والشمس ناشئةٌ تكسوها. ثمّ حطها الفتى إلى الأرض فتعانقا وصوّبا في الكثيب يرقِصان معاً، حتى حجبهما عنّا.

* * *

ثم التفتُّ إلى صديقي فإذا هو يبكي أحرَّ بكاء. فقلت : والله إنّك لغريب الأطوار، أتبكي وما في الأمر غيرُ الفرح ؟ فقال : أتعلم يا أبا هريرة ما قِصّتهما ؟ قلت : لا والله وإن بي لشغفا إلى ذلك. فقال :

ضلت لي مرَّةً نجيبةٌ كانت أحبَّ إبلي وأحسنها عندي. وافتقدتها فذهبت أقصُّ أثرها، وكانت الساعة الضحى، فإذا هي



رسم : الزبير التركي

... فتعانقا وصوّبا في الكثيب يرقصان معا.

حديث البعث الأول

قد قطعتْ مسافاتٍ حتى وقعتْ على ماء هـو وراء هاتـه الكثبـان. فأتيتُه فرأيت تينا وعنبا وخَيْراً كثيرا. وجُلْتُ فيه فلم أجد به حيًّـا. وذهبتُ أتبيّن أثرَ الناقة حتى وصلـتُ عريشـا مـن سـعف النخـل، يجرى بقربه ماء وفي الماء تين وعنب. ثـمّ إذا أثـر إنسـان أو اثنـين. فبينما أنا أستغرب ذلك وأفكر في من يكون على هذا المـاء وليـس له بيت، إذ سمعت غناءً. فصرفتُ وجهي إليـه، فعنّـا لي مُنحدِريـن مـن كثيـب، وهمـا يرقصـان ويلعبـان ويغنّيـان. فلّمـا قربـا منّـي وجدتُهما عاريين، وكدتُ أراهما من الشياطين. ثمّ سبقَتِ الجارية صاحبَها إليّ. فأقبلتْ عليَّ في خفة الهواء، فـأخذتْ بيـدي فـأنزلتْني عن راحلتي وهي لا تنفكُّ تغني. وكانت وا لله من حسـن الصـورة وإشراق البشرة فيما لم أرَ مثلَه قط. ثمّ أرادتني وقالت : كُنْ زهرةً وغنِّ. فلم أتمالك وا لله عن الضحـك وقلـت : مـالك ؟ أجُننـتِ ؟ دعيني. وتراجعْتُ تخلُّصاً منهـا. فـتركتني، وطفقـتْ ترقـص وتغـني ويغـني الفتـى وأنـا أنظـر، حتـى دخلـني مـن ذلـك طـرب شـديد. وأدركـت أنـه سـلامٌ وترحيـب، فاستأنسـت وقلـت : وا لله لا أنصرف أو أعرف قصتهما. وذهب عني أمرُ الناقـة. فبقيـت حتـى سكنا.

ثم جلسا وأجلساني، وجعلا لحْما مشويا وتمرا وعنبا وتينـا بـين يديّ. وقالا : كُلْ هنيا فهي سرورٌ كلها. ثم تحدثنا، فإذا هما على أدب كثير، يرويان من الشعر ويقولانه ويقصان من أيامنا ويصنعان على البديهة من الأصوات ما لم أسمع وا لله أمتعَ منه. فسـألتهما في

انقطاعهما عن النّاس، فقالت الجارية : دُعِيَ الناسُ فلم يأتوا ودُعِينا فجئنا.فأقبلتُ على الفتى كالمستفسر. فقال : نعم. دعوة الدنيا، دعوة الكون. ترى هذه الأشجار وهذا الماء وهَذا النور وهذا الفضاء وهذا الخلاء ؟

ثم قاما عني. و لم يسكُنْ بهما الرقصُ ولا الغناءُ ولا الجذَلُ وأنا أتمتّع بالنظر إليهما، حتى مضتْ لنا في ذلك ساعة. ثم ذكرتُ شأني، فانصرفتُ وصوتاهما يشيِّعاني بما لن أنساه أبدا من بديع الغناء. وقد أكلا ناقتي وآكلاني منها فما كان فقدانٌ أطيبَ من فقدانها.

وقد ذكرتُهما بعد ذلك كثيرا، وعدتُ لاستماعهما والنظر إليهما خلسة أياما، حتى نشأ لي منه في النفس كالشوق إلى الجنّة وكرهت حياتي بين الأموات.

وسكت صديقي، فإذا هو قد عاد إليه البكاء وكان سكن عنه. ثمّ قمنا وعدنا إلى مكة.

* * *

وبقيت عامّة يرمي مصروف البال إلى أمر الجارية وفتاها وشأن صديقي فيهما. فلما كان من الغد جمعتُ عزمي وأعرضْتُ عن الدعوة وعدتُ إلى الصلاةِ فقضيتُها واستغفرتُ الله. وكان آخر عهدي بصديقي. فقد سألت عنه بعد أيام فإذا هو قد أخذ جاريةً جميلة وترك أهله وذهب إلى حيث لا يعلم أحد...

فذهب ذلك بما تصنّعْتُ من العزم، وكان البعث.

# حَدِيثُ المزح والجد

**حدّث رجل من الأنمار قال :**

كانت ريحانة من سبايانا. سباها في بعض غزواتنا بالحِيرة رجل منا يقال له لبيد، وهي لا تزال صغيرةً مُرْسَلَةَ الشعَر. فنشأتْ فينا. وكانت حسناء غريبة الحُسْن، كأنَّ في عينْيها ناراً وبفيها ماءً حميما. فأرادها لبيد في يوم من أيام الربيع، وقد تبَّرجتْ كعوباً، فدلَّتْ ولاعبتْه ثم امتنعتْ وقالت : ظمأٌ على ماء مرقوب خيرٌ من ارتواء. ولم تزل به حتى كاد يُجَن. ثمّ أقبلتْ عًلى شبان الحي، وكنتُ منهم، غفر الله لنا جميعا. فكانت تعاشر الواحدَ منّا، ثمّ تهجره إلى غيره. وكانت في ذلك تُلقِي لنا فنبسط الأيدي، فتُمسك عنا وتُولّي. حتى تهيَّجْنا كغبار في يوم إعصار. وهو في هيامه بها لا يرى من ذلك شيئاً. وأنكرت نساءُ الحي فعلَها. فجئن لبيدا، وهو يومئذ لا يزال على عقله، فقلن له : إنا خشينا أن يكون من ريحانةَ فتنة. أفلا تمسكها عن فتياننا ورجالِنا ؟ فغضب لبيد وقام يريدها بعصاه. فقالت ودلَّت وأخذته من يده : لو أعتقتني لكنت لك. ولكنّك مولاي، فليس لك من نفسي. فظنَّها

لانتْ ومالت فأعتقهـا. فأمسـت ولم تصبـح. فجُـنَّ لبيـد فهـو إلى اليـوم في أهلـه بـوادي حـرّان، يخـرج كـل يـوم إلى سَـمُرةٍ هنـاك، فيجلس ويقول في ريحانة من الشـعر مـا لا يُفْهـم ولا يُحفَـظ. ثـم يضـرب علـى الأرض بعصـاه ثلاثـا ثـمّ يـأخذ غصنـا مـن السـمرة فيجعله في فمه، ثمّ يقوم فيسعى بين السمرة وبيته سعي الحجيـج بين الصفا والمروة، حتى ينفضخ كالدلو ويسقط لوجهـه. ويحتملـه أهله إلى بيته فينام.

* * *

وكانت ريحانةُ تحدّثنا فتقول : أنا آخرة قومي. وقد أكلتهـم النـارُ جميعا. كانوا من وُلْد البراء ابن كسيان. وسكنوا العمان ثم خرجـوا عنها بعد أن أصابت بيوتَهم نـارٌ ذهبـتْ بـأكثرهم. فجـاء مَـنْ بقـي الحيرةَ ونزلوا بها فأقاموا. - فإنهم بها إذ غزونا قِبَلهم. فأوقدنـا نـارا فأصابَتْهم فماتوا بهـا جميعـا. وأدْرَكَهـا لبيـد فوقاهـا النـار وملكهـا. وكانت تحدث انه كان لقومها عن أساف ونائلة غيرُ الخبر المعـروف لا يُشرِكون فيه أحدا. وتقول : ولم يبق اليوم من يعرفه غيري. فهـو هنا مكنون إلى يوم أموت. وتجعل يدها على صدرها فكأني بنهدَيْهَا قد قاما واضطربا كرمال الكثبان نَشْأةَ الريح.

* * *

ولمـا حـال الحـولُ علـى جنـون لبيـد حججْـتُ إلى الكعبـة. فلمـا انتهيت من مناسك الحج كرهت أن يكون حجـا بـلا زيـارة. فـإني

لمنطلق من مكة إذ رأيت على طريق المدينة بيتا منفصلا عن البيوت، والناس بين داخل وخارج. و لم أكن رأيته قبل، فجئته، فإذا حانوتٌ وعربدةٌ وغناءٌ ونبيذٌ وخنى. فأنكرْتُها وأنا على حالي تلك من العبادة. وبينا أنا واقفٌ راحلتي هناك، إذ مرَّ بي رجلان منصرفان من الحانوت وهما في نبيذ كثير. فقال أحدهما ولسانه كالقصبة في الريح :

قفا نشْك من ريحانة العين والحشى.

وقد ذهب عني شطر البيت. فقلت : لا أبرح البلد أو أعلمَ جليَّةَ الأمر. فعقلتُ راحلتي ودخلت. فإذا هي وا لله ريحانتُنا تغنّي وتُلْقِي إلى الناس فيبسطون لها الأيدي فتُمسك وتُعْرِض، كما كانت تفعل بنا. فخرجْتُ لساعتي وانطلقت لشأني. وكان آخر عهدي بها في شبابها وشبابي.

* * *

ثم طواني الدهر وذهب أترابي في الحيَّ ممن يعرفون ريحانةَ جميعا. وإنَّا انتجَعْنا قِبَل نجْد. فنزلتْ بنا امرأةٌ فأضافها بعض الحي. فسألْتُ عنها. فقالوا : إنها تقول إن اسمها ريحانة. فأمْرتُ أن تأتيَني فجاءتْ. فكانت هي وا لله. وكانت من حيٍّ إلى حيّ، لا تسكن عن الترحال. تحدِّثُ عن أبي هريرة ولا تبكي، وتقول : لقد جمدَتْ عيني. وهي يومئذ قد ضرب الشيب في شعرها، وذهب حسنُها إلا نوراً منه في العين، وأصابت وجهَها الأخاديد. وكانت لا تزال

كعهدي ظريفةً لسنةً طيبةَ الحديث. ولكنّها أصبح بها كالبحّ، تقـول فكأنما تبكي، وليس على وجهها إلا نفْسٌ مسلمةٌ راضية.

وكانت لا تتحدث عن أبي هريرة إلا كان آخر قولها : رحم الله أبا هريرة.

# حَدِيثُ التَّعَارُفِ فِي الخَمر

« رُدَّا عليَّ الكأس إنّكما
لا تدريان الكأسَ ما تجدي »
أبـو نـواس

**حدّثت ريحانة قالت :**

كنت في مكّة. فذهبت لي بِها شهور في حـانوتٍ. ثـمّ كرهْـتُ الخمر وعربدته والغناء وما كنت أصنع منـه، والكعبـةُ على كثـب تَعْتبر وتُصلِّي. فنفـرْتُ أياما، وصـاحب الحـانوت غـاضب علـيّ، وأصحاب الليل والخمر إذا جنّ يسألونه عني. فلما كنتُ في بعـض ليالِيّ هدّني أرقٌ فلم أصبر عليه. فانسللت فخرجت أريـد المدينـة. وكانت الساعة الغلس. فسرت راجلة حتـى ذهـب بعـض يومـي، وأدركتني الهاجرةُ وعقلني النصبُ. فحـامتْ عيـني، فـلاحَ لي وراء جبل دخانٌ كلا دخان. فجهدتُ وقصدتُ إليه. فـإذا حـيُّ الأنمـار إلا أهلَ لبيد. فنزلتُ بهم فأكرموني على انقباضٍ فيهم، وجـاؤوني بطعام طيب فأكلْتُ وماء كالبرد فشربت. ثـم اضطجْعـتُ فنمـتُ نوما طويلا.

فلما استيقظتُ كان الليل قد اسودَّ. ونظرت فإذا القوم في شأن لهم وقد ملكهم. فصحت بامرأة رجل منهم كان يسمّى سعدا، وكانت مقبلة على قِدْر وقد أدخلت يدها تخرج منها الطعام، فقالت : نزل بنا الليلةَ أبو هريرة، ونحبُّ أن نكرمه. قُومي يا هاته فسيكون منه كالمأدبة. فقمت فرأيت رجال الحيّ وقد اجتمعوا إلى رجل لم أكن أعرفه، وهو يحدثهم ويضحك ضحكا كثيرا. فرأيته سكران وكان كذلك.

ثم تهيأ الطعام، فصُفِّف على بساط. وجُعِل عند سمرة هناك. وجلس الرجال فتأخر عنهم الرجل، وقصد إلى راحلته فأخرج زقا من الخمر وجاء به القوم. فقالوا جميعا : آخفيْتَها ضنّا ؟ قال : بل خوف أن تتوقعوا فَتَذْهبَ المتعة. وجلسوا جميعا يأكلون ويشربون حتى ذهبت لهم ساعةٌ ونيران الحي تخبو وأصواتهم تعلو. وأهمّني أن يكونوا في لهو وأبقى في قطعة من الليل. فقمْتُ كالواهة فسعيت، فوقعتُ على الزقّ فصببت وشربت أقداحا. وصاح بي بعضهم : حسب الانمار لبيد. وقام يريدني وقد أخذ منه الخمر. فقام له أبو هريرة ومنعني عنه وقال : دعوا الجارية تشرب. ثمّ دنا مني ولان وقال : ما اسمكِ يا هاته ؟ قلت : ريحانة. قال : إنه ليس فينا إلا حفِيٌّ بك محبٌّ لك. فنحن نشرب ونحبّ من يشرب. ألك في قدح آخر ؟ وأخذ الزق مني كأنما يريد ذلك. فإذا هو قد رفعه وصبّه على رأسي. فصحت وارتعت وقال : انظروا ريحانة الخمر. فانطلق أصحابه يضحكون مني. وهَمَمْتُ أن ألطم وجهه لطمةً



رسم : الزبير التركي

ألك في قدح آخر ؟ وأخذ الزقّ منّي كأنّما يريد ذلك. فإذا هو قد رفعه وصبّه على رأسي...

حديث التعارف في الخمر

تذهب بخمره.فما كدْت أهمّ به حتى أخذني واحتملني وأنا أضطرب، فجعلني تحت سَمُرةٍ إلى الأرض وانصبّ عليّ. فوجدته صاحيا من أشدّ الرجال. ثم شدّني إليه حتى صرت منه. وقام عنا الرجال. فجعل يرِقُّ ويحدثني ويقول : ما كان أحسن انصبابك على الزق. إلى أن طابت لي ريح الخمر في ثيابي.

فلما أصبحنا أردفني إلى مكّة. فلزمته ثلاثا ثم رجعْتُ إلى الحانوت وقد طاب مقامي. رحم الله أبا هريرة.

# حَدِيثُ ٱلقِيَامَة

« متى كانت الحركة بشوق طبيعي لم تسكن البتة »
**أبو حيان التوحيدي**

**حدّث أبو المدائن - وكان من خاصة أبي هريرة - قال :**

وقف عليّ أبو هريرة يوماً فقال : ما كسْبتَ في يومك ؟ وكان لا يلقاني إلا قال لي ذلك فأكرهه منه. فقلت : ألا تستحي ؟ ألا تجدّ في قولك ؟ لم أكسب شيئا. قال : لي عليك إذن أن ترحّب بي، فقد جئتُك مبتاعا. كم عندك من الشمع ؟ قلت : لا يزيد على الستّين. قال : هي لي كلها. فقمت وأحضرتها. فأخذها من يديّ وقال : أما الثمن فهو لك عَلَيَّ قضاءً كصلاتي منذ سنين. فقلت : يا رحمك الله. أو جئتَني منتهِبا أم مُبتاعا ؟ قال : أستغفر الله. بل مبتاعا على سنّة الله. ثمّ انصرف وتركني في حُمَّة من الغضب، وكنت لم أَبِعْ شيئا يُعَدُّ في يومي. فلما كان المغرب جعلْتُ أتهيأ للانصراف. وإني لمقبل على الباب أغلقه إذا هو مقبلٌ إليّ. فقلت : لقد حلّ أجل الدَّيْن. فضحك وقال : لقضائه أتيت.

موعدك العِشاءُ بضَيْعَتي. ثمّ تجاوزني في إسراع المهموم المُلِمَّةِ أشغالُه. فقلت : لا ينتهي وا لله. ثم لويت.

* * *

وجاء العشاء فركبت فرساً لي يُحسِن السير على ظلام الليل. وخرجت إلى ضيعة أبي هريرة. وكانت بنجد لا تصلح لزرع ولا لغيره، وفيها عِضاهٌ كثيرة مبثوثة. فلما قاربتها ألقيْتُ البصرَ فلم أر نورا فظننتُه أراد بي عبثا ومزاحاً، وهممت أن ألوي الفرس، فإذا هاتف يهتف بي فقصدت إليه حتى وصلته. وتوضّحت المكان فإذا أشباح نفَر جلوس وشيءٌ كالهاوية عليه صخور مشرفة. وكان كَهْفاً. وتكلم أبو هريرة فقال : ترجّلْ. ففعلت وأخذ فرسي شبَحٌ ودخل به الليل. وقلت : لن تنتهي وا لله. ما هذا ؟ قال : أنْصِتْ فستعلم الأمرَ ما فيه. قلت : ومن هؤلاء ؟ قال : جماعة من الإخوان يسألون الظلام. وهاته ريحانة. وإذا بجانبه امرأة مضطجعةٌ على صخرة، مطرِقةٌ كأنها تصلّي وهي متعلقةٌ به كالغصن بأصله. فلم أر إلا الصبر.

* * *

ومضت ساعة لم نقل فيها شيئا. ثم تكلمتْ ريحانةُ فقالت : يثْقُلُ الكونُ إذا همّ أن يكون. وتكلم آخر فقال : ولو لم يكن قبيل خلقه ثقيلا مُرْهِقا لَما خُلِق. فقال أبو هريرة : لقد كان حينئذ كالألحان قبل الضرب. وليس أبدع من الأوتار تُجَسُّ. ثم سكتوا

وحدثْتُ نفسي أني وقعت في مصابين أو سكارى. ومضت ساعة لم يعودوا فيها إلى الكلام، وطال عليَّ حتى كاد يذهب صبري. وبينا أنا كذلك إذ هتف مزمار همْساً رقيقا نائيا كأنه الذكرى تتجمّع في أعماق النفس. ثم تعالى فإذا له صلصلةٌ وزفير وانفلاق ودويّ. وفيه إلى ذلك تثنٍّ كأن الريح تحطّه وتُعليه. ثم جُنّ واشتدّ وقامت إليه مزاهرُ ودفوفٌ وصوتُ مغنّية، فراحت جميعا في الظلام كالبرق. وكانت المغنية ريحانة. غنّت :

أســــافُ ونائلـــــــهْ    أوقـــــدا جَذَواتــــــى
أســــافُ ونائلـــــــهْ    وَانفيــــا عــــبراتى

وسكَنتْ، فشدّ عليها المزمار والمزاهر واجتمعت إلى ذلك أصواتُ نساء كثيرة قامت من أرجاء الضيعة فردّدن غناءها. ثم عادت ريحانة تغني وتشدّ عليها المعازف والمغنيات :

إن نفســـى لحميـــمُ    رفـــرف اللحـــمُ عليـــهْ
ودعَاهـــا يَـــا سقيـــمُ    ملـــكِ العجـــزُ يديـــهْ

أســــافُ    ونائلـــــه
أوقـــــدا    جَذَوَاتِـــــى
أســــافُ    ونائلـــــه
وانفيـــــا    عَـــــبَرَاتى

هـــذه الدنيـــا إنـــاثٌ كلهـــا تدعـــو الذّكـــورْ
يُســـمع منهـــا لهـــاثٌ بـــدؤه بـــدْء الدّهـــورْ

أســـــــافُ ونائلــــــــه

كـم أردنـا الــروحَ فَيْضــاً جارفـا صخـرَ الســدودْ
وأثرنـــا النفـــس غيْـــظاً داويـــا مثـــل الرعـــودُ

أســـــــافُ ونائلــــــــه

وأكلْنـــا الـــروحَ حِسّـــا وانفجرنـــا للهـــوى
ثـــم خفنـــا منـــه مسَّـــا فـجـعـلـنـاهـــا هـــوا

أســـــــافُ ونائلــــــــه

إنمـــا الجبـــن بلايـــا وسقـــام في سقـــام
مـــا لمـــائى في الهوايـــا ذاهـــب مثـــل هيـــامى
غـــار فعـــلى في النوايـــا كجبـــال في الظـــلام

حتى استوفَتْ شعرَها ثم سكَنَّ جميعا.

* * *

ثم لم تلبث أن اشتعَلَتْ خمسون أو ستون مشعالا على مسافة في صف واحدٍ قِبَلَنَا. وكانت من الشموع التي أخذها مني أبو هريرة. ثم تقدّم منهن ما ينيف على العشرين.فإذا عليها وجوه صفراء مختلجة كأنها الموت وعليها كوضح الابتسام ثمّ وقفن فخرجت من بينهنّ اثنتان وتقدمتا إلى شيء فأوقدتاه، وكان حطبا مهيئا. وجعلتا تطوفان به كطوافنا بالكعبة. فلما زفر واحمَرَّ اندفعتا ترقصان كأنما أخذهما دفَقٌ دافق. وكانتا ترقصان كألْسِنَةِ النار فهما خارجتان منها عائدتان إليها أشدَّ حُمْرةً منها. وكنت أنظر إلى نهودهمَا فلا النهد يقر لي ولا اليد تنفصل عن النار. فأرى النارَ ذكَراً به لوعةُ الصادي. وصاحت ريحانة فالتفتُّ فإذا هي تتململ كمن أصابته حمّى، فيشدُّها أبو هريرة شدًّا ويقول : أَطْفِئيها وإلاّ أطفأْتُك. ويقبلان على الجاريتين الراقصتين حتى أراهما جاحظتين.

ثم أسْمَعُ الأصواتَ وقد قامتْ ثانيةً بأساف ونائلة، ذكّيا جذواتي. واتّقَدَتْ النيرانُ على قوْسٍ فعددتُها سائرَ الخمسين أو الستين. وتطاير الجواري كالشُّعَلِ من ورائها وطفقن جميعا يرقصن والغناء معهن كأنه دماء تسيل. ثمّ انصرف إليهن من الظلام فتيان. فاقتفوهن وحاموا عليهن حتى رأيتهم كالسافيات تنفضهن الرياح. وعاود رقصَهم عارضُ جنونه وهم أزواج. فكأنما ذهبتْ رَعدَاتُهم بأرواحهم وفقدوا الوصْل، فتفرقتْ من أجسادهم أعضاؤها ومضَتْ سبيلها سكرى، وكانت قبلُ جماعةً ذات ألفة،

فتفرّدتْ وانقضى العدد ونفر العضوُ أخاه، فكأنما يطلب ذاته أن يفنى بها. ثم أدرك الفتيانُ الجواريَ فانقضى عنهم عزيف الحَوْم، وكانت الأصوات عند الردّة، فلانوا حتى كأنَّ الماء يجري.

وبينما هم كذلك إذ خيّلت السماءُ وهبّ نفَسٌ من الريح شديدٌ سجدت له النيران وكادتْ تطيرُ الجواري. ثم هزم الرعد هزيما رائعا، وعصفت الرياحُ فانسابتْ ألسِنَةُ النيران على الأرض، فأدركت بعضَ العضاهِ فاتَّقدتْ فانتشرتْ في جميعها فصاح الجواري والفتيانُ جميعا. وصاحت ريحانةُ وقامت قيام النائمة لُدِغتْ وانحدرتْ إلى النار. فوثب إليها أبو هريرة فأدركها وقد جاءتْ نارا وهمّت أن تلقاها فحضنها عنها وقال: لأُعلِّمنّك الصبر على النار. ثمّ أزفّ بها فأخذهما الظلامُ عن عيني. فأسمع وقعَ فرسه منحدرا كالصخر. وأسْرعتُ إلى فرسي وأنا ذاهل عن الجواري وصحبي. فركبته وأرسلته، وبين أذنيّ زفير وصياح وصهيل خيل فزعة، والوهج على ظهري. فما رُدّ عليَّ عقلي إلا بفناء بيتي.

وكانت ليلة شديدة.

* * *

فلما أصبحتُ أصبح روعي غضبا على أبي هريرة وخوفا على الجواري وصحبي. فجئته. فإذا بيته أنقاض سوداء قد أكلت النار أوصاله وألقت أحجاره كالعظام. وكانت لا تزال بقايا دخان

خارجة منه بيضاء في الريح الباردة، وأبو هريرة واقـف عليـه وقفـةَ المعتبر. فاستلطفت له وقلت : الله أكبر. أوَنارٌ هنا أيضا ؟ تا لله إنه لمن عقاب ربي. وفاض حزنـي فبكيـت. فـأقبل علّـي وقـال : دع البكاء وخذ فيما أقول لك. ثمّ أخذني إلى قطعةٍ من جدار طريـح. فأجلَسَني وجلس وقال وابتسم : لم أر كالأصنـام ظاهرُهـا الـروحُ وتملِكُ الجسد. فـأردت أن أثنيـه عمـا أخـذ فيـه مـن مبهـم القـول فقلت: ماذا صنعت بعد الانصراف مـن الضّيْعـة ؟ وأيـن الجـواري والفتيان وصحبنا وريحانة ؟ وما خبر البيت ؟ قال : ملكْتُ ريحانـةَ عن نفسها فأردفتُها إلى مكة. وانطلقت بها في الليل يحجـب عنهـا جسدَها. فما كدت أبرح الضيعة حتى جاءت المُعصِرات بـالأنواء. وكان البرق يستطير فتنطلق السماء وركامهـا والأشـجار والجبـال وتقوم عصا الطريق فترتمي جميعا علـى وجهـي، وسـيل المـاء يكـاد يجرفنا والفرس. وتهيّج الكون حتى كأنه جهنم الشياطين ولا نـار. وكانت ريحانة تقول : يا أبا هريرة ذهبت ناري. وتبكـي. وكنـت لا أعي. فالمطرُ فالريحُ فالشدةُ فأنا أملأ ما أكون.

وانتهينـا إلى حانوتهـا فألقيتهـا. وأتيـت بيـتي، فـأطلقت الفـرس بالفناء ودخلت على امرأتي. فإذا هي لائذة بالسراج تطلب أنْسَـه. فقالتْ: لقـد بقيـت أتوقّعـك حتى ذهب التوقّع بالأمل. وها ليلـتي جاءَت. ـ قال أبو المدائـن : وكـان أبـو هريـرة لا يعاشـر امرأتـه، وكانت تقول: أحببتُه حتى جَعَلْتُهُ نوراً في ظـلام نفسـي، علـى مـا فيه من الشرود ـ قال أبو هريرة : ثمّ قامت تريد الفرسَ أن تُكنِّـه.

فقلت : لا تفعلي. فسيفعله بعض الغلمان. وهـات حدثيـني. وقـد أعجبني منها أن ردّت إليّ بعض ما أحملتها سنين. فلم تُبَال وقامتْ إلى ما تريد. فلما توسَّطَتِ الفنـاء انشـق فَلَـقُ الصاعقـة فأَخذَتْهـا. فرأيتُها وقد اشتعلَتْ كأنها ملَكٌ من نور، وقفز الفرس رَوْعـا. ثـم نظرتُ فإذا الأمر ناقص أبتر. ووددتُ لو احترقَتِ السـحب، وإنما كان البرق ينيرها. فقمت إلى بيتي وأحرَقْتُه وجلست أنظر إلى النار في الماء والماء فيها. فرمادها الآن تحت الخراب وقد أصبحت بين ما أردت لها أهلا من الملائكة والمخلدين.ثـمّ قـال : رحمهـا الله. لقـد أردتها على الجبال ومثل ما شهدنا البارحةَ مـن الجهـاد وأن تمشـي على دهرها كالفلك تسير آمنةً والهاوية. فقصرتْ عـن ذلـك.فلمـا خفـت عليهـا أوقعْتُهـا في روحهـا. وقـال : وإنّ مثـل كـل جهــاد لكمثل مصيرها. وينفضه البكاء.

فرققت له وبكيت وقمـت به إلى بيـتي. فـأمضى بـه أيامـا. ثـم انصرف فلم أره دهراً.وسألت عنه فقالوا : إنه وريحانة...

# حَدِيثُ الحِسّ

**حدّثت ريحانةُ قالت :**

مرض أبو هريرة حتى أشفقتُ عليه. وكنت لا أبرحه ساعةً وأبكي وأوجع لألمه حتى كأني منه. فيهمس : ابْكي ما لذّ لك البكاء. ويومئ أَنْ ضُمِّيني إليك. فأضمُّه ضمًّا خفيفا، فيلقي بأذنيّ كالحنين ويقول : وجعت أن لسْتِ في مثل علتي.

ثم ذهب عنه بعض مرضه فدخل إلى الإبلال. سألته : هل عاد لك من الصحة ما كان ذهب ؟ قال : إنه قد استوى عندي أن تذهب أو تبقى، بل كدت أختار العلة.

يمرض الناس يا ريحانة فيطلبون الشفاء فيثقل المرض فيضني فيذهب سدى. وقد طلبت الشفاء مثلهم ساعةَ مرضي الأول. ثم وجدت في علتي ما لم أجده في الصحة وتمّت لي بها حياتي، فخشيت أن تعاودني الصحة والاستقامة فأموت. كذا نحن. ولعله لا يبلغ العلةَ من الناس إلاّ القليل. قلت : وهل في العلة غير الإمحال وذهاب الماء يا حبيبي ؟ قال : لا أدري، فقد يكون وقد تكون العلل من مُحْيِيَات الحياة. بل انظري - قالت : وكان في صوته

كصدى غيبٍ بعيد - إني أجد في جسدي وهو عليل كيف يرق حتى كأنه عود كلما جسَسْتُه أنَّ، وكيف تدق الحاسّةُ وتحتدّ. وقد ذهبت لي والله ساعات وأنا أقفو أثر الروح تنتقل من يدي إلى رأسي أو منه إلى صدري، وتتردد على الأعضاء والقلب والأمعاء تردد الفجر، فكأني أسبح في دمي يجرى. ولذّ عندي، فيلْذَعُني الألمُ في كتفي أو صدري أو رأسي فأنا آكل حنظلا لا كحنظل الناس، فيه مرارة وحموضة وألوان مختلفة ونار تضْطرِمُ وتحسُن في العين. فكأن مقدار القوة والحياة يزداد للعلة، وكأن قرب الفناء خلاّق.

ترين ؟ ألا تكون الدنيا من خلق الالهة عند النزع يا ريحانة ؟

ثم تنفَّس فمدّ نفَسَه. ثم قال :

وددت من زمن بعيد لو أني عُلِّقْتُ بين السماء والأرض، أو أني جلست على قمّة جبل وقد طلّقتْه الأرضُ فطار. فلم أصب ذلك إلا في علتي تفكُّ الجسدَ وتميّزُ الأوصالَ فيخف اللحم والدم فكأني في الخُلْد. إنه لا تكون الحياة أبدعَ مما تكون بين العدم والكيان، ولا أقربَ من طمأنينةِ السعيد.

قالت ريحانة : ثم ابتسم وسكن. فنظرت فإذا دموعه كقطر الندى على خده وقال : آلمني أن يكون نصف متاع الدنيا في حال لا يصيبها الإنسان إلا حينا بعد حين، إذا سَلِمَ من كثافة الصحة. وضممتهُ إليّ وضَمَّني إليه. رحم الله أبا هريرة.

# حديث الوضع

« ... لأنه قد صحّ أن شأن الحس أن يورث الملال والكلال ويحمل على الضجر والانقطاع »

أبو حيان التوحيدي

**روي عن أبي سعد، قال :**

**حدثت ريحانة قالت :**

لما ذهبنا إلى المدينة سَكَنَّا بيتا منعزلا عن البيوت، نشرف منه فتلقانا مقبرة المدينة. وكان أبو هريرة يقول : لا يطربني شيء مثل الزهرة على القبر، ولم أجد مثله إلا عند بعض الناس، تركب أحزانُهم مركَبَ الهزل. فأقمنا بذلك البيت شهورا. وكان أبو هريرة في أولها يكثر من الانصراف ويدعني بالبيت، فلا يردُّه عليَّ إلا الغَداء أو العشاء. وكنت كلما دخل البيت وجد العنبر والمسك والعود قد نُشِرتْ فيه وألوان الطعام قد صُفِّفت ودعت بالأفواه، وأطيبَ النبيذ والريحان قد تضوَّع وفاح، - فيضيء انشراحا ويصرف سروره إليّ ويقول : لقد علَّمْتِني الطعام ما لذته وما

سكرته. فهل علّمْتُك يا ريحانة الجوع ؟ فأقول : نعم. ولكني مكتفية بك. ونجلس فأغنيه ويأكل ويسقيني. وكان كلما أتى طعاما أخذه خشوع غريب. وسمعته يقول يوما وشواء بين يديه يتقاطر : ما أعظم الشواء يستحيل إلى دمي. ثم تأمله طويلا وقال: هاته متع الدنيا. وكنا كثيرا ما نجلس للطعام بفناء البيت والشمسُ علينا. فيعبث بكأسه في النور ويقول : يا لهفي على خمري تغشاه ظلمات الأحشاء. وددت وا لله لو تبع البصر ضياءه فيها. ثمّ يشرب قدحه صبّا فيغيب بصره وكأنما جرّه النبيذ إلى غيب أحشائه. وكان إذا أراد الطعام تطهَّر له كتطهّره للإحرام.

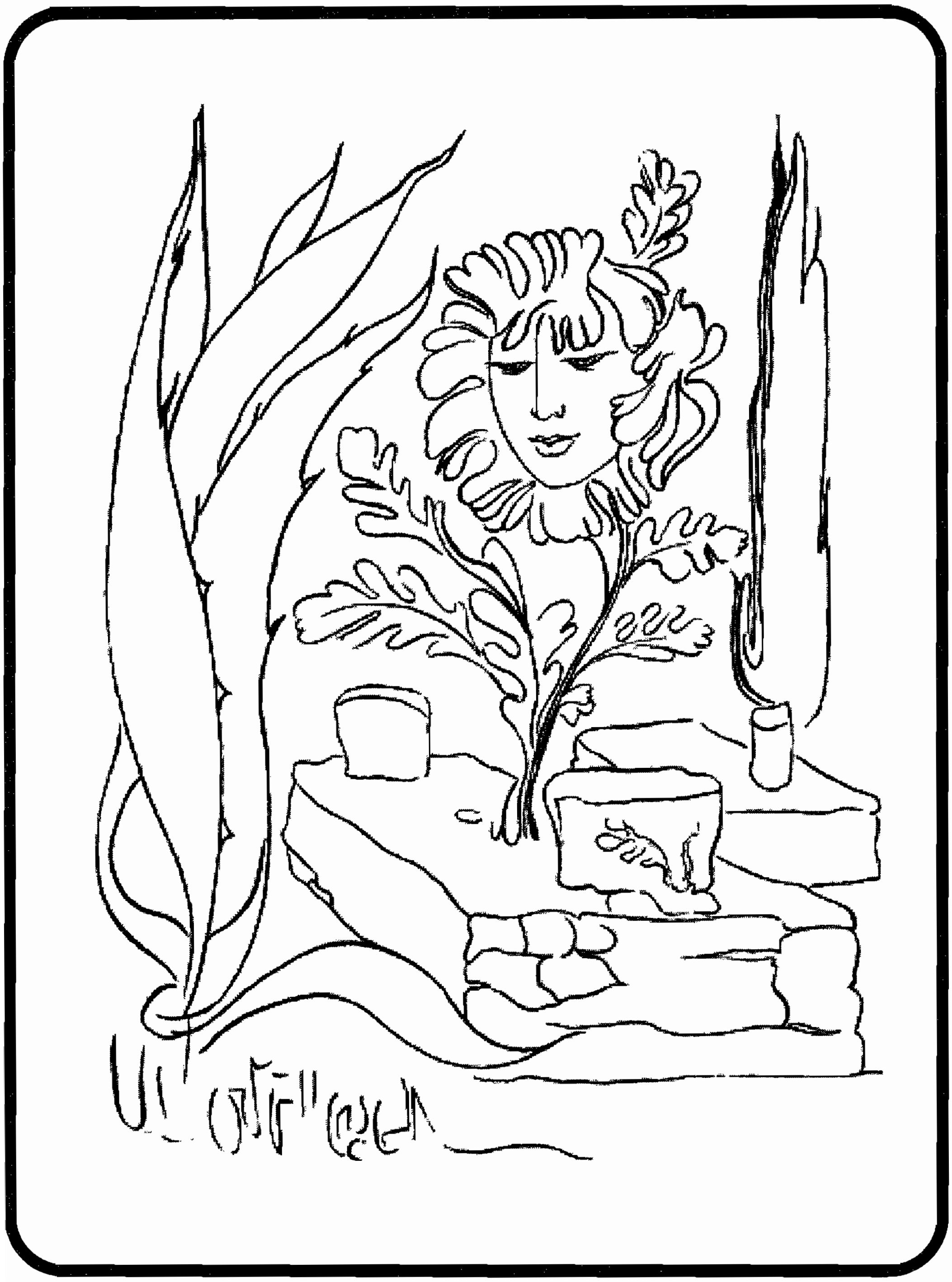
ثم قل انصرافه فلم يخرجْ إلاّ بي. فكان ينطلق بي إلى شعاب بضواحي المدينة. فنسير حتى يقعد بنا التعب فيحدثني وأحدثه. وقد أراني وأبا هريرة في بعض سيرنا بتلك الشعاب فأسمعه يهازلني القول ويضحك وعليه سِمةُ الفرح بالحياة.

قال الراوي : ثم سكتتْ ريحانة وتبسمت وشخصتْ بعينٍ عبرى.

* * *

قال : قالت :

وخرجنا يوما وقد أربعْنا - وكان الهواء كدمعة عذراء والسماء لاريب فيها، وعليه ثيابُ وشيٍ وفضةٍ كأنها كواكب الصيف، وعليَّ من الحرير شُفُوفٌ تجري - فذهب بي إلى مرجٍ مزهارٍ.



رسم : الزبير التركي

وكان أبو هريرة يقول : لا يطربني شيء مثل الزهرة على القبر، ...

حديث الوضع

فأجلسني وجلس على الكلإ الريَّان. فأطرق ساعة فقال : أتعلمين يا ريحانة أنه في بعض أحياني

تَراكَضُ لدى قلبي خيولٌ كرُؤَى السِّحْر
يُدوِّي عصفُها الدنيا ويذرو جبلَ الصخر
فيشتدُّ على روحي جُموحٌ في دمى يجري
أَمَرُّ من ضنى الحُبِّ وأدهى من عنا الصبر

ثم لوى فأقبل على الأعشاب يضرب فيها بيديه ويستأصل منها قبضة بعد قبضة، ويقول : انظري كيف أخذَ العُشبُ من يدي، فهي كالدابة الآكل. وا لله كرهتُ طعامَ الإنسان وحُبِّبَتْ إليّ الأنعام في مراعيها تَرعى. فقلتُ : وهل من سبيل ؟ فقال : نعم. ومرَّتْ يداه على وجهي وصدري حتى أخذتا خصري، وكدتُ أتَّقِدُ وقلت : ألا تستحي. قال : بلى. ثم قام فعدنا إلى البيت.

وكانت لنا أيام لن يسقط ذكرها عني.

* * *

ثم أغمَّ وحالَ كسماء خريف. وقال : إني أجد كهمس المتناوحة العاصفة يا ريحانة، مثل عَقْر السحاب، يُسْمَع ولا يُرى. فجَهدتُ أن أصرفه إلى سابق فرحه بالحياة فقال :

مضى دهرٌ به كُنَّا وجدنا جدَّةَ العمر
وشاخ النورُ ريحانَ وقرَّت خلجةُ الفجر
فيَنتاب سنَا عيْني ظلامٌ كعمى الدهر

دَعِي الذكرى ريحانة فقد قتلْتُها في نفسي، وليس أقبح مما يدوم. انظري مغرب شمسك اليوم فلن تَرَيْ أبداً مثله. وقال : آيةُ جمالِك ما لم تكوني ولن تكوني. فرأيتُه سَئِمَ مَضجعي وقلت : آثراً بعد عين ؟ قال : كلا. ولكنكنَّ معشرَ النساء كالأنبياء، أضل الضلال عندكن وحدانية المتوحّد. وسكت ساعةً ثم قال :

وإن لك يا ريحانة سابقاتٍ. فهل لك في قصةِ أحبِّهن إليّ. قلت هات خبرك. قال : لم تقبل عليَّ من النساء إلا جارية واحدة في شبابي. فقد كنْتُ أطوف بالكعبة كل يوم، وأقف على الحجر الأسود أستغربه وأستَغْمضه. فأرى جارية تخرج إلى شأن لها من بيت هناك. تفعل ذلك كل يوم وتسترِقُ النظرَ إليّ. حتى ملكَتْ بصري وأصبح الطواف والحجر الأسود سراباً في عيني. وتجرَّأْتُ يوما، فأومأتُ إليها أن تلقاني عند الصفا ليلتنا تلك.فلما جاء الليلُ سبقْتُها إليها. فلما أحسسْتُ بها جعلتُ أترنَّم بشعر صنعْتُه فيها وأنا شديد الزهو به فهو أول شعري. فلما وقفَتْ عليَّ سلمْتُ فلم تردّ. فحسبْتُه خفرا وقلت : هذا من شأن العذارى. تبسَّطي يا حسناء. فأومأتْ بشيءٍ فدنوْتُ وأزحْتُ جلبابَها وكنت لم أرَها إلا تحته. وتبيَّنْتُها فإذا هي من أقبح عباد الله صورةً وإلى ذلك صماء بكماء. فقلت : لقد ضاع شعري. وانصرفت ولم أقل بعدها شعراً في امرأة قط.فاحذري يا ريحانة أن تكوني صماء لا تعي أو نبيا ذا جَنّة.

ثم أخذَتْه نوبةٌ من الغضب فصاح بي حتى ارتعْتُ : أكلّما تمرَّد شيطانٌ في إنسان قامَتْ لـه امـرأةٌ نبيـا ؟ أو كلمـا قـامت في قلـبٍ أعاصيرُ جعلَتْهـا النسـاء خطوطـا مستقيمة ؟ دعيـني يـا هاتـه فقـد كـدْتِ أن تقطعـي عـني سبيلي. ثـم سـكت فهـــدأ. فقلــت : لا تصطنع. فقال وأقبل عليّ ودمعُه يرفضّ : أنت الحكيمة يا ريحانـة، فهو اصطناعٌ كله يريد أن يكون حقا، وسيكونه. ثم جعل وجهــه في نَحرِي وقال : لو كان إلى النسيان سبيلٌ لكان رِيحُـك أنسـاني. لكنْ هيهات ومع اللحم والدم والحس يجـري الهـوى فيهـا جُرافـا، علّةٌ في الإنسان يلقيها هنا أو هناك. وضرب على رأسه وقلبه.

* * *

**قال أبو سعد :**

سألت ريحانة : ما أغـربُ مـا سمعْـتِ مـن أبـي هريـرة حينئـذ ؟ فقالت : لم يكن يُغْرب وإنما كان كلامه بعيد المَدَى. هذا حديــث الأبد :

خلونا ليلة بالمقبرة - وكانت مجلسَنا إذا هدَأَ لي - فجلســت إليـه وعلينا قمرٌ كالحرير ونسيم كالربيع، وقد سقط عني كل جَهْد فأنا كالصخرة الهاوية لا تنتهي. ما أحسنُ دنياك يا ريحانة ؟ قلـت : أن تجتمع فيك ولا حصر. فأمْسَكَ ســاعةً وأمسـكْتُ وأكلْتُـه فـأكلني وأفنيْتُه وأفناني. ثمّ قال : أوَ هذا الأبد ؟ قلـت : نعـم. وبـلا قـدَم قال: هيهات. قلت : ولكنّا دمّرنا القِدَمَ تدميرا. قال : بــل حسـبنا

أنفسنا، ولو انتفى القدم لانتفى المـوت. ثـمّ زفـر وقـال : وأقصـى الأبد الفجرُ يـا ريحانـة. ودموعـه كرجـع المـوج عـن الصخـر. ثـم سكت وقال : لا خير في مائدةٍ تجـري مـن تحتهـا الأنهـارُ وعليهـا ألوانُ الفواكه البِكر، تُجْعَـل لـك وتُؤْذَنـين بـالجولان فيهـا، ثـم لا تُؤَجَّلين فيها إلا ساعةً واحدة فـلا تُتوقـين إلى لـونٍ منهـا. ثـمّ قـام فدخل البيت فجاء بخمر. فلم يزل بي إلى أن وجدتُ من خمره مـا أزفَّ بي أرقص وأغنّي حتى ارتمَيْـتُ مـن ذرى الجبـال كراقصـات الأساطير.

* * *

**وعادت ريحانة إلى حديثها. قالت :**

وكنت أصبْتُ من معاشرته ما صار لي بـه كـل شـيء وضّاحـاً، وتبرَّجَتْ لي به الدنيا تبرُّجاً أكثر النفس. حتى شرب المفْـرَدُ العـددَ و رأيتني نوراً مشاعا.فكأني البنيانُ ينفي أحْجَاره ورخامَـه. أجعـل الدنيا بوعائي فلا تفي وأحبّ أن أقصُرَ النفسَ فتأبي.فلما تغـير أبـو هريرة ورأيته يتجمَّعُ، أصبح مستحيلا عليَّ واختلفْنا.

وجاءني يوما فقـال : إنـي راحـل عنـك. فقلـت : وأيَّ السـبل اخترْتَ لي ؟ فقال : العقبة يا ريحانـة. قلـت : ومـا الراحـل بـك ؟ قال : كرهُ البيوت. - وقد كان يدخل عليَّ أحيانـا فيقلـب البصـر في البيت ويقول : لقد سكنْتُ البيوتَ من يوم خُلقْت، فلم أصـب منها إلا البابَ أعلَمُ أني أدخلُ وأخـرجُ منـه، أو الجـدارَ أعلـم أنـه

يردّني لو طلبْتُ الخروج منه، أو السقفَ أخشى أن يقع علينا. وإنَّ من الخير والشر والسعادة والشقاء لكمثل بيت نسكنه ونحن نقول: إنا وجدنا آباءنا فيه - فقلت : وكنتُ بيتاً فكرهتَه. فقال : نعم. ولو اكْتنفتِني فاكتفيْتُ بك إني إذن لجبان. وقد حذَّرْتُكِ أن تكوني جنَّتي. فإن شئت يا ريحانة أن أبقى فلتفنَيْ وإلا ارتويت. فأدركت أنه قد عاوده الجَوْس - وكان شديد الكره للنزول يرتاد ولا ينزل، ويقتله الطمعُ ويُحْييه اليأس ويخاف أن يستقرَّ الجهد وينقطع الشوق - فقلت : افعَلْ ما ترى. فقال : آخذ عصاي.

ثم خرج فإذا هو منطلق بأحد مخنَّثي المدينة.

وكان آخر عهده وعهدي.

* * *

وقد ذهب فنَغَّص عليَّ ما جاء بعده من الدنيا فلم أجد بها طعاماً بعدَه. وذهب الفجر بالأبد.

لقد كان دائم التَّوْق إلى الشمس دائمَ الخوف من طلوعها. ويقول : إن استطعتَ فاجعَلْ كاملَ حياتك فجرا.

رحم الله أبا هريرة.

# حدّث الوضع أيضًا

**حدّث أبو هريرة في آخر عهده بالدنيا، قال :**

لقد وضعْتُ من الناس كثيرا وغلبْتُ نفسي عن كثير من متاع الآخرة والدنيا، فلم يكن أشدَّ من وضعي لريحانة. وضعْتُها كما تضع الحاملُ المُعْسِر، ولو بقيت معها يوماً بعده لطرحْتُها طرْحا لا عناء فيه.

ثم قال : فأنا منها إلى اليوم أعجزُ الناس عن الحب.

# حَدِيثُ الشَّوقِ والوَحدة

« المجدود من يستنبط من بين الناس صديقا »
علويه

**حدّث أبو المدائن قال :**

لم يكن أشدّ شوقاً إلى صديق لم يُخلَق من أبي هريرة. كنتُ أقول في بعض الأيام : عِمْ صباحا يا أبا هريرة. فيلقاني بعينين كأنّهما الغيبُ ويقول : مَن أنت ؟ أو : مِمّن أنت ؟ ويمرُّ كالخيال.

# حديثُ الحقّ والباطِل

**حدّث معن بن سليمان قال :**

كنت أنا وأبو المدائن وأخي حرب نجتمع في بيت أبي هريرة كل يوم جمعة عند الظهر. فنتغدّى ونتحدث ثم نخرج عنه فنذهب إلى المسجد فنصلّي.

فدخلنا عليه مرّة فوجدناه بفناء بيته وقد بسط فيه فرشا خفيفا وجلس فأطرق وسجا. فسلمنا وقلنا وقد أدرَكْنا فيه همًّا باطنا : فيمَ هذا الوُجوم ؟ وكنا نعلمه غريبَ الأطوار ينصرف إلى ما لا يخطر ببال. قال : إني فقدْتُ السماءَ وارتدّ عليَّ الهواءُ رصاصا، ونظرت فكلَّ نظري عن مدى العين وارتدّ البصرُ ظلاما. ألا تجلسون ؟ فجلسنا وقلنا : هوِّن عليك. فيمَ هذا الغمُّ كله ؟ قال : ستسمعون خبرا غريبا. هي أختي، رحمها الله، وقد ذكرْتُها.

ثم أمر بالطعام والنبيذ. فجاؤونا بمائدة عليها لحمٌ مشوي ورطب ونبيذ كثير.فأصبنا من الطعام وصببنا من النبيذ، وهو مُمسِكٌ لا يمدُّ يده إلى رطب ولا شواء ويشرب ولا يقول شيئا.

فلمـا فرغنـا مـن الطعـام، وهـو علـى وجومـه كـالممتلِيء بكـاءً لا ينفجر، ثقل علينا وأَعْدَانَا من غَمِّه. فقلنا : قُلْها، قد ضِقْنا. قـال : هل تَعرفون للنار معنى ؟ قلنا : لا وا لله. قال : يـرى النـاس نيرانـا كثيرة. ولكن أكثر الناس لا يفقهون.وللصاعقة ؟ ولظلمات القبر ؟ ولانهيار الصخور في الجبال ؟ وللرياح العاصفات هل تعلمون مـن معنى ؟ قلنا : كلا وا لله. أيُّ شيء هذا الكلام ؟ قال :

كانت لي بين السادسة والتاسعة من عمـري أخـت لم تعِـش إلا ثلاثا. وكنْتُ أحبها حب الشياطين للشر. وكانت ذات عاهاتٍ لا تدَعُها علةٌ إلا أصابتها أخـرى. وكـانت إلى ذلـك بكمـاءَ صمَّـاء. أسألُ في ذلك فيقال : هو القضــاء. وكنـت كلمـا بكـت بكاءهـا عطفْتُ عليها وحفَفْتُها، فهي بكماء حتى عن مُطْلَق البكـاء تريـده فتتوجَّع ولا ينشرح لها. وكنت أرعاها فألهيها بما أتعلّم من الألعاب مع أترابي في الحيّ. وكانت أمي تنكرها وتقول : هي مـن سِقْـط أو عبث الأقدار. فلم تزل كذلك ثلاثا حتى نزلـت بهـا يومـا علـة ذهبـت بعينيهـا، ثـم لم تلبـث أن ذهبـت بهـا، فصحْـتُ وبكيــت وندَبْتُ وطال عويلي. وحسبته الشيطان وقالوا : هو ا لله.

قال معن : فقلت : هذا ليس فيــه مـا يُحْمِـل مثـلَ غمّـك. فـلا تجعـل نفسـك كـالجبل يدعـو الصاعقـة فـإذا وقعَـتْ عليــه ارتــجَّ وأصْدَى. قال: لقد علَّمتْني البكاء من القضاء. ثمَّ صبّ فشرب ثـم انفجر فبكى حتى رأينا الدموع في لحيته. فرققنــا لـه وقلنـا جميعـا:

رحمها الله. وصب لنا فشربنا. وما زلنا كذلك نشاربه ويبكي حتى جاء وقت الصلاة. فقلنا : نذهب فنصلي فيذهب ذلك بغمك. قال : دعوني.نصلي أولا نصلي ونسعد أو نشقى هل ترون فيه من خير أو شر ؟ ثم قال : شرٌّ ما في الدنيا أن الحياةَ عبث. بل لا أدري. لعله خيرُ ما فيها.

* * *

ثم قمنا إلى المسجد وجلس عنه يشرب فلا يُدرك السكرَ ويبكي. وجئناه بعد العصر لننظر حاله ونصرفه عن خواطره، وكان إذا وقع فيها طالت به أياما. فلما دخلنا لقِيَنَا بوجهٍ باسم وحالٍ قد انقلبت عن الكدر. وقال : ما شأنكم في الدنيا ؟ باطل أم حقٌ ؟ قلت : ألك في خمر عتيقة ؟ وكان لي منها دن جاءتني به قافلة الشام في يومي. قال : أما هذا وحده فلا. فإذا زدت عليه نارا نوقدها ونشرب فنعم. قلت : وجهنم إن شئت. قال وضحك: أنت غِرٌّ يا معن. أتظنُّ بجهنّم نارا ؟ ألا وربها لو كانت فيها شرارةٌ لذهبَتْ هباء وبطل العقابُ. إنما النار يا ابن سليمان من أمر الدنيا. ثم قام وهممنا بالباب فإذا هو يلوي ويقف. فقلنا : مالك ؟ قال : سترون. ثم صفق بيديه فأقبل غلمانُه جميعا. فجعل يسمّي كلاًّ باسمه ويقول : اذهب يا فلان، فأنت حر. حتى صرفهم وأعتقهم جميعا. ثم أقبل علينا فقال : وددتُ والله من شدة القلب ما أبلغ به كَسْرَ الحياة حتى أراها حُطاما، أو من

الحكمـة ما أقـدر بـه على اللعـب كالصبيان حتـى تذْهَـبَ أيـامي، أو من القدرة ما أُعْتِق الحياة كغلماني فتمضي.

* * *

ثم جلسنا إلى الشراب ببيتي وأوقدنـا نـاراً لظـى. فلـم يـزل أبـو هريرة يشرب عليها ويقول :

انـظـروهـا تُـرَّهـاتٍ لا تـقِـرّ    وجـهَ حـقٍّ بـاطـل لـيـس يـبـرّ
كــالـحـيـــــاة

وغيره حتى كان الليل.

# حديث الحاجة

**حدّث أبو المدائن قال :**

كان أبو هريرة سرَّاقَ أرواح. وكان من المُولَعين بالصيد. يخرج فيرمي الرميَّةَ فيصيبها فيشرّحها ويُلقي بها، ولا يأتي بشيء من ذلك إلى بيتهِ. وكانت تأتي عليه أيام يقول فيها : لِمَ حُرِّمَ أن يُرْمَى الناسُ ؟ تُقْت والله أن أشقَّ منهم فأنظر ما في أمخاخهم وقلوبهم وأحشائهم. ثمّ يقول ويشير إلى بعض عابري الطريق : انظرْ إلى هذا. إني أراه سَلَبَني حقي، يمرُّ ولا أصيب ممّا في صدره شيئاً. فأقول : وما أحوجك يا أبا هريرة إلى غيرك ؟ فيقول : لا أدري، أو لعله ضيقُ محْبس النفس الفَرْد. وقد أحسد الصبيان حسدا شديدا. أتذكر صِبَانَا ؟ كنْتُ أشهد سبَاقَ الخيل، فلا ينتهي السابق إلى القصب حتى أكون قد استفرَغْتُ في قلبي جهده وسرقت تعبه. وكنت ألاعب أترابي في الحيّ، فنكون ملوكا كملوك الروم وطيورا وسباعا ورياحا عاصفة ونستوفي جميعَ ما خلق الله. فكان يبلغ بي الودُّ والشوقُ مبلغَه، حتى لقد تشبَّهْتُ يوما ببعض قُطّاع الطريق، فتلَبَّستُ به، فلم أطلق أصحاب القافلة

إلا بعد أن عقلت رواحلهم وشددت عليهم حتى بكَوْا وعلتْ أصواتهُم صياحاً. ثم أَفَقْتُ فإذا أنا قد مزّقت ثيابَ أصحابي تمزيقا وأوجعتُ أكثرهم ضربا وشكَوْني إلى أمّهاتم.

# حَدِيثُ الطِّين

**« قلت : وما أكمل العقل ؟ قال : معرفة الإنسان بقدرته »**

**الراهب الجرجاني**

**عن أبي هريرة أنه قال :**

خرجت من المدينة وقد أخـذْت عصاي أتوكّأ عليها فأُحمِّلها ثقلي. فتصوَّرتْ لي بكرٌ من الأرض تدعوني. فطرحت من كان معي وقد كسفَتْ عنّي لذتُه. ثم أوقعْتُ بها رجلي فكانت كالخلق أو كالدهر. وهِمْتُ فلم أزل فيها كعروس ليلته حتى مضت لي أيام وأنا أطلب من الفاكهة ما لا يعرفه أحد وأدعو الكونَ أن يُعَاد وأغبط آدم وحواء. إلى أن تمّ علي انفرادي فصار لي الليل والنهار كالعبث ليس من ورائهما شيء، واستوى ليَ الزمانُ فهو كالبحر الساجي.

أو كالابد.

* * *

**رواه أبو عبيدة. وحدث بمثله ثابت القيسي. وزاد عليه فقال:**

وكان أبو هريرة إذ ذاك بكُرَاع الغميم، وادٍ ذي رمال بين الحرمين، يقال إنه كان من أرض الجن لا تبرحه المُعْصِرات المُعْمِيَاتُ إلا قليلاً، فهو شديد المراس لا يجرأ عليه أحد. فرآه به من أخبرني - وظنَّه من الجِنّة - قال: رأيته وقد أقبل على رسم يلعنه ويلعن القرونَ الخوالي ويتفل كالشيطان. ثم أنشأ يجيل بصره في حيرة الفاقد صاحبه. ثم عمد إلى مكان فاضطجع.

**قال ثابت: فذكرت الخبر يوما لأبي هريرة وسألته فيه فقال:**

نعم. وقد ضِقْت يومي ذاك، فطلبت فرجةً، فقلت في آدم وحواء رثاءً وجئت به نساءَ حيٍّ كانوا بالوادي. فأَبَيْنَ أن ينحن به وقلن: هذا أبرد ما رأينا من الرثاء. أنت أحمق. فقلت: نعم. ونُحْت به وحدي، فلم أجد وا لله أبردَ منه. وضحك أبو هريرة. قال ثابت: لعله يريد حيّا ونساء من الجان. أو لعله أنشأ الخبر إنشاءً دون مطابقة. فقد كان أبو هريرة لا يخطئ أمرا مما يُغَالِطُ فيه، يُصيبُه فيغالط به، كأنما يكره أن يبوح بباطن سره أو يعْلَمَه أحد، حتى اشتبه أمره على الناس. قال: فقلنا له: وما كانت حاجتك إلى رثاء الشيخ والعجوز؟ قال: لأنهما كادا يعلماني جهلهما الدنيا وبِكْرَ السبيل. فلما فقدتُهما عادَتْ تقودني السبلُ المسطورة، ووقعْتُ في سابق قصتي ونفسي، وكنت أريدُها عذراء لم يطأها واطئٌ، فإذا هي عجوزٌ فاجرة.

* * *

**قال أبو عبيدة - ولم يروه ثابت :**

قال أبو هريرة : وجلست ذات يوم. وكان زادي قد نفد من أمسي والهاجرةُ قد نشرَتْ جنَّتَها على الأرض، فأنا في صفاءِ الضحى لا يشوبها غَيْمٌ وضياءِ النار. وكنت بوادٍ رماله كأمواجِ السراب يركبها البصر فينساب وتكاد تشفّ. فما مضت لي ساعة في اطمئناني حتى همسَتْ ريحٌ بمثل نجوى الإنسان. ثم قوَيتْ فذرَت الرمالَ فخفقَت لها على الأرض كثوب خزّ. ثمّ زفرت فذهبَت بها كألْسِنَة الأفاعي. ثمّ اشتدتْ وزفرت فهي تمُور كالبحر. إلى أن كشفَتْ لي عن رسومٍ بالية فيها جمجمةٌ بالية. فذهب ذلك بوحشتي ونَزَع فرحي وقلت : ما طلب الوحْشَةَ طالبٌ إلا استيقظ له رسْمٌ دارس. فكأني أجده بقلبي. وكرهته فهممت أن أنصرف. وكنت خرجت لأمحو قصتي فإذا هي فيَّ من قَبْل آدم لا تَّمحي. ثم انتشرتْ خواطري فاضطجْعتُ فأغفيت.

* * *

فرأيت في منامي رُؤْيا لم أر قط مثلها حماقة وغرورا. رأيْتُ بلدا غريبا أهله حيناً كالنمل وحينا كالفِيَلة، وهم يعجنون طينا ويجعلون الحجر على الحجر فيشدُّونه به فيتّخذون صروحا. ومن بينهم جماعة يغنون شعرا يُوقِّعونه على أحجارهم يرفعونها :

العقل ردي ... والفكرُ سَقَمْ
والروح صدى ... روح العدمْ

والفعـــــــلُ بَقَـــــــا والجَهْـــــــدُ سلَـــــــمْ
فلـــــــنبن بنـــــــا يَنْفِـــــــي العـــــــدمْ

ومرتّل يتلو بقراءة حمزة :

"يا أيها الملأ ما علمْتُ لكم مـن إلـه غـيري. فـأوقد لي ياهامـان على الطين فاجعل لي صرحاً لَعَليِّ أطَلع إلى إله موسى. وإني لأظنه من الكاذبين".

فيردّون عليه ويدخلون فيه من لجتهم حتى كأنّهـا دويُّ السـماء ترتجّ : " فكذَّب وعصى - (بنضلدَلّمْ) - ثم أدبر يسـعى - (بَنْهَـرَ تَلْغَمْ) - فحشر فنادى - (بَرْآ نهنْدمْ) - فقال أنا ربكم الأعلى".

فلما استيقظْتُ قمْتُ إلى أحياء العرب.

فبقيت فيهم سنتين.

* * *

**قال أبو عبيدة :**

و لم يذكر أبو هريرة معنًى لِمَا ورد ثِنِيَ الآيـة مـن الـبربرة، تـنزَّه كلامُ ربي عن رطانة العَجَم. وإنما هو الشيطان في النوْم أَلَمَّ.

# حديث الكلب

**حدّث كهلان -وكان من صعاليك العرب وشدَاد لصوصها- قال :**

إني لعلى بعض الطرق أنظُر حيًّا أو قافلةً أصيب منها إذ أشرفت عليّ قافلةٌ كأنها ثعبان. فهي في عِدَّةٍ لا أقدر عليها. فقلت : أُرجئها إلى الليل. ثمّ ركبْت ونزلت فقلت : ضالٌّ يسترحم. وعانقت أوّل مَن لقيتُ منهم ودفعْتُ الدمعة. فرقّوا لي وانهال عليّ الطعام والشرابُ وكنتُ ممتلئًا فتحمّلتُ ما لم أتحمل مثله قط. ثم سرنا وأنا أطلب في صحبي والعير والبضاعة مقتلاً أصيبهم منه. وكنّا في سنة نزلت بالناس ففرُّوا لها فرارا وتعاقبت أحياؤهم في اضطراب الوالهة الثكلى. وكانت القافلةُ لا ينامون إلا وعلى العير والمتاع رقيبٌ. فلما جاء الليل وقام رقيبُهم صبرْتُ عليه إلى أن خفق الليل ووقع بعينيْه رشاشٌ من النوم. ثم اخترتُ من الإبل خيرَها وركبْتُ وسقته. فما زلت أكدّه سيْرا حتى نجوت. وكنت على مسيرة يوم من أحبّ مكامني إليَّ. وكنت أريده. فما زلت ألحّ على فرسي والجمل حتى كانت الهاجرة واحتدّ عليّ حُمّى الشمس فالسماء حديد.

فأنا إلى كِنَّة من جبلٍ إذ سمعتُ هاتفا وراءَه يئـنّ. فقلـت : بقيّـةُ حيٍّ قضى نحبه أو رائدٌ حاد عن سبيلهِ فهلك. ثـم قلـت : أَرحَمُـه فأصيب فيه ثـوابَ المُغيـث. فمِلْـتُ إليـه. فلمـا أشـرفْتُ إذا رجـلٌ مستلق والوهج يأكله أكل الحسـناء للعفّـة. فبـادرْتُ إليـه وأقبلـتُ عليه أقيمه. فكأنَّ الرجلَ لم يَرَني. فصحت به : هـات يـدك فقـم. فلم يحرّك يدا ولا طرفت عينه. ثم إذا هو استوى فصاح كمَـن بـه مسٌّ : أَوَ هكذا يَزْني الدهرُ بالأمل البكْر ؟ سر يا هذا ودعني فقـد وقفَتْ سبيلي. فأردت احتماله فاستلقى وهمس كالمُذْنِف انقطعَت أنفاسُه: دعوني يا أَوْضعَ من وهاد، يا أَضعفَ من عبـاد، يـا أحقـرَ من بعوض، يا بـني الإنسـان. وارتعـد ارتعـادَ العريـان في يـوم قـرّ. فقلـت : لا تُفْعَـل الحسـنةُ بمـن يردُّهـا. وقلـت : يرحمـه الله. ثـم رجعت فقِلْتُ وانصرفت.

* * *

فما سرتُ سـاعةً حتـى لقيـني نَفَـر علـى رواحـل مزْبـدة، وهـم يُجهِدونها كأنَّ على أثرهم يومَ الدين. فاسـتوقفوني وقـالوا : هـل أصبت في طريقك منفرداً كالتائه ؟ فأخبرتهم بخـبره. فقـالوا : ذاك أبـو هريرة. مـا الوجـه إليه ؟ وكنت سمعْتُ خـبره وأنـه مـن سنة أو سنتين يطلب حملَ الناس على مذهب غريب ويقـول ليـس مـن شأن الإنسان الفناءُ والصبر. ويضرب الأمثال ويذكر العـبر. فيهـزأ به الناس ويتبعه الصبيان. ثم سمعـت أنـه تغيـب عـن أعـين النـاس. قلت: إني منطلق بكم إليه. وذهبنا سرعانا.

وسألت النفْرَ ممّن هم، وكانوا ستّة وسابعهم كلب كأنَّ لسانه قطعة من نار. فقالوا : لقد أسقط عنا أبو هريرة أنْسابَنا فنحن لا ننتسب. فتركت كلامهم، وسرنا حتى وقفنا عليه وهو لا يزال مستلقيا كالخَلَق الطريح، وقد فنيَتْ في عينه الدنيا. قلت : ما نصنع بالرجل ؟ قالوا : نحتملُه إلى ماء وظلٍ قريب. وكانَ في كلامهم حيرة. وكنتُ عالماً بجميع مياه المكان. فقلت : أنا لذلك. واحتملتُ أبا هريرة، وكان قد ذهب عن الحسِّ ذهاباً، فهو في خفة غريبة كأنه الروْح. ثم أردفْتُه وأشرتُ إليهم فتبعوني والكلب بين أيدينا كخفق السراب. وذهبت بهم حتى نزلنا بئراً مِيّهة عاديَّة عندها صخورٌ مبثوثة كهام الأوَّلين. وكنتُ جعلْتُ عليها عريشا واتخذتها كِنًّا وَمَكْمنا إذا أصبت فيْئاً أو سبْيت سبيّة. فجعلت أبا هريرة تحت العريش وقلت : صاحبكم تكاد أن تنضبَ رُوحه.فعجِّلوا بمائه وطعامه فإني أراه لم يطعم شيئا من أيام. وألقيْتُ دلوي فأخرجت ماءً كالبرد. ثم سقيناه ففتح عينيه، فأطعمناه وهو لا يقول شيئاً. ثم أخذَتْه الحمّى فدامَتْ به أياما. وكان الكلب لا يبرح جانبه وهو في لهاثٍ كالمَدِّ والجَزْر. وبقينا كذلك أياماً، وكانت تصيب أبا هريرة عند هاجرةِ كلّ يوم نوبةٌ شديدةٌ يهذي لها فيقول : فرعون أم الله ؟ أو يقول : يا أوضع من وهاد... ويعيد كل ما سمعته منه يومَ وقعت عليه. فكنا نصبر له ويبكي أصحابه حتى كأنهم نسوة ويقولون : ماتَ سيّدنا.

* * *

وسألت النفر عن أمره فقالوا :

كنَّا من شدة السَّنَة في مثل لهاثِ الكلب، نطلب القوتَ بالسيوف ونكمن للقوافل والأحياء ويُكْمَن لنا ونُغِير ويُغار علينا. حتى ذهب منّا ومن أعدائنا. واطَّلَع علينا يوماً بعضُ أحياء بني مرّة - وكنا قد حملنا امرأةً وطفلين إلى الحفرة وأكلْنا إبلَنا ولم تبق لنا إلا الأفراس. فنحن إلى عاجل الثُّبور- فأغَرْنا حتى طرحناهم كالعناصل. ووقعْنا على الرحال والأحمال. فلم نُصبْ منها إلا نَوَيَاتٍ هزالا مُصَّت مراراً. فكأننا قتلْنا مَيْتة.

وبقِينا كبغل الطّحان نُحوِّم ولا ندري المصير. فإذا أبو هريرة طلع علينا بكلبه وعصاه فأقبل على الجُثَثِ فجعل يحثو عليها الترابَ ويحثو كلبُهُ حتى وَارَياها جميعاً. ثم وقف فبكى وصلّى وسجد كلبهُ. ونحن ننظر إليهما وليس فينا من يكلمه ولا يقدر على الكلام. ثم أقبل علينا وقال : أتعجبكم جُثَثُ القتلى تفوح ؟ أيُغنيكم الموت ؟ أم تفعلون ما لا تعلمون ؟ ثم أَوْمَأَ فقمنا إليه. فسار حتى وقف بنا على أحد قتلانا. وأزاح التراب فإذا وجهُ حسناء كأنها النور. وقال : وقد جعلْتمُوها ظلاما. ثم حثا عليها التراب وقام وهو يبكي.

* * *

وحدَّثنا وحدّث الحيَّ حتى طابتْ لنا الحياة. وقام يهدينا حتى نزل جنات ووديانا طاشت عنها أعينُ الناس فهي على وجه

الأرض وكأنَّها من السماء. ومكثْنا عليها أياما نصيب من الفاكهة والريحان، عنبا وتفاحا وتينا ورمانا وَعَبْهراً ونسرينا. ثم جاءنا فقال: أَطِبْتُم نفوساً لغير القتال ؟ قلنا : نعم. وقلنا : أنت سيدنا. فقام بنا إلى الأحياء نعترضها فنستوقفها فيقوم فيَخْتَطِب فيقول : إن الجهاد قائمُ السيفِ بينكم يَزْقَر كالصخرة الظمأى ويُوري الفتنَ الصماء. فهي عَليكم كقِطَع الليل أو كَعنيد السَّيْل سوداء. وأنتم مسلمون راضون ؟ وا لله إنها لمن المعجزات. إن الذئاب تلبّست بدمائكم فأعَارتْكم وحشةً وظمأً وجُوعا، وأنبتَتْ بأفواهكم أنياباً حديداً. فتآكلْتُم وتقاتلتُم. فلا القتل أَرْوَى ولا النهبُ أشبَع. وا لله إنها لمن المعجزات. تُفْسِدون وتهدمون وتجعلون ما خلق ا لله دمارا، وأنتم لا تعلمون ما تطلبون. ألا إِنَّكُم فؤوسُ الخراب. أفلا تستَحُون وترعَوُون ؟

أو يقول شبيهاً به ثم يسكت. فيصيح الناس : كلامك لا يغني من جوع. فيشير إلينا فُنمْطِر عليهم مما احتَمَلْنا من الفواكه والتمر والبُرّ والرند والريحان. فيُقْبِلون عليه رُكَّعا وسجودا. فيعرض ويقول: كذا أنتم، شرٌّ ووهن. وا لله إنها لمن المعجزات. ثم نقوم بهم فنُنْزِلُهم الجنانَ والوديان.

* * *

ثم عادت الفِتَن ونشأ الحسد بين أهل الجنَّات. إلى أن أمسى أبو هريرة فلم يصبح. ولم يفتقدْهُ من الناس غيرُنا. وطلبناه أياماً فلم

نقف عليه. ومضت شهور. ثمّ جاءنا الكلب فقفوناه. وها نحن بين يديه وهو كما ترى.

ثم يعود إليهم البكاء.

* * *

قال كهلان : وأقمنا على ذلك أياما. حتى خفّ عنه الداء. فقال لأصحابه. دعوني وعودوا إلى الجنات والوديان، فقد تفتقدكم أمٌّ أو عَدُوٌّ. فانطَلَقوا انطلاق الجسد برحَتْه الرُّوح وبقيتُ وأبا هريرة وكلبَه. ثم إذا هو دعاه فقال ومسح على رأسه : وأنت أيضا يا حبيبي لو انطلقت لكان خيراً. فانصرف الكلب وهو يعوي. فلم نزل نسمعه عند العتمة وعند الفجر. فهو إلى اليوم يعوي ثلاثاً عند الغروب وثلاثاً عند الفجر، وتسمعه القوافلُ والأحياءُ ولا يراه أحدٌ في ليلٍ ولا نهار. وكان أبو هريرة يقول : هو أيضا يُؤلْمِه القضاءُ فيبكي. إنه يعوي شأنَه في الحياة حصيراً بما قُدِّر له. ذاك أنين المريض أو ثورة الُمتمرِّد.فأقول : وما تعلم الحيواناتُ من حظِّها والقضاءِ ؟ فيقول : لعلها تشعر منه شعورا فتوجَع توجُّعاً لاندركهما ولاَ نفقه منهما شيئا.

# حَدِيثُ ٱلعَدَدِ

**حدّث كهلان قال :**

لما ذهب أصحاب أبي هريرة والكلبُ خلَوْنا. وكان لا يزال على بقية من مرضه تباطأت به. وكنت على رأسه لا أبرحه. فكان يحدثني حديث الميت يُبعَثُ كرها ويتوق إلى موته. فسألته يوما في شأنه بين الناس. فقال : عشتُ في الناس ثلاثين. فلم أر والله في واحدة منها إلا ذئباً ينهش ذئبا أو صاديا يشرب فيشتدُّ صداه. ولا خير في الوحش ولا خير في النفوس الصوادي... والأرضُ في ذلك تنشيءُ وتعيد. ثمّ انطلق به الفكر وكان كلما انتشر في خواطره سجا كالبحر وشاع كالدهر وامتدّ. فكرهت أن أسأله ولزمت صمتي حتى عاد إليه الكلام فقال : أتحب أن تسمع خبر هؤلاء ؟ قلت : نعم. وخبرَ من عرفتَ جميعا. قال :

منهم قوم هؤلاء الستّة. وليسوا من شأني. أدخلْتهم وكثيراً غيرهم جناتٍ ووديانا فسجدوا لي ثم نظرتُ فإذا النعمة ترشح بالشر والكُنُود، وإذا هذا يفترش عرض ذاك وذاك مائل النظر إلى امرأة أخيه وآخر يجيل يده كلَّ ليلة في متاع جاره وذويه. و لم

يلبثوا أن نسُوني. ألقى الرجلَ منهم فيقول : من أنت ؟ فأقول : أبو هريرة. فيقول : ومَنْ أبو هريرة ؟ أقول : أنا. يقول : ومن أنت ؟ فهم في نميمةٍ وخديعةٍ وسرقاتٍ وغدرٍ وجحودٍ للنعمة وقلة وفاء. وإنما كان لي شأنٌ مع غيرهم.

ثم قال :

إنه يا كهلان إذا كره المرءُ الحصْرَ والقَصْرَ طلب كثرةَ اليمّ واشتاق العدد. خرجْتُ أريدُهم على البناء وأن يتعاونوا ويطلبوا الشدّةَ والبأس. فقلت : رحيلكم فرارُ الجبان. ألا تستحون أن تكونوا كالريح ؟ ثم نظرت فإذا هم في سنة متخاذلون مُتآكِلونَ، وعلى ذلك يُصلُّون ويدْعُون الاستسقاءَ وربَّهم، ويُسبِّحون أسماءه الحسنى. فقلت : ابنُ آدم يقتضي الرحمة. ودعوتهم إلى جناتٍ ووديان وأعنابٍ مهدَّلةٍ من لؤلؤ ومرجان وتين وتفاح ورمان وماءٍ مُسْتَراحٍ وريحان.وقلت : كلوا واشربوا. فلما شبعوا قمت فقلت : أطابَتْ لكم ؟ فقال قائلهم : يا أبا هريرة جُعْنا. وقالوا : دعانا داعي الرحيل. قلت : كَأنهم مثلي، لكن هيهات. ثم خرجت بهم إلى صحراءَ بيداء سماؤها خلاء. فتاهوا بها وصرفوا بأنيابهم واستحال الطعام فتآكلوا حتى ذهب أكثرُهم وبقي نَفْر منهم صاحوا : يا أبا هريرة طعامُنا زقّوم. و لم يعمد أحدهم لأخيه فيأكُلَه أو كرهوه وقالوا : غيرُك لا يغنيك من جوع. ثم عمدوا إلى أنفسهم فنهشوا أيديهم وأرجلهم نهشا حتى ذهبت أفواههم وأنيابهم بأجسادهم جميعا كالنار تأكل النار. ثم قامت هامهم

فهي إلى اليوم في التّيه هناك يُسمَع لها كحفيف الحيَّة وكنقيق الضفادع ليلا وتضوُّرِ الذئاب نهارا. قلت وارتعدتُ : لا يجدون في فَنَائهم ما لم يجدوا في الحياة.

وقلت : إنه لا يشْبَع مَنْ روحُه الجُوع.

* * *

ثم قلت : لعلي أجد في بعض الناس مكتفيا لا يزدادُ جُوعُه للطعام وصداه للشراب. فعدت فأقبلتُ على أحياء أخرى ذليلةٍ مستكينةٍ عليها أميرُ عُرُدٌّ مستبدّ. فدعوتهم إلى نخلٍ معاجيلَ كارعاتٍ وأنهار جارياتٍ وأفنان وظلال وإطلاق حال وخيراتٍ جزال. فلما أمرعوا قمت فقلت : أطابت لكم ؟ فصاحوا كلهم : قد أمرعنا وطاب المُقَام. وتوسدوا الظلال فناموا. فقلت : كذا أنتم وا لله، لا تعرفون إلا الإسلام. وأنكرْتُه فصحتُ : أيها الملأ اسمعوا. إني وجدتكم كالكلاب على جثة عفنة، تأكلونها نظراً وتتلمَّضُون لها شفاهاً ولا يقربها أحدكم إلا ذهبت به أنياب سيِّدِه أو أخيه. وكنتم في شدّةٍ فأخرجْتُكم منها وجئت بكم هاته الجنات والوديانَ. فرأيتكم عليها كمثل شيخٍ ذي وقار على يهودية عجوز كأنها الإثم أريد فلم يُدرَك، تحدِّثُه وتسقيه وفي عينيها رحمةُ الشيطان لآدم. تكتفون بالصَّدَقَات وتنامون. والنعمة لا تدوم بالعطاء وما أهل لنعمةٍ مَنْ كان رخا. أفأنتم راضون ؟

هاته الأرض نحن خَلَقْناها. وهاتـه السـماء نحـن نَصبْنَـا عمادَهـا فأقمْناهَا. فهل ملكتُمْ من خيراتها شيئا ؟ – لقد قالوا عنكم : ليس لهم إلا جَزْلة من رغيف ولُعْبة تلهيهم كالصبيان. وحجبُوا الشمس وفيها لكم نورٌ به تهتـدون، وأمسـكُوا العيـون وفيهـا لكـم حيـاةٌ، وذبحوا عنكم البقرةَ الصفراء. وقالوا : ما يولـد منكـم اليـوم، غـداً نأكلُ جهده ونمتصُّ دمَه. وما حرثتم اليوم، إلى أفواهنا من السـاعةِ سنابلهُ. وقالوا : نساؤكم لنا إمَاء وأرواحكم مرْعَى أيّها الضعفـاء. ثم ألقوا لكم بعظام مُقشَّرات هزال. فجثوْتُم على الرُّكَب تُصلُّون. وقلتم : طاعةً وحمداً يا أولي الأمـر فينـا. فحشـروكم فـألقوكم في الأصفاد. أفأنتم راضون ؟ أما آن أن ترتَفِعُوا إلى الشـدَّة والبـأس ؟ ألا تُوقِدونها حمراءَ ليس يردُّها جان ولا إنس ؟

و لم أزل بهم حتى رأينا الجبال من حضرموت والسَّراة إلى طـور سـنا سـارَتْ وعلـى رؤوسـها السُّـحبُ وسـبيلُها فَلَـقُ الـبرق. فاستدارتْ في السماء دويًّـا وانشـقَّتْ وانفطَـرتْ فتطـايرَتْ قِطعـاً كالرَّعْد كَأنَّها تريد السماءَ أَنْ تجعلَها أشلاءً. ورُجَّتْ بنا الدنيا فإذا نحن كتائبُ وقد أزفَّتْ بنا السـيوفُ زفًّـا. وفِضْنـا أمواجـاً مُرْعِـدةً على الأنجاد والأغوار. وانتشرنا كالليل فوقعْنـا علـى الشـام وأثَرنـا بتهامةَ نَقْعاً وأصبْنَا اليَمَن وامتدَدْنا إلى العَروض وعِثْنا حتى تركْنَاها دماءً. وكدْنا أن نطمس كلَّ حي فلا نبقي ولا نذر.

*** 

ووجدتُ في الفعل كمثل سكرة الخَمْر وحسبْتُه من العدد وخِصب الكثرة.

* * *

ثم أغرنا يوما فقلْتُ : أَغيروا ولا أقودكم. فأَغاروا فانهزموا. فهم كمثل قوم تقول : ابْتَنُوا. فيقولون : نُحبُّ أن تنفخَ في البناء وأن تقولَ ما نبني. فتقول : كسِّرُوا الجبالَ وأَقِيموا القصر والصرح. فلا يقدمون ويقولون : إنَّا وجدنا أنفسنا عُمْياً كساعدِ المقطوعَةِ يدُه. أفلا تجْعَلُ يدَك مع أَيدينا ؟ فتجْعَلُ فيبْنُون شيئا ثم يُعيُون. فهم كأعْجَاز نخلٍ هاوية. فلمَّا خاروا همَمْتُ أن أفعل بهم ما فعل أبو رغال بقومه. ثم قلت : إلى أَيْنَ أيتُها الشِدَّة الكاذبة ؟ وانقضى نَحْبُ عزمي فصِحْتُ : دعوني أيَّتُها الأجسادُ ليس لها روحٌ غيرُ ما سَلَبْن من روحي. وبقيتُ وحدي على جَهْدي وتَوْقي.

هذه يا كهلان قصةُ الطالب الكثرة. جئتُهم فسألْتهم روحاً فإذا هم أفرغ من نفخة إسْرَافيل وإذا أنا في وحشَة القطرة من النَّدى تُغَنّي على الغصن صباحاً. وها أنا على صداي. أسمعُ حفيف الحيَّة ونقيقَ الضفادع ليلاً وتضوُّرَ الذئاب نهارا.

قلت : وعواءَ الكلب يا أبا هريرة أيضا، ليلاً ونهاراً.

فقال : نعم وعواء الكلب أيضا ليلاً ونهاراً، حتى بعد موتِه وعظامُه رميم، وفاءً لا يعرفه الإنسان.

* * *

ثم قام أبو هريرة فأخذ عصــاه وقــال : ارحَمْهُـمُ يــا كهــلان ولا تُوْمِنْ بهم.السلام عليك يا حبـيـبـي.

وانطلق فكأنّي به ضمَّهُ الأبد.

# حديث الجماعة والوحشة

**حدّث هشام بن حارثة عن أبي عبيدة قال :**

افتقدْنا أبـا هريـرة في بعـض دهـره أمـداً طويـلا وانقطعـت عنـا أخباره، حتى ساء ظنّنا بمصيره، وقلنا : إنْ كانت ألـمَّتْ بـه وفَاتُـه فيرحمه ا لله. وكنا نتذاكره وترقّ قلوبنا ونجده في قرارة أنفسنا أُنْساً حـاضرا وإن ضـاع شـخصه. وكـان كثـيراً مـا يقـول لنـا في خـير ساعات عشرتنا وحال انبســاطه للدنيـا : إنمـا بهـذا الأُنـس وهـذه الألفة والمحبة صوّر ا لله الإِنْس إنساً ومتعة.

ومرَّت أحقاب. ثمّ إذا هو عاد من غيبتِه الطويلة وتيهه في أحياء العرب، فطلع علينا أشعثَ مغباراً قاسيَ الوجه أليماً، حتى كدنا لا نعرفه. فعطفنا عليه نسأله في أمره وخافية مـا ظهـر لنـا مـن بؤسـه ويأسه. فيقول أحدنا : يا أبا هريرة من أين عليك كلُّ هـذا ؟ لقـد امتلأت قلوبنا شفقةً عليك ورقة. فيصيح فينا ويلوي : إليكم عـني يا أبناءَ النُّكر يا بني الإنسان، إن شفقتكم لعنة. وا لله لقد عاشـرت واستأنست أشباهكم كثيراً، وحسبت أن في العشــرة سعةَ النفس واليُمنَ والنعمة، فما كان منه إلا خـلاءُ الخيبـة ووحشـة الوحـدة،

وارتدَّتْ إليّ نفس ضيّقة حسيرة، وضل عنّي كياني. وإنَّ ذلك لهو القنوط الأشقى : أنْ تُغْرِيَ عِشرة الجماعة بظاهر البركة والطهر والكثرة، فتنكشف شرًّا ونجاسة وعُقْماً وشقاوةَ وحدة. كإغراء الآل في قيعة.

وكان يقول وهو يختلج كأنما أخذته الغصّة.

قال أبو عبيدة : ولم يزل أبو هريرة من ذلك العهد كالنافر من الناس، لم نرَ له قط بعدها عطفة. فكأنّه مات في باطنه بعضُ ما يكون به الإنسان إنسانا أو عميَتْ بصيرة. وكان ذلك أول انحداره إلى نحبه.

# حديث العمى

﴿ فَأَرْجِع الْبَصرَ هَلْ ترَى مِنْ فُطُور ثـم أَرْجِعِ الْبَصَـرَ
كرّتَيْـن ينقَلِب إِلَيْكَ الْبَصَـرُ خاسِئـاً وَهْوَ حَسِيـر ﴾
قــــرآن

**حدّث أبو اسحاق عمرو بن زيادة السعدي قال :**

خرج أبو هريرة مُشرِّقاً. فضرب في الأرض زمنا. ثم ردَّتْه علينا بعضُ قوافلِ الغرب كثيرَ الغبار فانيَ العصا. فَسألْنَاه في رحلته فابتسم. وقال : لو كنتم عشتُم في مستقبل الدهر لقرأتم ما سيكتبه ابن بطوطة من خرافات الصبيان. وكان يقول : لقد ماتَتْ الجهاتُ الستُّ. أو يقول : من ضاعتْ قبلتُه فليسِرْ ولا يطلُبْ شرقا ولا غرباً.

فكأنَّما ضاقتْ عنه الدنيا وفاض عنها أو وقع عليها فأَفْناها.

# حَدِيثُ الحَمَل

**حدّث حرب بن سليمان قال :**

جاءت على أبي هريرة أيامٌ كان يُسْأَلُ : يا أبـا هريـرة حـدِّثْ. فلا يكون منه إلا أن يقول، فكأنَّ لكلامه ثِقَلا يُعيـي : لقـد ضـاع عنّي وعجز الكلامُ. فهو يومئذ أملأ فأعظمُ وأبدعُ ما يُرَى وأجلُّ.

و لم يزل كذلك حتى خرجَ ففقدناه شهوراً.

# حَدِيْثُ الغَيبَةِ تُطلَبُ فلا تُدرَكُ

« فقد عرفت أن سعادة النفس و كمالها أن تنتقش بحقائق الأمور الإلهية وتتحد بها حتى كأنّها هي... »

الغزالي

**حدّث مَكين بن قَيْمة السعدي قال : حدثني هشام بن أبي صفرة الهذلي قال :**

كانت ظُلْمَةُ الهذلية من راهبات دَيْر العذارى. تنصّر أبوها في بعض عمره فنشأَتْ على النصرانية. وكانت مع حرّ جمالها نَفوراً شَروداً، تَأْبى الأُنوثةَ وتتصنَّع طبائع الرجال. فلما بلغَتْ من السن ما يطغى فيه الدمُ و يفيضُ الماء، تمرَّدَتْ فترهبَتْ ودخلت ديْرَ العذارى. فذهب لها به ثلاثُ سنوات. فهي به إذ نزل بهم أبو هريرة. فأقام فيهم زمناً. ثم انصرفا معاً وقد ارتدَّت وفجرت فأمعنَتْ في ذلك. و لم يكن فجور كفجورها نيّةً ومعنى. وكانت تقول : فجوري من الطاعة والإذعان. آمنْتُ من يوم آمنتُ

بالجسد وكفرت بالروح. ثم أَسَنَّتْ وفنِيَتْ. فاشترَتْ تَيْساً، وكانت تقول: أرتاح لنبيبه.

* * *

## قال : قال : حدثتني ظلمة قالت :

أول عهدي بأبي هريرة يومَ طرقَ علينا بالديْر وكان قليلا من يطرق علينا لمنعةِ الجبل وشدّة الديْر وعُسْره وانفصالِه عن الأرض - قال : تريد ديْر العذارى. وهو الذي على الجبل فوق أَثَايةِ العَرْج يراه الحاجُّ في طريقهم ولا يبْلغُه إلا النُّسور، ولا يعلم أحد كيف يرتقي إليه رهبانُه ولا كيف ارتقى إليه أبو هريرة ولا ظُلْمة - قالت: وكنت صاحبةَ المِفْتاح. ففتحْتُ له وسألتُه ما حاجته. قال: حاجة الفارِّ الملتجئ. فحسبته متزهِّداً مترهِّبا. فقال وأشار إلى ظله: هروبي من هذا. فرأيته يُلوِّح إلى ذنوب اعتلقَتْ به فقلت : إن كنَت تطلب مَحْوَها فادخلْ. فدخل وتقدّمْتُه إلى رأس الديْر.

ونحن بدهليز الديْر إذ قال، وقد رأى مِسْبَحتي وتسبيحي : في كم تسبيحة تعمى العين ؟ وكنت نسيت النورَ وعينيَّ لشدَّة ما كنت أصرفهما إلى الغيب. فلما سمعْتُ كلامه ثنيْتُ بصري إليه. فإذا هو من أوضح وأضوى وأحسن مَنْ رأيتُ عيناً، وإذا عينه أشدُّ ما رأيت شوقاً إلى ما لا تراه غيرُها من العيون، فكأنها تنشئ مرئِيَّها إنشاءً وكأنَّ روحه البصرُ. وكانت مِشيتُه لا تكاد تستقيم كأنَّ به خمرا أو نَصباً. فقلت : ما بك ؟ قال : سؤالٌ أطلب



رسم : الزبير التركي

... فاشترت تيساً وكانت تقول : ارتاح لنبيبه ...

جوابَه. أريد أن أعرف أيهما أصدق وجوداً الله أم الشَيطان. فقلت واستغفرت : استغفر ربَّك يا هذا وطهّر نفسك من الدنيا. فصاح: لا تستغفري ولسْتُ بمستغفر. أريد أن أعرف آنا خالقُ الله أم الله خالقي. وأردت أن أمسكَه عن كفره فأبى. وسِرْنا على شبيه بذلك حتى وقفتُ به عند رأس الديْر. فأخبرتُه بما كان من أمره.. فأقبل عليه يسأله. فكان أبو هريرة ينظر إلينا نظرة غريبةً ولا يجيب. ثم قال : الرهبانُ أينْسون ويموتون عن أنفسهم ؟ قال الرأس : نعم. ولقد نسي المسيحُ من قبلنا. إن كنت تطلب لدائك دواءً فأنْتَ أخونا.

ثم أحْمَلَنيه الرأس أُعلِّمُه وأروّضُه. فانصرفتُ به يرمي عن جَسده ثيابَ أهل الدنيا. فوجدت لثيابه ريحاً كريح الدنيا هزّت نفسي. وكأنّما أدركها أبو هريرة مني فقال : ألا تُذَكِّرُك إبلَ الحيّ تكون ضَباعاً ؟ ممَّن أنت ؟ هذا أنفُك يَرْمَع. وكان كذلك. فكرهتُ أن أجيبه. ثم لبس الصوفَ ومكث فينا ستَّةَ أشهرٍ يكدّ نفسَه في رهبنتنا. فلم ينزل من الدير إلا بي.

* * *

## قالت ظُلمةُ :

وكنت أختلِي به كلَّ ليلة في محراب أعلِّمه الإخلاصَ وأعلّمه الأدعية. فأنا به أَوَّلَ ليلةٍ إذ أقبل عليَّ وأخذ بيدي وقال : هل

بلَغْتِ من الصلاح ما تحملين معه فتلدين ولا فحل ؟ فنفضْتُ يده واقشعرَّ دمي. قال : إن لم يكنْ فالصلوات أقلُّ من الخمر جدوى. كيف تتخلَّصُون من الأجساد والأرواح ؟ قلت : نمزِّقُها تمزيقا حتى ننسى الألم. وأما الروح ففي الله والمسيح فناؤها. وكان من طريقتهم تعذيب الجسد حتى يفنى. ثم قمتُ فأتيته بسوط. فدفعه وقال : بيدي لا بهذا. وكنت أقول : دم المسيح ولحمه يمحوان ذنوب المذنبين. فيقول : ألا سبيل إلى تعليمي ما يُنْسِي ؟ ألا سبيل إلى غير المعقول ؟ علميني الحمل والولادة وسرّ توارث الأرواح أو غنِّيني وأريحيني. أليس فيكم من يحذق صنْعَ الأصوات تُحْضِر الآلهةَ وتُكسِّر الزمانَ وتُشِيعُ المحدود. فأقول : اللهم ارحمْه. ثم علمتُه دعاءَ ليلته ودخلتُ غرفتي وبكيت إلى فجري.

ولما أصبحْنا جئت الصلاة فإذا أبو هريرة قد شق لحْمَه بظفره، فهي على جسده كالخيوط الحمراء، وصوفُه مضرَّجة كجلد السليخة. ثم اختفى عنا بمحرابه. فبقي به شهرين أو أكثر لا ينفذ إليه بصيص من النور. وكنت أذهب إليه بطعامه فلا يفتح لي باب محرابه ويقول : ضعيه على الباب فأضعُه وأنصرف وأعود إليه بعد ذلك فإذا هو يصوم يومين والثلاثة لا يطعم ولا يشرب حتى خشِيت عليه. وصرْتُ بعده كالخاويةِ القَفْر وبكيْتُ كثيرا. ثم أنكرت ذلك وتمرَّدتُ فخلوتُ أياما بمحرابي، وبكيت شوقاً ودعوت خشيةً ولعنت الشيطان وأبا هريرة، وقلت : لا يغلبني. ثم لم يلبث أن وهن عزمي وكرْهْتُ لياليّ يذهب بِسكونها أبو هريرة.

فخرجت من معزلي. فكنت أجيءُ باب محرابه في جوف الليل وأقنع بنَفَسهِ أسمَعُه كنفَسِ الريح الحيرى أو بنَبرات بكائه أسمعها كالدّلو. فأبكي ويخفق قلبي ثم لا يطيب منامي.

ثم خرج إلينا فجانبْتُه. وكان كالذاهب البال، لا يكلم أحداً ولا يسأل عن أحد، ويُكْثِر من الجلوس في مقبرة الدير. ولم أصبر عنه فأَتَيْتُه، فقال : هل نسيتِني ؟ قلت : لم أستطع. قال : وتطمعين بالموت. قلت : وهل أنسَتْك العزلةُ ؟ فابتسم وقال فإذا ابتسامتُه في وجهه الناحل الشاحب كالفجر الطاهر : لا أدري. لعلي نسيتُ الألَمَ. أما اللذة فلا أدري. فكأنه أثبت فيَّ سهماً.فألقيت بنفسي وكدت أقع على وجهي، لولا أنه أقامني واحتملني إلى محرابي، وقد غُلِبْتُ غلبةً لم يكن لي بعدها شدةٌ ولا عزم. فلما أفقت إذا هو على رأسي يقول : كذا المرأة لا تكون إلا واهناً مِقطاعَ الجَهْد. فإذا همّت أو اشتدتْ بعض يوم إذا هي رماد. ثم بقينا أياما بمحرابي، والديْرُ يحسبنا نتعبّد ونبتهل وإنما كُنَّا في الشيطان. وكان أبو هريرة يقول : الآن علمْتُ وعلمتِ أن اللذةَ لا تُغْلَب. فسألته : أوَ كانَتْ فيَّ منذ الصغر ؟ قال : نعم وفيّ. قلت : وقد كرهْتُها لما فيها من تواضُعٍ إلى أمثالكَ من الخلق. وكنتُ من أيام تيقُّظي إلى محاسني ونعومةِ لحمي أدفع الجودَ بها على الرجال والوقوعَ تحتهم والاستكانة إليهم. فكنْتُ أتناساها وأنفيها حتى جاء أبو هريرة وقال : إنه لا يتناسى الجسدَ إنسانٌ إلا أكلَتْه الخيالات. وسألني : هل وجدتِ في تعبُّدك امتلاءً ؟ إذ ذاك

آمنْتُ بإنسانيتي ووجدت من حياتي مَلْأً لم أجده قبلَه واتسعْتُ حتى علوْتُ حياتي، وكنت من قبلُ خاوية ذليلةً مستكينةً مُستضْعَفة.

وكانت لنا أيام.

* * *

ثم أهْمَلني فكان لا يأتيني إلا كالمُرْغَم الكاره. فبقيتُ أبكي ويطول بكائي وكان قبلُ لربي - إلى أن اعتزلَنَا جميعاً عزلةً ثانية، وبقي أياما لا يُسْمَع ولا يُرى ولا يَطعم ولا يشرب. فلما اعتزل دعاني رأسُ الدير فقال : احذري يا ظلمة أن يُهْبطكِ الأرض. فزادني ذلك وحشةً على وحشتي وشوقاً على شوقي. ولكني كتمْتُ ضلالي وإثْمِي وأردتُ أن أبلُوَ نفسي. فاعتزلْتُ ودعوتُ صلاتي أن تُعاوِدني وربي أن يبرُز لي. فبقيت كذلك أياما أبتهل وأصلّي مُتَبتِّلةً نازعةً عن غوايتي مُنِيبَةً إلَى الله. فلم يُجْدِني ذلك أكثرَ ممّا يُجدي الطاويَ مضغُ الحصى. وبقيتُ خاويةً فارغةً وقد هوى ربّي، أُصلّي فأجد صلاتي كالشِّهْدة الهِفّ، وأدعو فإذا جوارحي ترتعد وتختلج، كأنَّ أبا هريرة قد لبسني وخلفَ الله في قَلبي.

ثم خرج من معزله. وخرجْت، فجئته فإذا هو فاتر الجسم شاحبُ الوجه منهوك ساهم مدنف فجزعت وقلت : وما كان جزاء هذا ؟ فأخذني إلى محرابي وقال : إني أقص عليك يا ظلمة

الغَيْبةَ تُطْلَبُ فلا تُدرَك. وكانت نفسه تعوي كالذئب، ولكنَّ كلامه كالريحان تذروه الريحُ فيموج ويفوح. وقال : إنه يا ظلمة إذا أقْوَتِ السماواتُ انهالَتْ على الظهر. قلت : حدثني عن الإيمان.فأطرق ساعة كالمصيخ إلى ليلةٍ من ليالي الصيف قمراء خالية. ثم قال : نعم...

* * *

كنت يا ظلمة أرى المؤمن مُرْتاحا كاطمئنان الجمال تطوي المراحل طيًّا ولا نَصَبٌ يبدو ولا شكوى ولا عصيان. فأَشْتهى أن أكون مثله وأن أعضد هذه الحيْرةَ من قلبي كما تُعضَد النخلُ العقيم. وكنت ممَّن ذهب إيمانه فجاءت حيرتُه. وليس سواها خليفةً لله في قلوب الناس. فجئت هذا الديْر وقلت : لعلّي أروض النفسَ على الإيمان.

وقد انتهى اليومَ جهادي وعلمت أن الآلهة لا تُقام إذا هوَتْ.

* * *

قالت ظلمة : فقلت : وهؤلاء يا أبا هريرة ؟ أعني الرهبان. قال : إنهم خليطٌ كُسَوَيْقاء المرَق.

فيهم الهوائيُّون عَبَدةُ الخيالات أصحاب الأحلام. الذين يريدون الأرض أن ترتفع إلى السماء والحقيقةَ إلى الوهم والذاتَ إلى الظل. وقد حدثني بعضهم يوما فقال : أَنْظرُ إلى السماء فأراها نورا والأرضِ فأراها ماء ونفسي فأراها شعاعا. ويقول : النجوم إخوتي

وزهر الأرض وسادي والشمس طعامي. هل أكلْتَ من الشمس ؟ أنا طائرٌ أو صخرٌ أو سحاب في السماء. فقلت له : فإذا تيقّظْتَ ؟ قال : لا أدري في أي بلد وقعت وليس من همّي. وطلبت مثل أحلامه، فإذا صاحب الأحلام إذا ذهبَتْ به قَتَلَ الدنيا وانقطع إلى الفوق فليس في الكون غيره وإنْ هو إلا خيال. وليس أكره من الخيال عندي.

وفيهم الأرضيُّ يلعن ربّه أَنْ ليس من طينٍ مثله، ويطلب المغالطة كالذئب يتصنّع جزّة الغنم. فكأنه يقول : يا رب نزعْتُ طيني فانزعْ روحانيتك. ولستُ ممن يحب الطين أن يرتدَّ إليه كل شيء.

وفيهم يا ظلمة الأعرجُ الضعيف النفس، يحبُّ الكاملَ السالم ويُكْبِره فيعبده، ويكره ضعف نفسه فيريد ربَّه أَنْ يُقْرضه القوة.

وفيهم صاحب الشوق يحن إلى ما يوسوس في صدره من ذكرى القِدَم.

وفيهم يا ظلمة الكَفَرة مثلك إيمانهم خدعة. وقد جهدوا أن يعلّموني إيمانهم. ثمّ نظرت إليهم يركعون ويسجدون لله ويكثرون من ذكره ويجعلونه في السماء يرفعون إليها الأبصار، فلا يذهب ذلك بشيء من كفرهم. فإن أكثرَهم يلحّون في ذكر الله إلحاح الشاكِّ أو المنكر. وبعضاً منهم يلحون في ذلك إكثارَ مَنْ ذكر الله ولمَّا يعرفْه. فلمَّا خاف أن يجده سكن اللسان. إنهم يَخْلقون ما يعبدون. ويطلبون الغيْبَة. ولكنهم لم ينجوا من

أنفسهم. بل تفرد بهم شيطان الروح وماتوا ميتة غريبة. أحياءٌ في بواطنهم نيامٌ عن الدنيا، قد اتسعت نفوسهم فغطَّتْ عليها. أولائك قوم تاهتْ قلوبهم وأعينهم وغرَّهم ما غرَّني من أمر البراهمة بالهند، يظل الرجل منهم عامَّة دهره يتعبَّدُ حَرًّا أو قرًّا ولا يُغّير من ثيابه ولا يحرّك من طرفه، كأنما ذهبت حياته وذهب جسده، فكأنه الفناء أو الاطمئنان الكامل، وليس كذلك. كذا رهبان الدير سُكونٌ ولا اطمئنان.

وقد ارتضْتُ رياضتهم وتلوت الأدعية وصلّيت الصلوات، وأمسكت نفسي أَنْ تكابرَ ا لله. فلما انتهيت فقدت نفسي. ففرحْتُ وقلت : فَنَيْتُ في ربي. وقلت هو ا لله.ثم طلبتها فإذا هي حاضرة لم تغِبْ، وإنما انقلب الشكل، وإذا روحي لغوٌ من الأناجيل وعقلي نسيجٌ من الحروف وقلبي من الظلمات وربي وهمٌ من ذلك وليد، وإذا على لساني لعنة ذي المَسْغَبة يُطْعَم الزقّوم.

ونظرت إليهم على اختلاف مذاهبهم، فرأيتهم يخدعون أنفسهم أو لا يعلمون ما يفعلون، أو يكونون أدخل من الملائكة في الروح يطلبون محَلَّ الآلهة ويقولون : لقد تألّه المسيح من قبلنا، - وهم على ذلك لا يتخلَّصون من الحاجة تُنْزِلهم إلى الغائط، ولا من الطعام يُحرِّك فكوكَهم كالإبل تجترّ، ولا من شهوة يركَب بعضُهم بعضا، فقلت : سحقا لآلهة كالقردة أو كالحمير. وقلت : سحقا لرهبنة لا تكون إلا تألُّهاً مستحيلا أو غروراً مؤلما.

ثم خرجْتُ عنهم وعنها.

* * *

**قالت ظلمة : فقلت :**

وقد أخرجْتَني. فإذا للجسد مسٌّ الجديد المُعاد الخلـق. فلـم يقـل شيْئاً وضمني إليه.

* * *

ثمّ هبطنا الأرض.

# حديث الهول

« إذا كان الموتُ راصداً فالطمأنينةُ حمق »
**ابن عبد ربه**

« ... واصحابي من غدٍ إن أقبلا   ورفاتي هامةٌ تعوي بقاع »
**عمر الخيام**

## حدّث حرب بن سليمان قال :

إنَّا لعلى بعض طريق الحاجّ نقضي مناسك الحج - وفينا أبو هريرة، وهو يومئذ من عمره في مطلع الفجر، يُصلّي فكأنَّما يلهو، ويدعو فكأنَّما يُغنّي - إذ مرّتْ بنا جنازة. فقمنا لها فإذا أبو هريرة قد أَرسلَ ضحكةً آذن بها الناس جميعا. فأخذْتُه من طرف ثوبه. فإذا هو لا يتمالك عنها، فهي تهزّه هزّا.

ولم يُتِمَّ الحج إلا وهو كالساهي عمَّا يفعل.

# حدِيث الشَّيطانْ

**« ما من أحد إلاّ وله شيطان... »**
**حديث نبوي**

**حدّث ابن مسلمة السعدي قال :**

كان أبو هريرة كالماء يجري. لم نقِفْ له في حياته على وقفةٍ قط. كالمستعدِّ إلى الرحيلِ لا ينقضي عنه الرحيلُ.



رسم : الزبير التركي

... لم نقف له في حياته على وقفةٍ ...

حديث الشيطان

# حديث الحكمة

**« اعلم أن اليقظة التي هي لنا بالحسّ هي النوم. والحلم الذي لنا بالفعل هي اليقظة »**

**أبو حيّان التوحيدي**

**حدّث أبو هريرة قال :**

تهت في بعض حياتي وضللتُ السبيل. فكنت أضرب في الطريق تطرحني هذه إلى تلك ولا غاية أطلُب ولا أملَ يُحْيي. وكان قد بدأني الشك فكنت أقبل على الشيء أو الأمر فلا يملكني إلا ساعة. ثم يغور همّي فيه وتنصرف نفسي إلى غيره. ثم ازدادَ فكنت لا أكاد أهُم بالشيء حتى يَسقُط همّي، فكأنَّ العزم ذوْبٌ شتات لا يجتمع لي. إلى أن أصبحت أهُمّ بالشيء وعكسه، والفعل والقعود عنه همّا واحدا، وأشتهي لو اتفق لي النورُ والظلمة، أو النوم واليقظة، أو الشك واليقين معاً. وبقيت كذلك أياما طوالا لا أعلم ما أصنع حتى كدت أجنّ. ثم مرّت الأيام فاستقَرَّ واستأنَسْتُ. وقلت : ما الدنْيَا ما هي حتى تذهب أنفاسُنا فيها ؟

وما الآخرة وما هي حتى تذهب فيها دنيانا ؟ ثم أعمل فلا يكـون لإنسٍ ولا الهٍ ولا جان ولا يكون كفرا ولا إيمانـا ولا صلاحـا ولا فساداً. وقلت : لم يبق إلا أن أطلب ذاتي مُطلقاً وماهيّـتي وأُعْرِض عن المحمول واللاّحق والعارض.وكذلك ذهبَتْ ساعتي في ساعتي وعزمي في عزمي، كالنور يأكل النور أو كالشمع يضيء فيحترق. حتى لقد ظننْتُ أنّ الناس لا يجدون لي أثـراً إذا مُـتّ. وألـحّ علـيّ داعي الأوساع إلحاحاً، واقتضاني الصفاء.

* * *

فلما تطهَّرْتُ أقبلتُ على البحرِ.
فهالني البحرُ.

* * *

وإنـي لفـوق البحـر يومـاً علـى جبـل مشـرف إذ جـاء رجـل كالناسـك فجلـس بقربـي وهـو مطـرق سـاكن كـالبيت الحـرام. فأقبلت عليه أتأمله فـإذا هـو في عظمـة الفيـل وعليـه سمـة الحكمـة والجلال. وهو في ذلك كله لا يقول شيئاً. ومضـت لنـا ساعة ثـم قلت : إن كنتَ ناسكاً فالسلام عليك. قـال : لسْتُ. وعليـك السلام. ما الذي لك في البحر ؟ قلت : شيءٌ مـن الروعـة. قـال : كذا عبيـد ا لله جميعـا، علـى خسـة البحـر. أنـنزل فندخـل المـاء ؟ فنشطْتُ وقام فسلك بي مُنحَدَراً بين الصخور الهاوية كأنه السراط لم أر مثله منحدرا شديدا. ونزلنا إلى الماء فإذا الرجل يغوص فيسير

في الماء غوْراً فينساب على القعر كالثعبان ثم يطفو كالذكرى، وشَعَرُ رأسه يسيل على وجهه. ثم يتوسّد الماء ويضطجع على جنبه ويندفع يطوي الأمواج طيا فهو أمهر مَنْ عرفْتُ سبْحَا. وأخذ من أمره مأخذه ثم عاد إليَّ فقال : أَلَكَ في أن أعلّمك ؟ قلت : نعم. على قِصَر أنفاسي وقلة بلائي في الماء. قال : لا بأس عليك من ذلك. ثم ضرب إلى عضدي وساعدي وقال : هذا محال أن يأخذه الشك. وكان يقول : السباحة أن تتوق إلى البحر ويتوق إليك. ثم لم يزل بي حتى علِمْتُ الماء كيف يُكثر القوةَ والنفسَ ويُوقّع في الأعضاء رقصاً.وكنا نغوص فنسير معاً فكأنّنا في سعة البحر.

فلا والله ما رأيت مثلَه مَذْهبةً للشلل.

والرجل في ذلك كله لا يحدثني بشيء من أمره ولا يخبرني بشأنه. حتى جاء الخريف وقد طابت لي صحبته.

* * *

فلمّا أخرفْنا سألته فقلت : ما خبرك وما شأنك على هذا البحر ؟ قال : شأنُ كلا شأن. فيم السؤال ؟ إن السؤال من علل الإنسان. أتحبّ القصص ؟ قلت : نعم. قال : وتفهمها ؟ قلت : لا أدري. قال فهي قصة الحكمة. وأنا قَاصُّهَا عليك.

كانوا يسمّونني أبا رغال. أما الآن فلا اسم لي. قلت : مررت على قبر بالطائف يقال هو قبر أبي ثقيف أو أبي رغال. قال :

نعم. هو قبري وقد مرّ عليه رسول الله. وكانوا يقولون : أنت سيدنا وخليفة الله فينا. فقلت : إنّهم جعلوني عليهم ملكاً مُطلَق الفعل. فاللهمّ أَوْح إليَّ من روحك. وبقيت في انتظار الوحي فلم ينزل. وتعلَّمْتُ الحكمة. قلت : ومن علمكها ؟ قال : امرأةٌ رأيتها في يوم شديد ذي مطر وريح وقد خرجَتْ إلى الهطل حتى امتلأت، فشَعَرُها وثيابها كأنهارِ عَدْن. وكانت تضحك كالمصابة العقل. وما كانت إلا التي اهتدت إلى سبيل الحياة. وعلمنيها سكيرٌ يبكي في ليالي الشتاء. ويقول : هل من خلاص من الحياة ؟ وكان لا يصحو ساعة إلا ذلّ كآدم يوم أُهْبط الأرض. وعلمتني الكتبُ ما ليس من الحكمة. فلمّا تعلمْتُ الحَكمة جُرْتُ فيهم فَعَشَرْتُهم وافترشْتُ نساءَهم وسقيتُهم عَلْقَماً وخنقت عليهم حتى كأنها نقمة من الله. قلت : ولِمَ فعلْتَ بهم هذا ؟ قال : لأن الوحي لَم ينزل ولأني نظرته حتى طار لبّي. وكانوا يقولون : إنه لمجنون. وكنت أقول لِمَنْ يسألني في جوري، ثم أضرب رأسه : إنّ قوما يكون فيهم مثلي من الأشرار ولا يقتلونه أو يعقلون يديه ليسوا بأهلٍ لِشفقةٍ ولا رحمة. ثم قويتُ واشتد بأسي وقلت : لا حياة في غير الشدة والعنف. فأمرتُ فضربت أعناق المرضى والضعفاء كلهم والعمي والعرجى والمصابين جميعا. وظننت أنّني أصيب به صحّة. فلما مثّلْتُ بهم فسجدوا مؤمنين خاشعين أمسيْتُ فلم أصبح. وكانت موْتَتِي الأولى.

* * *

وبقيت أياما بغار حـراء فـإذا جَـوْري قـائمٌ فيّ يطلـب أن يجـور عليّ، وخشيت أن أقتل نفسي ظلما. فقمت فنزلت إليهم.

* * *

وجمعتُ حكماءَهم وناديت في الملأ إني تُبْت وأرجـو أن تُقبَـل التوبة وأنَّهم يغفرون لي عسى الله يغفر. وقلت : نخرج الخـير مـن الشر والشر من الخير، أو نمحو الخير والشر معـا. فـإذا هُـم عِقـام. وقالوا : مننْتَ بحقن الدماء وإسـكان الـروع. وهـو مـردود عليـك يوم الحساب. فقلت : دينكـم كـأنكر صنيع اليهـود، حسـابٌ في حسـاب. ثـم أمـرْتُ فحلقْـتُ لِحـاهُم ورؤوسـهم حتـى صـارت كالعُنْصل. وقدمتُ لهم الخمر وقلت : خذوا من حكمـتي. ففعلـوا ثم خرجوا يسفُّون الأرض سفّا. فنظرتُ إليهـم وتَفَلْـتُ. وجـاءني قومي فقالوا : إنك قاطع نعمتنا ومُلْكنا علينا وإنّـا نراهـم قـاتليك. قلت : لو فعلوه لشكرتهم وأعظمتهم. ولكنهـم لا يفعلـون. إنَّهـم حَقَارةٌ نِسوَة.

ثم قلت : أَجْعَلُ لهم أسبوعَ إباحةٍ فأنظرُ ما يصنعـون. وجعلـت ذلك فناديت : إنا أبحنا لكم أعمالكم سبعة أيام بلياليها. فافعلوا ما تشاؤون. ثم نظرت فإذا هذا في أرضه يحـرث، وذلـك مقبـل علـى تجارته وماله، وآخر يقتـل وينهـب علـى عادتـه ويسـفك، ورأيـت الحكماء في حكمتهم يبيعـون منهـا ويـأكلون خبزا، والمصلـين في صلاتهم، والأشرار في شرهم، والأخيـار في خـيرهم. ولم أجـد إلا

رجلا ضرب إلى البادية فإذا هو وحده. فقلت : هذا ضالّتي. وأقبلت عليه إقبال الحفي المبتهج وسألته في أمره. فقال : أبحث عن نجم سقط عني هنا ولعله غار في التراب. فهو مجنون هائم على وجهه. وعلمت أن لكلٍّ منهم محلَّهُ من الحياة وحتى المجانين كمحلّ الكلمة من الإعراب. فكأن سيبويه مدبر شأنهم.- قال أبو هريرة : فقلت : ومن هذا ؟ قال : رجلٌ سيُخْلَقُ ويبتكر النحو - ثمّ قال : ولم أزل كذلك حتى ذهب إيماني بالناس جميعا ومعاشرتهم وتقْتُ إلى الوحدة الواحدة. وقلت : إنه لا يَحسنُ الفعلُ إلا مطلقا محضا. وليسَ الحبّ حبّا حتى تقتُلَ من تحب، وليس الخير خيرا حتى يتبدَّد في نفسه. ولم يبق بَعْدَهم إلا برّي بأمي. وكانت شديدة الحب لي فأنا أحبها لذلك. وكانت لا تُنْكِر عليَّ شيئا من أمري وتقول : أَدعو الله أن تكون مُحِقًّا فيما تفعل. فلما انحصرت فيها جئتها فأردتها فكأنها لم تفهم. ولكنها ماتت في نفسي. فخرجت وقد مُتُّ موتتي الثانية.

* * *

فأنا هنا من يوم خروجي.

جئت هذا البحر وهاته الجبال التي لا تَرَى فيها إلا صخورا هاوية على صخور هاوية. وقلت : أكون أو لا أكون. وكانت قبلُ حياتي قبيحة شوهاء لأني لم أحذف زواياها ولم أُهذّب الناتيء فيها ولم أنزع متناقِضَها. فجُرْتُ حتى أفنيتُ النّاسَ جميعا

في نفسي وخلوت بها.فخلقْتُ لي سبيلا فأنا عليها ولا قافِلةَ ولا رفيق. فكأني قد أضعْتُ ظلي واستحال عليّ. ألم تَرَ أنّي لا ظلّ لي؟ قال أبو هريرة : فقلت : لم أر وا لله. فقال : وقفت يوما فإذا هو قد تمادى في طريقه كالراحلة تعصيك وتطرحك وتسير، أو كروح الميت. ثم جعل أبو رغال يضحك فيقهقه فأجد منه كالبرد.ثمّ سكت فقال : فلما ضاع ظلي جئت البحر وخلوت إلى الحكمة. وقلت : لا بدّ أن أخرج من تناقضي. فالروح والجسد كالحوت في الماء أو لا يكونان ويُهْلِك أحدهما الآخر. ونظرت فلم أر كاتحاد الجسد والبحر يتمالكان ويتغالبان ويتلاعبان، فيحمل الجسدَ الماءُ ولا يمنُّ عليه، لا كالروح تحمله وتمنّ عليه وتكرهه وتقضي عليه. وقلت : الحكمة الاعتدال. وقد تمّتْ لي. قال أبو هريرة فسألته : وما الاعتدال ؟ فقال : اعتدال الحوت أو الموت يا أبا هريرة. وإنه ليس كالحركة الدائمة قاتل ولا كالسكون المحض سعادة وشفاء فقلت : وما كان منه ؟ قال : أتريد أن ترى ؟ قلت : نعم. قال : هات يدك. ثم أخذني من يدي فذهب بي إلى صخور الجبل فقال: انظرها متدلّيةً في الجو لا تُشَدّ إلى شيء وقد غلبَت تجاذبَ الأجرام كما غلبْتُ الأرضَ بالبحر. فنظرت فلم أر شيئاً. فقلت : أنا لا أرى شيئا. قال : أنت أعمى يا هذا. أو لا ترى ما نحتُّ عليها من صورة وأشكال ؟ هي ما كان مُمْكناً من الخلق ثم استحال. انظر. هذا مخلوق تُحْبِله السماءُ ثم لا يكتفي فيحبل ويلد دونها. علة الخلق والولادة. علة

الأرض وبنيها. وهذا ألا تراه ؟ إنــه جسـد ولا صـورة، وذات ولا صفات، كأنه نجمٌ مات ولــمَّا ينقطعْ نـورُه. هـو أنـت، هـو أنـا، مستحيلا. وهـذا أيضـا. انظـره في خشـوعه كأنـه العين يغشــاها القذى. أنت حمارٌ ليسَتْ له أذنان. وإنمـا أردتُ أن تعلـم أنـك أنـا وأني أنت وأنّا غيرنا وأن الجَنَّة من نفسك كما كانت نفسـك مـن تراب فصارت طـائرا في السـماء. وهاتـه كلهـا كالمخلوقـات الـتي حبستها بغاري. أتريد أن تراها ؟ قال أبو هريرة : وكـان في عينـه وهو يقول كمثل نور النبي يُوحَى إليه، فقلت : نعم، وأنا لا أجـرُؤُ على الامتناع خشية جنونه. فذهب بي إلى كهفٍ في الجبـل مُظلـمٍ ضيّق كساعة شؤم. ووقـف بـي علـى بابـه وقـال : لقـد جعلـت بقصري هذا جماعة مـن الخـدم والجـواري الحسـان لا آكـل منهـم أحدا. إنما إذا نفدتْ روحي عمدتُ إلى أحدهـم فقتلتُـه وتلطخْـتُ بدمه فأنا من خلق جديـد. هـذا طعـام الـروح. ألا تنظـر إليهـم في أغلالهم كالأُسُد ؟ ثم تقدمنا قليـلا فنظـرت فـإذا جـرادات كثـيرة مشدودة بخطوط حمراء. فقلت : إنها لبديعة الحسن. فجلس يمسـح عليها ويقول : إن دماءهم منوطة بالفلكيات لا تقع للنفس الناطقة أو العقل الفعّال إلاّ من نور الهيولى. ولو جاز تعدد العلـل وانتفـت الفاعليّة والمادية والصورية والغائية لكان تعلق النفـس بالجسـد مـن تعلق الجرب بالشاة الجربة. لكن الواجب بذاته والواجـب بغـيره لا يلتقيان إلا ويتناطحان، وهما لا يكافئان الواجب الوجود لما بينهما من فرق في التجريد والإبداع والتدبير. وشرائط الامتناع كشرائط

الإمكان بابها واسع كالبحر. قال أبو هريرة : فقلت : لقد مات موْتَتَهُ الآخرة. وقلت: نعم. هي أحلامك كالسمك يُصَاد فيُوكَل الشصُّ وتتَّقد مصابيحُ دجلة والفرات. قلت ذلك مجاراة لجنونه وانطلقت أضحك وانطلق حتى استلقينا. ثم قال : أنت مجنون. فارتْعتُ وانزعجْتُ حتى ارتعدتُ واهتززتُ وخفت أن يكون ذلك حقَّ اليوم أو غد.

* * *

فلما خشيت على عقلي قلت : لم يبق إلا أن أطلب النهاية.

وأردت الانصراف فقال : أحب أن تصبر حتى أهديك شيئاً. ثم غاب في الجبل فجاءني بقلم وقرطاس وقال : قد تحتاج إليها يوما فتجعل عليها خطوطا ودوائر ونُقَطا في وسطها بياض.

فأخذتُها وانصرفت مُظْلَمَ العقل والقلب.

# حدِيث الجمُود

**حدّث أبو المدائن قال :**

جئت أبا هريرة ليلةً فإذا هـو في جمـود الصخـرة، لا يشـكو ولا يستطيع إليه سبيلا ولا يبكي. فقلت : أوَ كالرحى تدور على قلبها ولا طعام وترحي ؟ قال : إنه يا أبا المدائن ليس في النـاس إلاّ سـاهٍ عن أخيه. خرجت ليالي عدّةً أهيم على وجهي وأنا أتوسل إلى كل عابرِ طريقٍ ألقاه أن يلطمني لطمة تذهب بي فتُحْيِـيني، فلم يرحمني ولا أدركها مني أحد. حتى ليستحيلُ علـيّ في النـوم حلمـي. فأنـا الليلة على ذلك.

ألا قُلْ وَيْلٌ للذين يموتون ثم لا يُبْعَثُون.

قال أبو المدائن : وكان ذلك في آخر أيامه.

# حديث البعث الآخر

« إن دائـــي الـــصـــدى.... »

**بـــشــــار**

« الفولاذ يـأبى السكون والسـلام، والنـار تأبـاه و"بروميتي" يأباه. لأنه ما زال لعقل الإنسان درجات عدة لا بدّ له من ارتقائها قبل أن يبلغ الذروة »

**بـــويـيـر**

**حدّث أبو المدائن قال :**

جاءني رسولُ أبي هريرة يوماً يقول إنه يدعوني لساعته. فأسرعت إليه وأنا أفكّر في ما عجل به إلى دعوتي وأخاف أن يكون وقع به ما يُكْرَه. فلما دخلت عليه رأيته جالسا وقد جعل بين يديه أوراقا وأقبل عليها وهو مطرق ساكن كأنه النوءُ يتمخّض رعدا. وكان بيده قلم همَّ بالأوراق ثم توقَّفَ وقد ذهب حِمْلُه. فسلّمْتُ وجلست فإذا أبو هريرة قد ألقى القلم على القرطاس وصرف وجهَه إليّ فابتسم وقال : كم سنّك ؟ فضحكت وقلت :

ألهذا دعوتني ؟ فقال وحرّك رأسه : وددتُ وا لله لو أني خلوتُ عن العمر وأخذْتُ سِنِيَّ فزرعتها في ريح الصبا. ألك في يوم ليس من الدهر ؟ قلت : ومتى كان الدهر محدودا فنَخْرج عنه ؟ قال : لقد كان منذ اليوم. انظر هذا. وأخذ ورقة وألقاها إليّ. فإذا عليها خطوط قائمة ودوائرُ ونقطٌ سوداء تكبر وتصغر وفي وسط الورقة بياض ناصع. فقلت : أطَلْسمٌ أم عبث ؟ قال : بل عنق الزمان وقد ضُرِب أو استفهامٌ ولا معنى. فلم أفهم من كلامه شيئاً. ولكني صبرت وقلت : وهذا اليوم ؟ صرفا للكلام عن غريباته. فقال : نعم. تأتيني غدا قبل الغروب وقد تطّهّرْتَ. فقلت أفعل إن شاء ا لله. ثم قمت فسلمت، وعاد إلى أوراقه، وانصرفْتُ وأنا حيران.

* * *

فلما كان الغد جئته في ساعته وأنا طاهر كعادتي قبيل الغروب. فإذا هو قد أسرج فرسين وقام يتوقّعني. فما كدت أدخل وأسلّم حتى استوى على فرسه وهزه فقامَ قيامَ النبل. فركبْتُ وشرعتُ إثره حتى لحقتُه. فقلت : أين بنا ؟ قال وضحك : إلى مغرب الشمس. انظر إليها وقد احمرّت وغربَتْ في عيني. وا لله لا آسف إلا على مثلها من الدنيا. وأشار إليها وهي على الجبل كالدم المُهْراق. فضقت بقوله وقلت : ألا تنتهي ؟ إلى أين ؟ قال : لم أردْ غير الفسحة والهواءُ يسْوَدُّ والسماء تلين. ما كان من أمر الدنيا اليوم ؟ قلت : لم يكنْ ما يُذكَر. قال : ألم تكسبْ مالا ؟ قلت :

بلى بعون الله، كثيراً. فقال : أتعلم أني اشتريْتُ لي ضيعةً أخرى ؟ قلت : على بركة الله. قال : نعم على بركة الله... وأما الأولى فقد جعلت فيها من يُحْبِلها حتى تلد وكتبتُها لك. فرأيته مازحا وما كان كذلك إلا في شطره. فقلت : الحمد لله أَنْ عاد لك من التدبير ما قد يئسْتُ منه. وكان لم يكسِبْ في حياته مالا قط إلا خرج عنه قبل الدخول. قال : لقد ذهبت لي اليوم فوق الأربعين من السنين وقد آن الرشد. أتذكر يوم التقينا عند حُبَابة المغنية وقد دخلتُ عليكما كَرْها ؟ فقلت : وكنتَ في عربدةٍ لم أر مثلها قط. فقال : وأحببتُ أن نلتقي عليها فكرهتَ ذلك وأردتَ الباب، فأمسكتك عنوة، وعلا صوتُها فلطمتُها لطمةً طوّحَتْها. ثم مزّقت ثيابها وحملتك عليهَا وأخذت معك الفخد والفم والعينين وجعلت لك الباقي وقلت : افعل مثل فعلي. وأقبلت على جسدها الأسمر إقبالَ المريدِ النهشَ، فصحْتَ وارتعتَ صياحَ ربّات الحجال. قلتُ: نعم. وقد أراك فكأنه قد أصابك طائفٌ من الجن. فتنهد وقال : وإن كنت إلا في ساعة حكمة. وقد هممت بلحمي مرارا بعدها أريد تمزيقه. أتعلم ما كان من أمرها ؟ قلت : لم أعد لها بعد يومنا ذاك ولم أطلبَ والله خبرها. فابتسم أبو هريرة وقال : لأنك تزوجْتَ امرأتك بعدها بأيام. لقد قتلتُها وقتلتُ كثيرا غيرها لئلا أقتل نفسي. وقد ذهب والله في الريح هباءً. قلت : إنك لم تفعل هذا. وقال : وقد فعلتُه. ثم سكتَ وسكتُّ وأنا أراه يكذبني. ثم قال، وقد نزل به من الفرح كنوبة الحُمّى : لقد خرجنا من

الظلمات إلى النور. فقلت وأنا أنظر إلى الليل الغاشي : بل من نور النهار إلى ظلمات الليل. وعثر فرسي حتى كدت أقع على وجهي. فنظرت فإذا نحن قد وصلنا جبلاً حزيزا صَعُودا. فقلت : أو تريد بنا شرّا ؟ قال : كلا. إنما أطلب النهاية. وذهب صاعدا وذهبْتُ وأنا لا أكاد أرى أمامي شيئاً لشدة الظلام. وإنما كانت بالأفق الغربيّ بقايا تائهةٌ كأنها الخير في قلب شيطان. وثقل عليّ السير مظلما فأردتُه على الرجوع فقال وأبى : نحن إلى ذلك بعد ساعة. ثم ضحك وقال : ألا تسمع ظريفةً تحمل عنك مشقَّةَ السير. قلت : هاتها. وكان عهدي به لطيفَ الظرف إذا أراده. قال : أَظلَمْتُ يوما فطلبت لعبة أو عبثا أُفرِّجُ به عنّي. فجمعت صحابةً لي على دعوة دعوتُهم إليها. وكانوا كلهم من أهل الحكمة والأدب لا يسكنون عن ذكر الآخرة ولا يتبعون الهوى ولا يشربون إلا سترا. فلما حضروا ضربْتُ لهم ألوان الطعام والنبيذ الجيد. فجعلوا ينظرون إلى النبيذ ولا يجرؤون عليه وهم منكروه عليّ. فقلت : كلكم يشرب فلا حياء في الجماعة. وكنت شربت مع كل واحد منهم على حدة وخلوة، فاستبشروا وتضاحكوا وقال الواحد للآخر : وأنت أيضا ؟ ثم أكلوا وشربوا حتى انقلب كله فرحا. فلما اكتفوا وأثنوا على طعامي وطابخته ونبيذي وساقيته قلت : والذي ادّخرت لكم خير. فارتمت الأنفاس من العيون إلى ذخيرتي. فأشرت إلى الجارية بشيء فقالت : نعم. وانفجرت ضحكا حتى كادت تكشف الأمر كشفا ويصحو

أصحابي. فزجرتُها فلوَت وخرجَتْ. ثم عادت وأومأت أَنْ قد تهيأ الأمر. فأخذتُ أصحابي وهم كأنفاس الريحان وخرجت بهم إلى مجلس الغناء. فقالوا : أقينةٌ لا نعرفها ؟ قلت : نعم، ولم تسمعوا والله مثلها. فصاحوا إعجابا. ودخلنا المجلس وقد ضُرِبَتْ فيه ستارة. فأجلستُهم وقلت : الآن تسمعون. وضربتُ في يدي. فسمعوا من وراء الستارة صوتا وغناء وضربا روميًّا لم يجيء بمثلها أحد قط. ثم سكن الغناء وقامت أصوات أصحابي بالإعجاب. فقلت : ألا تسمعون ؟ فسكتوا فإذا ببغاء من وراء الستار يحكي كلامهُم أقبح حكاية. فضحكوا فضحك الببغاء ضحكا مُشوَّهاً كريها. وتكلموا ثانية ففعل بهم مثل فعله الأول، وأنا أنظرهم وأبتسم، حتى غضبوا فغضب الببغاء وأرادوا الانصراف فأراد ذلك. فضحكت والله حينئذ حتى استلقيت. ثم قلت : أصرفوا ملناس. وكان اسم الببغاء. فصرفوه وسكن الغضب والانصراف عن أصحابي. وقالوا : لنا عليك بعد هذه السخرية أن تسمعناها مرة ثانية. يعنون القينة. فقلت : نعم. صفقت بيدي فصفّق الببغاء بجناحيه، فسمعوا أحسنَ مما سمعوا قبلا حتى ذهب بعقولهم وصاحوا كلهم : لقد أغنَّت غُنَّة عجيبة. تخرجها لنا فهي من بنات الجن أو الجَنّة. قلت : بل من بنات الروم، زرقاء العين، صفراء الجلد، حمراء الشعر كأنها الدنيا. فقاموا كلهم وصرخوا كالواحد: تَهَبُها لي ليلة.قلت : أما الآن فلا. ولكم عليّ ذلك كل بدوره، وأبدأ بِأَكْبَرِكُمْ سنّا. وإنما أنتم الآن ناظروها. ثم قمت فأزحت

الستارة فإذا وراءها الببغاء في قفصه، وجاريةٌ لي عجوز تحسن الضربَ وليس أنكر من صوتها وكانوا يعرفون ذلك منها فقالوا : وأين روميتنا ؟ قلت : هي ذي. وأشرت إلى الببغاء. وكنت وقعتُ عليه عند تاجر أخذه من بلاد الروم في بعض قوافله إليها ولم يقدِّرْ له قدره فباعنيه ثمنا بخسا، على غريب ما كان يحسن من حكاية الأصوات حاضرها وماضيها. فجعلت منه ملهاة في تلك الليلة. فلما قلت ذلك شتمني أصحابي حتى أفحشوا وانصرفوا انصرافا لم يكن لهم بعده عَوْدٌ. وبقيت أعتبر الببغاء.

* * *

قال أبو المدائن :

فجعلت أضحك من قصته مع أصحابه حتى كدت أقع ولم أتمالك عن ريحٍ سمعها أبو هريرة. فضحك وقال : انتقض وضُوؤك وقد حانت الصلاة. فخجلتُ وأمسكتُ عن الضحك وسكتنا جميعا. ومضت لنا ساعة ثم إذا هاتف يهتف شِعْرا في صوت ما سمعْتُ أروع منه :

أنا الحق يناديك

أنا الحب يناغيك

أنا الشوق طغى فيك

تعالَ على الدّهر تَسامَ إلى سِحْري

فأكشفَ عن ستري ضياً كضيا الفجر

يـروّيـك مـن سـرّي

أنــا الــحــق طغـى فيـك

أنــا الـحـب يـنـاغيـك

أنـا الـشـوق يـنـاديـك

حـبـيـبـي حــبـيــبَ الأبــدْ تــخـلّـصْ وهــيّـا نَـصِــدْ

عــلـــومَ الــغـيـــبِ

خـــفـــايـــا الـــربّ

وقُــــــمْ كالريــــــاحْ إذا مــــــا عَلَــــــتْ

مَهــــــبَّ الريــــــاحْ تُعــــــالي الجبــــــل

وَطِــــرْ يــا جــنـــاحْ فــهــا قــد بَـــدَتْ

شـــواطـــي الأزَلْ

فـأسـمـعُ أبـا هـريـرة وكـأنـه الـنـار اتـقـدت أو ا لله يـنــادي في الكـون بـالبعـث :

أيـا حـق لبّـيـك

تـبــاركْـتَ لبّـيـك

حــبـيـبـي جـلالـيْـك

أنــا الآن إلـيــك

تعــــال فــــؤادي،

فهـــــذي الســـــماءْ بــــأوج العــــلاءْ

لروحــــــى تنــــادي،

وهـــــــذا خليلـــــــــى

يضيــــــــــئُ ســـــــــناه ضيـــــــاءَ الســـــــــماءْ

يـــنـــيـــر سبـــيـــلـــى

ثم سكت فإذا أنا أسمعه يقول : هذا ما كنْتُ أطلب. أتذكر يا أبا المدائن يوم وقفْتُ عليك بدكانك أشـتري عنك شيئاً فجاءني من أخبرني بمريم وُلدتْ ؟... - يعني واحدتَه وقد ماتت صغـيرة - و لم يكد يتـم كلامـه حتـى حـث فرسه وأرسله كـالريح، فـأسمعُ حوافره على الصخور كالرعد. وغـاب عـني في الليـل. فلـم تمـض هنيهة حتى سمعْتُ صخـورا هاوية وصهيـلَ ألمٍ وصيحـةً كصيحة الفرح تملأ الوادي واقشعرّ لها جلدي، فكأنَّ الأمرَ مأدبة شياطين. ثم سكن كل شيء وناديت فلـم يجبـني أحـد. فـلزمت مكـاني إلى الصباح. فلمّا أصبحت نظرت فإذا أنا على قمـة جبـل يكـاد يبلـغ السماء، وإذا دم على الصخر، وإذا تحتي هاويةٌ يقصـر عنهـا مـدى العين.

رحم ا لله أبا هريرة. لقد كان أعظم من الحياة.

# ملحق
# متاهات مخطوط

وبعد، فإن لمخطوط هذا الكتاب قصةً جرتْ منذ دهر على يد صديقين، أحدهما بعيد وصل "أبو هريرة" بيني وبينه بالتقدير والود وإن كنت لا أعرف شخصه، والآخر من إخوان الصفاء قديم قريب. وهي قصة طريفة رأيت من حق القارئ أن لا يحرم من معرفتها، عساه أن يطلع من خلالها على بعدٍ من أبعاد الكتاب قد لا يظهر جليًّا بدونها، وها هي فيما يلي كما يرويها بخط يديهما صاحباها.

م.م

# رسالة الأستاذ خليل الجرّ
# قصّة كتاب

كان ذلك في خريف عام 1939، وكنت جالساً في أحد مقاهي فيشي أمام فنجان من القهوة المحلاّة بالسكارين، فدخل عليّ صديق تونسي من رفقاء الدراسة في باريس وبصحبته شاب لم أكن أعرفه. جلس إليّ الشابان ورحنا نتجاذب أطراف الحديث، ونتساءل عن مصيرنا بعد أن استسلمت فرنسا أمام زحف جحافل من المصفحات الألمانية، فقال لي صديقي إنّه مزمع على العودة إلى تونس، وقد وضعت حكومة الماريشال بتين، بعد موافقة السلطات المحتلّة باخرة "مَرسيليا" تحت تصرّف الرعايا العرب، تنقلهم إلى شمال افريقيا ويعود كل منهم من هناك إلى بلاده بوسائله الخاصة.

لم أكن أنا راغباً بالعودة لأنّني لم أكن قد أنهيت دراستي الجامعية بعدُ، ولأنّ المواصلات بين افريقيا الشمالية وشرقيّ المتوسط كانت معدومة في ذلك الحين. فطلب إليّ رفيق صديقي أن أحفظ له أمانة هي أعزّ ما لديه، ويخشى أن تصاب الباخرة بسوء في زمن كانت الغوّاصات تجوب فيه البحار والألغام منتشرة في مياهها.

وبعد أن وافقت على إجابة الشاب على رغبته سجّل في مفكّرة اسمي وعنواني في باريس ولبنان وقال لي إنّه سيتّصل بي بعد أن تضع الحرب أوزارها ويعلمني عن سبيل إرجاع الأمانة إليه. ثمّ قدّم إليّ رزمة صغيرة وقال "هذه مخطوطة كتاب سكبت فيه روحي وأودعته آرائي الخاصة في الحياة، هو أعزّ ما لديّ لك أن تقرأه إن شئت ورجائي أن تحرص عليه ما استطعت".

أخذت المخطوط وودّعني الشابان وانصرفا وكان هذا آخر عهدي بهما...

وفي المساء عندما عدت إلى غرفتي فتحت الرزمة فإذا فيها وريقات لا يتعدّى عددها المائة مكتوبة بخطّ رتيب جميل وهي تحمل هذا العنوان :

" حدّث أبو هريرة قال... "

وفي صدر الكتاب الإهداء التالي :

" إلى أبي وأمّي، علّماني ما لا يعلمان،

إلى التي ماتت قبل أجلها "

وانتهت الحرب، وعدت بعون الله إلى الوطن سالماً، والكتاب معي، أحرص عليه حرصي على إنسان عيني، لا أعرف شيئاً عن مؤلّفه سوى أسلوبه الذي فيه شيء من الإعجاز، وروحه التي سكبت في كل سطر من سطوره، وحرفي م. م. اللذين ذُيّل بهما الإهداء. وانتظرت طويلاً دون أن أتلقّى كلمة من المؤلّف. وكنت في كلّ مناسبة أقرأ بعض الصفحات على من أجتمع بهم من رجال الفكر والأدب، من لبنانيين وغير لبنانيين، فيجمعون على تقديره والإعجاب به.

يعجبون بما فيه من ثورة الشباب المتحرّر، وحكمة الشيوخ المحنّكين، ويأسفون، كما آسف أنا، لكون هذا الأثر النفيس مدفوناً في مكتبتي لا يرى النور.

وأخيراً، قدّر لي أن اجتمعت بالأستاذ على ادريس التونسي، وقد زارني في حاجة، فرويت له قصّة الكتاب، ووضعته بين يديه، فقال لي :

أظن أن هذا الخطّ هو خطّ محمود المسعدي، وأن هذا الأسلوب أسلوبه، والأستاذ المسعدي الآن من كتّاب الطليعة في تونس، لآثاره الأدبية والفكرية دويّ تعدّى الحدود التونسية حتى تردّدت أصداؤه في مختلف أنحاء العالم العربي، وهو، إلى ذلك من كبار رجال التربية في بلادنا ومن موجّهي الرأي العام فيها، يشغل منصب كاتب الدولة (وزير) للتربية القومية.

فرحت لهذا الخبر، وقد تأكّدت من صحّته عندما عاد إليّ الأستاذ ادريس، بعد أن اتّصل شخصيّا بتونس بالأستاذ المسعدي، وروى عليه القصّة، وعلم منه أنّه في الواقع صاحب المخطوط، يسعده أنّه ما يزال محفوظاً وأن يحصل عليه ويدفعه للطبع.

وهكذا، بعد مرور سنين طويلة، أرسل الأمانة إلى صاحبها، عن طريق يدين أمينتين، وكلّ ما أتمنّى هو أن يرى هذا الأثر النفيس النور وأن أحصل على نسخة مطبوعة من إهداء المؤلّف، تحلّ في مكتبتي المحلّ الذي كان يشغله فيها المخطوط، لسدّ الفراغ الكبير الذي خلّفه فقده في درج مكتبتي وفي نفسي.

بيروت في 1962/12/5

خليل الجرّ

# رسالة الصديق الحبيب فرحات

أخي وصديقي العزيز

تفضّلت فأطلعتني على نسخة من رسالة الأستاذ خليل الجرّ ولا يسعني إلاّ أن أشكر لصاحب "قصّة كتاب" وفاءه للأمانة وقد كنت أودعت بين يديه مصير مخطوط "أبي هريرة" في ظروف أبدع في وصفها بأسلوبه السّهل الممتنع والمؤثّر.

على أنّي لا أرى بدّا من تصحيح أمرين اثنين تسرّب لروايتهما شيء من الغلط سببه النّسيان وبعد الشقّة بين الحدث وروايته.

ذلك – أوّلاً –أنّ المقابلة كانت في صائفة سنة 1940 لا في خريف سنة 1939 ودليل ذلك أنّ استسلام فرنسا "أمام زحف جحافل من المصفّحات الألمانية" – حسب عبارة الأستاذ خليل الجرّ – كان في شهر جوان سنة 1940 وهذا حادث تاريخي لا جدال فيه.

وثانياً – خلافاً لما رواه الأستاذ الجرّ – فلم أنسب أبداً الكتاب إلى نفسي بل نسبته إلى صاحبه الأستاذ محمود المسعدي وما زالت ذكريات محادثتي مع الأخ خليل ماثلة إلى الآن بدقّة في ذهني وقد كنّا تلازمنا إذّاك يومين أو ثلاثة وسكنّا معاً غرفة واحدة بمدينة "روايا" بالقرب من "كليرمون فيرّان"

وفاتحني الشاب اللبناني خليل الجرّ فيما كان يقرضه من شعر باللّغة الفرنسية وقرأ لي نماذج من إنشائه فيه فشجّعني ما اكتشفت في رفيقي من سعة في الاطّلاع ورقّة في الإحساس على أن أتحدّث إليه عن كتاب "أبي هريرة". فترجمت له عن صاحبه وأودعته المخطوطة إشفاقاً عليه من الضياع وقد عزمت على السفر بحراً... ثم علّه يجد له ناشراً بلبنان وقد كان مؤلّفه فوّض لي الأمر في ذلك.

هذه حقيقة الواقع حسبما أتذكّر.

على أنّي لم أشكّ في حسن نيّة الأستاذ خليل الجرّ وما أجمل روايته "لقصّة كتاب" كنت أودّ أن لا أبعث بعض الغيوم على روعة خيالها لو لم تنسب لي محاولة انتحال أنا بريء منها.

ويروق لي في الختام أن أكرّر عبارات امتناني إلى الأستاذ خليل الجرّ عن وفائه للأمانة مقترحاً على صديقي محمود المسعدي نشر "قصّة كتاب" كفاتحة أو خاتمة لحديث أبي هريرة لما تنطوي عليه من فائدة وما تبعثه من أضواء على "مسيرة" مخطوط أبي هريرة. والسّلام من أخيك وحافظ ودّك.

تونس في 11 ماي سنة 1973

الحبيب فرحات

# مَوْلِدُ النِّسْيَان
## وتأمّلاتٌ أُخرى

# مقدمة الكتاب

جاء "مولد النسيان" في هذا الكتاب متبُوعا بمُلْحقيْن. وتلك في جملتها تأمُّلات ثلاثة، أو رُؤًى ثلاث، اختلفت في اللون والصيغة وجمعت بينها وحدة المعدنِ فالنسب. لكنْ لاهي من رؤية العين في اليقظة ولا من رؤيا الخيالَ والمنام، وتلك أوهامٌ في أوهام وأضغاثُ أحلام. وإنما هي من كشف البصيرة المبصِّرة، القاسية على كلّ غموض وظلام، القافيةِ أثرَ كلِّ خافية، وإبهام، المُؤمَنةِ بأن الوجود الحقَّ والله نور لألاء، وأنّ في وجودٍ أعمى - أيِّ وجودٍ - ضياعَ الكيان وضلالاً أشقى من شقاء الشيطان.

م.م

# مَولد النسيان

# الفاتحة

– 1 –

« نحن نُساقُ بالطبيعة إلى الموت ونُساقُ بالعقل إلى الحياة »

( أبو حيّان التوحيدي )

– 2 –

« هناك، في ملكوت الليل الكلّيِّ الواسع الأرجاء، حيث لا يصيب الإنسانُ من العِلْم إلاَّ وحيداً أَوْحد،هو النسيان الربَّانيُّ الخالد القديم ».

( شوبنهاور )

– 3 –

علّلاني فإن بيض الأماني ··· فنيت والزمان ليس بفاني

( أبو العلاء المعرّي )

# توجيه الحديث

اجلسي إليّ يا إدراك الكلِّ أُحدِّثْك...

اجلسي إليَّ جلْسَتَك يوْم قُمْنا على رأْسِ الجبل فوق بحيرة "السنديان" واتَّسَعْنا بما كان تَحْتَنَا من اطمئنان الأرض وتَهاويها بين الجبال، يوم تُقْتُ إليكِ فأقبلْتِ عليّ وقلتِ : "هذه الآفاق تناءَتْ... وإني لأجد كالظُّلمة أو النُّور القاسي في طوايا بصرِكَ يَغْشَاه. فحَدِّثني عن النسيان".

و لم أحدِّثكِ و لم تزيديني سؤالا، وقد كرِهْنا أنْ يَمَسَّ طهارتَنَا الكلام. ثم عطَفْتُ إليكِ من أقاصي النفْس وهمَسْتُ إليك بحديث لم تسمعيه ولكنَّكِ أدركْتِ معناه وانطلقْتِ بعيداً تطلبين مداه. صوتاً يتردَّدُ في عميق الآبار...

اجلسي أحَدِّثْكِ حديثاً كان في نِسْيٍ من الزَّمن قديمٍ بعيدٍ كالجفاء. أو كانَ منكِ ومنّي في غيب الزمانِ الآتي يُغْرينا فنندفع إليه كهاويات الحصى.

كالمغلوب لا يدْري آثقل نفْسَه أم أثقَلَتْه فهوى...

# الفصل الأوّل

قامَتْ واهِنَةَ الحركة. وجاءَتْ بفاكهةٍ فأَلْقتها على المائدة. ثم جلستْ وقالت :

يا مدين إنه قد ذهب صبري وعيل تجلُّدي. أفلا نخرج من هذه البلاد ؟

وأُسْقِط في نفسها فتنهَّدَتْ وقالت :

تجاوز طاقتي هذا الحرُّ يثقلُ كالندم، وهذا العَفَنُ كالجُثث البوالي، وهذه الغدران. وتعلَّقَ النّتْنُ بالهواء ودخل الحلْقَ مع الأنفاس. وكرهَتْ عيني أن لا تُصيب إلاّ جُثَثَ الموتى، ونفسي أَنْ لا يقع لها إلا معاني الموت والفناء، وبرِمْتُ بهذه الأرض النديَّةِ المسترخية اللَّخْناء.

قال :

إنه قد مات لي اليوم بالمارستان ميت.

قالت :

تُرَى لو أَسْلَمنا للموت أَمرَه وللأموات، وطَلَبْنا لأنفسنا الحياة ؟

فألقى إليها ببصرٍ ناحلٍ كئيب وقال :

ومتى سَهَوْنَا يا ليلى عن طلب الحياة ؟

انظري حُسنك وسلامةَ جسمك والمائدةَ بين يديك. إنَّـا لانفتـأ نطلب الحياةَ ونَطْعَم ونَشرب فنُهيِّءُ للدود الطعام.

ثم أخذ موزةً وقشرها ونظر فقال :

وسيأتي يومٌ يسترخي اللحمُ ويبْيَضُّ كالموز ويطيب للدود ويكون الختام.

قالت :

وتريد أن تقتل الموت ؟

قال :

نعم يا ليلى : ومع هذا أريد أن أقتل الموت لأنَّ الأبدَ واجبٌ والحياة...

وقامت ليلى حيْرةً وتِيهاً. فوقفت في شرفة الغرفة، وحامت ببصرها في ظلام الليل فوق أَجَمةٍ ذاتِ حلفاءَ وقصبٍ وماء. واكتفى مدين من الطعام فقام ووقفت في الشرفة وقوف ليل يسأل الظلام. فكأنما قد انصرفا إلى الغيْب.

وكانت ساعة أو بعض ساعة.

* * *

ثم برز من السكون كرْفرفة الجناح حركةٌ وصوت.

قال مدين :

إنها ريحٌ جَنُوب.

وقالت ليلى :

وإنَّها لَوهْجَانةُ الزفيف.

وتصاعدت فيها الريحُ والحرُّ فقالت :

هذا الجُنون قد عاود الكون. وا لله ما رأيتُ كهذه الأرض أُنثى تَضْبَع وتعوي من قلة الصبر. أفليس في الآلهة ذَكَرٌ فَحْلٌ يستطيع الضِّراب ؟

ولوت وكأنما انهالت قُواها، فاستلقت على فراش. وقام مدين وحده بالشرفة. وهبَّ من الريح نَفَسٌ شديدٌ خَنقَ السراج. ودفق الظلامُ فملأَ الغرفة حتى ثَقُلَتْ كالشَّقاء.

وقال مدين :

اسمعي يا ليلى دويَّ الجَنُوب كالثعابين تنساب. وإنها لحماسة المُغِير أو غيظٌ شديد.

وذهبت بليلى نوْبةُ حمّى، فهي لا ينفذ إلَى نفسها من صوت الريح إلاّ كَعَدْوِ الخيل تحت الأرض تحمل على خيل. فكأن الريح تهزّ أصولَ الأشجار هزًّا ولا تصيب الفروع.

وقال مدين :

هذه الذكرى مقبلةٌ إليّ. أراها تدفع الجبال لتبرز من بطن الأرض، وتصارع الزمن. وستخرج بعد حين، من أرض بعيدةٍ كثيرَةِ الغيوم كثيرةِ الأطياف، وتتخلّص من الوحل والصمغ

والغراء، وترتفع فتتبدد، فكأنّها زبَدٌ على الريح.

ورفّ على مدين كالنفخة أو الخاطر الرائع فقال :

أَشَفَةُ الريح ؟

وقال :

لا، بل أنت مَجَرٌّ أبيض كمجَرِّة السماء.

وتجَّمعتْ ذكراه فسمع هاتفةً تقول :

أنا ذكراك يا مدين.

* * *

وقام مدين في الشرفة إلى ذكراه تحدِّثه ويحدّثها، وقد أخذت منه الحمّى فهذى.

قال :

لقد جئتِ وكنْتُ مؤمناً بقدومك. إنَّكِ من الصادقين.

قالت :

بل أنا يا مدين من الكاذبين...

وقالت :

... استطعْتُ الكذبَ فكذَبْتُ. وكَذَبْتُكَ وكذبت نفسي، وآمنْتُ بالباطل في حياتي. وكنت أقول : إنِّي مؤمنةٌ بالصورة، مؤمنة بهندسة السواري والتماثيل، كافرة بمادّة السارية والتمثال. فتقول : إنِّي مؤمن بالمادّة يا أسماء. وتقول : إنّه ليس من الحق إلا

محض المادة، لم تعمَلْ فيه هندسةٌ و لم يهذِّبْـه شـكل. لا صـورة ولا زِنَة. المادَّة المحضة.

قال :

وكُنَّا يا أسماء نقول كثيرا غيره.

قالت :

وكنْتُ أنظر إليك فأراك تبتسم في وجه العدم.

قال :

وكنْتِ تجعلين نُعومةَ يديك على فمي، فإذا كاملُ جسدِكِ عـار، يرفّ علـيّ نَفَسـاً مـاراً أو نفْـحَ ريحـانٍ لطيفـاً، كـالمُنَى تسْـري إلَى القلب. ألا تقتربين فتجعلي يديْك على فمي، فأجدَ لينَ أيّام كُنْـتِ معي في الحياة ؟

قالت :

إِنّي ميْتَةٌ يا مدين. قد ذهَبت الخفّـةُ مـن يـدي واللـين. وانتفَـتْ عنِّي الصفات.

واشتدَّ به التَّوْق إليها فأغرى وقال :

ألا تقربين أحدّثْك عن مستقبلنا الماضي ؟

قالت :

حدّثني عن الأمل مات بموت المادة وأخْلف باطل الرُّوح.

قال :

لقد كان هذا منبعَ خوفنا وكانت عِلّتَنا هذه المشكلات. وكانت أفراحُنا تنكسر بين المادّة والصورة كالجوْزة في مِكْسَر الجوْز. ونهزل فنقول :

إن الفرح كالفأرة، فنحن نفتّش عن فأرة الفرح بين الأرض وعِدْل، وقد فطسها العِدْلُ على الأرض .ولكنّا اليوم آمنّا واسترَحنا يا أسماء. فقد ذهب الإشْكالُ وذهب الخوف، وقَتَلْتُ المادة وقتلْتِ الصورةَ والروح. تمثالٌ ولا حركة ولا خطوط، ولا مَادَّةٌ شكلٌ ولا زنة.

وسكتَتْ قليلا كأنما انصرفَتْ إلى الماضي، ثم قالت :

وكنّا نجلس تحت شجرة التفّاح، فآخذ تفّاحةً وأقول : أُهْديك حُمْرةَ خدِّها محضةً بلا لحم. فتعضُّ لحْمها وتقول : أُفَضِّلُ اللحم...

وظَلَلْتُ أعتقد أنَّه لا يُؤْكَل من التفاحة إلا شكْلُهَا وألوانُها، ولا يُؤْكَل لها دمٌ ولا لحم، وأنَّه ليس في الحياة غير الصور والخطوط والألوان، حتى أَمَاتني اعتقادي.

قال :

وكانَتْ لنا أحلام، وكان لنا في أحلامنا بيت وطفْلٌ سرقناهما للمستقبل البخيل وأخفيناهما عن الزمن وخلطناهما حتى أصبحا صديقين. وكانا يُولدان في أنفسنا مطْلَعَ الفجر، فيبقى الفجر في أنفسنا طُولَ النهار. ونمتزج، فأضلُّ فيكِ وتضلّين فيّ وتنتفي

الفروق. فالبيتُ والولدُ والفجرُ وأنتِ وأنا كلُّهَا فينا بنا.

قالت :

وقد ذهب كلُّ شيء، ولم يبق لي إلا هذه الأحلامُ لم تُدْرَك. وقد شكرتك من يوم موتي يا مدين على ما لم نُصبْ من الأماني، على وحيدِ ما بقي لي من نعمة الحياة. على مفتوح الآمالِ.

قال :

ماذا صنْعتِ من يوم دخلْتِ الموت ؟

قالت :

ما يصنعُ جميعُ الأموات : بقيتُ في الأرض وبكَيْتُ حتى كثر بكائي، وأعولْتُ حتى مللْتُ عويلي، ومزَّقْتُ روحي أشلاء. وجاءني الشيطانُ بدُولابٍ ومجانيق وآلاتٍ، فحمَلْتُ بها على أجساد الموتى قبل الدفن، لا تزالُ فيها حرارةُ الحياة، أريد أن أَتلبَّس بها لحظةً من الدهر، فلم أجد فيها منفذا ولا شِقًّا. وغلبني كمال المادة، فأسلَمْتُ وآمنْتُ.

قال :

تحدِّثُني نفسي أحيانا أنّ السماء قد أثقلَتْها الأرواحُ، فهي تَدَاعَى إلى السقوط، وأنَّ زِنةَ الأرض وثقلَها توفُّرُ الحياة، وأنَّ الإنسانَ عليها كالظَّمْآن يسبح في نهرٍ من الكَوْثَر وفَمُهُ مختوم.

قالت :

وأنت يا مدين ماذا صنْعتَ بعدي ؟

قال :

صارعْتُ الموتَ وناصرْتُ الحياة.

قالت :

احذَرْ. إنَّهُ مَنْ صارعَ الموت فقد مات.

وهبَّ نفَسٌ من الريح فخرج الطّيف. وصاح مدينُ وقد بلغَتْ به الحمّى : لا تذهبي يا أسماء.

وجعل المطَرُ يعزف فيه فيلطم الوجه، والبردُ يزلزِل العظام، فيهتزُّ له مدين كالنخل في الذّاريات. وكان أقصى النوبةِ وأشدُّها، فاصْطَكَّتْ أعضاؤُهُ فلقي الأرضَ وأهْوى.

* * *

ورأَتْهُ لَيْلَى، فتحامَلَتْ على نفسها، وقامت إليه تريد أنْ تُدْخِلَه الغرفة. وخطَت إليه خطواتٍ، فهي على رأسه إذْ خارَتْ قوَّتُها، فصاحت وسقطت على مدين :

يا هند، يا هند...

وخرجَتْ الجارية هند فاحتملَتْهُما إلى الفراش.

# الفصل الثاني

ودامت بهما الحُمَّى أياماً.وجاءهما مُمَرِّضُ المارستان، فتداوتْ ليلى، وأَبَى مدين أن يتداوى.

وصبر ثلاثاً، ثم قال : شيءٌ كالقَيْح فيَّ لا بد أَنْ ألفظَه. ثم تحامل فخرج من البيت وذهب هائما، فدخل الأَجَمَةَ، وسلك بين القصب والحلفاء. وأرسلت ليلى هنداً على إثْره لتسمع وترى.

فذهبت وعادت فقالت :

لا بأس عليه يا ليلى. إلاَّ أنَّه دواءٌ من غريب الدواء.

قالت ليلى :

تعْنِين يا هند ؟ إنّي لأخشى.

قالت :

إنّه ذهب إلى بيت " رَنْجهاد " الساحرة، يطلب إلى سحر الشِّفاء. دخل فاستلقى. ودخَلْتُ فإذا هو كخلق الثياب طريحٌ مُلْقى، وعلى رأسه رنجهادُ كَفَلَق الصبح يفضُّ ليلةً ليلاء، تحدِّثُه فتذهب منه صورةٌ وتأتي صورةٌ أخرى، فهو كبعض ليالي الصيف

البيضاءِ، السَّاكنةِ الحر والهواء، يُسْمَعُ فيها نباتُ الذرة يتدافع نُمُوًّا، متغيِّرُ الصُّوَر والحال، تحدِّثُه رنجهادُ فتزيد الصحَّةُ وتنمو النَّفْسُ والحياةِ، وتعودُ له عيناه. وكانت عليه كالآخِذ من عِدْلِ بُرٍّ، تُجِيل يدَها فوقه كالزارع يزرع الحياة.

قالت :

رَنْجهاد ؟ أَهذه التي وراءَ الأجمة في الغاب ؟

قالت :

هذه التي تُحْيِي وتُمِيت..

قالت :

وأين موقع بيتها من الغاب ؟

قالت :

على عين " سَلْهَوى "...

وذكرت ليلى أن سلهوى عينٌ حَرٌّ، ماؤها حميمٌ تسبح فيه ثعابين، ويلفظها فمٌ من صخْر، متساقطُ الأسنان، كثيرُ الهذر، ويسكت أحيانا وقد غُصَّ بالظلام، وعليها بُخارٌ لا يجري إلا وَجْهاً واحداً لا ترُدُّه ريح ولا تلويه.

وقالت هند :

ورنجهاد على العين سادِنَةٌ خادمةٌ. منها ومن بخارها وما مَلَكَتْ من قُدرة سلهوى، جاء سِرُّ سحرِها وغلبُها الموْتَ وإحياؤها الموتى.

قالت ليلى :

ماءُ العين ؟ وهل رأيتِهِ قط ؟ وهل أَصَابتْ منه يداك ؟

قالت هند :

أعوذ بسلهوى. ومَنْ ذا يقرب العيْنَ يا ليلى ؟ تُولَجُ اليدُ في الماء فتذوب وتصْعَد صُورةً في الأبخرة إلى الهواء، وتضْحَكُ منك هـزُؤاً، وتُسْمِعُ العيْن غيْظا.

قالت :

وهذا النبات الَّذي يتحدَّثُ عنه الناس ؟

قالت :

نباتُ سلهوى، نباتُ النسيان والسلوى. وبه سمّـى النـاسِ العيْـن باسمها. يقولون إنَّه كغاية الكمال، لم يَرَ له أحدٌ زيـادةً ولا نقْصـا، ولا يُغيِّرُهُ شـيءٌ ولا تُحرِّكـه ريـح، ورَقُـه مجـدولٌ، وعليـه خضـرةٌ كالغُبَار النّدِيّ، وعُروقُه كالإبر تَخِزُ قلْبَ الصخرةِ وخْـزًا... وهـو هناك إلى الأبد : لمْ يمسَّه السابقون ولـن يمسَّـه اللاحقـون، لأنـه لا يُدْرَك إلا من العين، ومَـنْ وَلجَ العيْـن خـرج منهـا بُخـاراً يضحـك هُزُؤًا.

قالت :

إني لأخشى يا هند على مدين.

قالت :

وأنا مثلك يـا ليلـى. أخـاف أن لا يكـونَ لـه عندهـا إلا كـامنُ

الحِقْـد.فقـد عـاثَ في دينهـا، وأَفَسـد النـاس عليهـا، وصرفهـم إلى مارستانه عن دوائِها سِحْرِها.

وكأنّما عاود ليلى ضائعُ إيمانٍ مضى فشخَصتْ ثم قالت :

... نعـم... لقـد كـان في نفسـه حـينَ جئْنـا هـذا البلـدَ شُـعْلَةُ الأنبيـاء. يريـدُ مَحْـقَ الأمـراضِ وإِحيـاء الموتـى. وأَقَمْنـا المارسـتان ونشرنا على الناس الـدواء. وقلنـا : إِسْلاَمُكم للعلَّـة ضعـفٌ أيهـا الجبناء...

قالت هند :

... وقطعْتُم رنجهاد عن الناس، وكـانوا قبـل لا يعْلَمُـون مداويـاً غيرَها. وكانت تصيب العلَّةُ الواحد منَّا فيذهب على حافـة الغـاب ويدعو. فتخرج رنجهادُ فتنظر إليه فتقول : اذهـب يـا هـذا. فيعلـم أنه مَرَضُ موْته، فيعود إلى بيته مُسلِمًا. ويبدأ المأْتَمُ والبكاء، وتُقَـام الجنازة والمريضُ بين الأحياء.

قالت ليلى :

وإِني لأذكر يومَ نَزَلْنا، وأَنَّا دخَلْنـا بلـداً جميـعُ أهلـه في جنـازة، والميْتُ حيٌّ قائم على المحمل يشهَد جنازتـه ويـترقب أَجَلَـه. وأَنّـي قلْتُ : إنهم مصابون... أو...

قالت هند :

وإنما كان إيماناً بقضاء رنجهاد.

قالت ليلى :

أفكانَتْ لا تقضي إلاّ بالموت ؟

قالت هند :

لا يا ليلى. فقد يأتيها بعضُ المرضى، ويدْعُوها فتخرج فتقول : أتريدُ الأبد. فيقول : إنَّه لثقلٌ ثقيلٌ. فأنا أكتفي بحياة كحياة آبائي مَدَى. فتُجيلُ يَدَها فوْقَه كالزارع، فتُعيدُ له الصحَّةَ وتُنْشيءُ الحياة.

قالت ليلى :

ولم يجرُؤْ أحدٌ قط فسأَلَهَا الخلود ؟

قالت هند :

لا يا ليلى، إنه عندنا من نَقْمة الآلهة وأليم الشَّقاء.

وأمسكت هند. وأمسكت ليلى، وقد ذهبت بها الخواطر شتَّى. وجاء الليل وتجرّعت ليلى الحيرةَ بالظلام. وقامت هند تُوقِدُ السراج. فكرهَتْ ليلى أن تتّسِع الغرفة وهي على وحدتها ترْقُب أُنْساً فلا يأتيها، فقالت :

دعي يا هند. اتركي الظلماتِ عليَّ غطاء.

وصبرَتْ حتى ذهب هزيع من الليل. ثمّ ضمَّتْهَا الواحدة إلى نفسها، وألحّ الليلُ على عينها، وألمَّ بها نومها...

# الفصل الثالث

وطلع الفجرُ، فطلع مدينُ على ليلى. فقام عند رأْسِها وقال :

هذا حُسْنُكِ لا يزال عليك، أَرَى فيه سناءَ الحياة يا ليلى.

قالت :

كذا نحن. ما تلاَقَيْنا بعد فراق إلاَّ تردَّدَتْ فينا الأفراحُ كـالقوس رنينَا.

قال :

أراكِ فأقول إنَّه لا يمـوت إلا مَـنْ حُرِمُـوا حسْـنَ الحيـاة،فهـم لا يحسُنُون إلاّ في جَلال الموت. وحسْنُك أَرضيٌّ يا ليلى.

قالت :

اجعَلْ وجْهَك يا مدين على وجهي.

وانحنى فعطفَ على وجْهِهَا، وملأَها بعينيه وجالَتْ نفْسُه فيهـا، وانتشر النورُ ورْداً وَضَحاً. وهمَّت أن تتكلم فقال :

أَمْسِكي لا تُدَنِّسي الحبَّ بالكلام. صونيه من الطِّين والظَّلام.

قالت :

هذا الصباح.

قال :

لا يا ليلى. إنَّا لا نزال في الليل... ولـن نـزال مـا دُمْنَـا نرْقَـع... مادام الطبُّ والأطباءُ يرقَعُون الحياة.

قالت :

ما قالَت رَنْجهاد ؟

قال :

رَنْجهاد لا تقول. وإنما تُسْمِعُك همسَ الغـاب وسـرَّ الأشـجار والمياه، وتصـبُّ فيـك الغنـاء صَبّـا، ويصْغُـر عنـدك الكـلام ويـذلُّ المعنى. كالواضع أذْنَه على الصخرة ليسمع الحياة مائِجَةً فيها يَبْعُـدُ عنـه سـخْفُ البشـر ويَنْسَـى. رنجهـاد لا يكـون كلامُهـا إلا وحْيـاً هَمْسًا.

قالت :

أَوَتُدَاوي بالهمس مرضاها ؟

قال :

بل تداويهم بالنسيان يا ليلى. وقد علَّمَتْني اليوم...

* * *

ووجمَتْ ليلى، وانصرف مدْيَنُ عنها إلى غريب الحديث. قال :

علَّمَتْني السكونَ وأَنَّ الحركة الدائمةَ جنون. وإنّها لامرأة غريبـةُ الشأنْ يا ليلى. دائمةُ السكوت ولو مشَتْ لا حراكَ لها. ولا يُدْرَك لقرارها نهاية، وفيها احتقارٌ للنَّاسِ غاية، وفيها أنفاسُ الأبديّـة. إذا

تكلَّمَتْ انتفى الزمانُ والفواصلُ والصورة، وجاءت كلماتُها لا سابقة ولا لاحقة، واصطفَّتْ بناءً بديعاً تحضرك معاً جميعُ أحجاره دفعة واحدةً، كالفرح الكاملِ أوملأ الحياة... أو كالحبّ يرتفع إلى الذروة، أو كقِمَمِ الثلج في الجبال تصيّرك مثلَ الزُّجَاج شفَّافا...

وسكت مدين. وانصرفت ليلى إلى عميق خواطرها، كالغائصة على نفسها. فاضطجع مدينُ إليها، كما يقع للنفس بعد القَسْوةِ اللّينُ. فقالت :

ما كرّه إليك دواءَ مَارستانك ؟ ما ذهب بك عنّي، من عالم الوجود الراضي إلى الرفض والنفْيِ.

وكان أوّل نَشْأةِ العَبْرة بعينها.

قال :

لارفْضاً ولا نفياً. إنما هو أنّي كرهْتُ أن... يرْقَعَ المرِّضُون حياتي ويرمُّوا صحَّتي بدَوائي. وإنّي لأَهُمُّ بالدواء أن أشربَهُ، فإذا هازئٌ يهزأُ من عجزي، وصوتٌ يردِّدُ على سمعي : تُرى أتكون الحياة كاملة كالموت ؟ أم لا تكون إلاّ من الناقص المُخْتَلِّ، يُرْقَع ويُرَمُّ رَقْعاً ورمًّا ؟ حتى أكاد أُجَنّ...

قالت :

يُرقع ويُرمّ أم يُستَكمَل ويُكمَّل ؟

قال :

لا. إنما يرقع ثم يُرقع...

قالت :

أولهذا أَسْلَمْتَ ؟ أله كفرْتَ بنفسك وجحدت تطبيبك، وتناسيت أنّك صاحب المارستان طبيبُه...واسغثت ساحرة ؟ أَوَ داخَلَك الخوف ؟ أم جاءَتْ خشيةُ المَوت يا مدين.

* * *

فأمسك مدين وابتسم. وقالت ليلى وقد اضطربت نفسُها :

ولَكَنَّهم بعد الّذي صنعْتَ اليوم، سيكفرون جميعا بتطبيبك ومارستانك ودوائك وسيعودون إلى السحر والساحرة، وتبقى أنت وحدَك خلاء قَفْرًا.

قال :

لا أراهم فاعلين. بل لَنْ يفعلوا. لأنها هي التي من اليوم ستأتيهم... ويرونها... إن شاؤوا. ويبرؤون أو يموتون. هذا عندي سَوَاء.

قالت :

تُهْمِلُ مرضاك ورنجهادُ تأتي المارستان ؟ أفأُصِبْتَ يا مدين ؟

قال :

لا تظّني سوءً يا ليلى. إنَّها تأتي لغير مداواة المرضى. لتساعدني على تركيب دوائي. لعلّي أستريح من هذا البحث الّذي أَكَلَني وأَنْهك عمري. وقد رأيتهَا الليلة، فرأيْتُ في تركيب الدواء وجْهاً جديدا...

قالت :

رنجهاد أوْحت إليك ؟

قال :

بل علّمتني.

قالت :

سِحْرَهَا ؟

قال :

لا. بل أَنْ لا بد أن أطهّر من الزمان دوائي.

قالت :

لقد أُصِبْتَ حتى بمنطقها يا مدين.

قال :

ومع ذلك فهو كما قلت : لابد من حذف الزمان مُقَوِّماً للحياة يا ليلى. فهو الّذي أَوَجَد الحركة، والّذي تورِثُه الحركةُ هــو النفـادُ يا ليلى. لأنه كل متحرك فاسدٌ نافد. وإن الزمان لكالرَّحَى الدائمةِ الرحْي، لابدَّ من كسْرها حتى تأمنَ الحبة ويطمئنَّ الكيان.

قالت :

وإذا كره الزمانُ أَنْ يُطْـرَد ويُـرَدَّ هكـذا كالسـائل المحـروم ؟ إذا انتقم الزمان يا مدين ؟

قال :

لابدّ من كسرِ الزمان، أو تشويش دواليبه، حتى يختلطَ ويهــذيَ كالسكران، طوْعا أو كَرْهَا.

قالت :

وتنْسَى يا مَدين أن الزمان سنَّةٌ حَتْمٌ : سُنّةُ الله، سنّةُ الكيان، سنّة الموت، طيًّا فطيًّا.

قال :

سنّةُ الخدعة. إنّه لم يُكَرِّه إليَّ الموْتَ إلاَّ أنَّه سرقة وافتراءٌ واحتيال... بل انظري هذا الكوكب في أقصى الأفق الغربيّ يتردَّدُ فيه النور. أترْيَنه حيًّا أم رماداً تتراماه أرجاءُ السماء ميْتاً ؟... نَرى نُوره متحرِّكاً حيًّا وهو لعلَّهُ منذ دهور قد اندثر وزال ومات، ولم يبْقَ إلا النور والكوكبُ فات ؟

قالت :

وتظنّ أن بقاء الروح بعد الموت زمان ؟

قال :

بهذا يا ليلى تحدّثني نفسي منذ ليلة الحُمّى. فكأني بالروح وقد تخلَّصَتْ من الجسد واجتازت الدنيا إلى الآخرة، فذهبت هائمةً يسكنها الزمان وتُحيِّرها الذكرى، ويزورها ما انقضى من حياتها، ويتحرك فيها ما ضاع من آراءٍ وأحلامٍ وأفراح. إلى الأبد. فإذا همَّتْ أن تقف وتستريح لدغَتْها عقربُ الزمان فسارَتْ.

وكنت أظنُّ الموت ذروةَ الآلام وكمالَ الحياة والراحةَ الكبرى. كالذي يكون في أقصى العذاب وكمال النعيم. لكنَّ الزمان وراءَ الروح، يذكّر ويزرع الندامة والأَسى والولَه والحسرة. وهذه هي

الخِدْعةُ يا ليلى والختلُ والحيلـة. هـذا المـوتُ الّـذي يعيـد الحيـاةَ في صورة شوهاءَ قبيحة، ويعجـز أن يكـون مصبَّهـا ومقرَّهـا وأقصـى دَرجـات قرارِهـا سـكونَا، ويُثْقِلُهـا ذكريـاتٍ وأسـفاً علـى الجسـد وافتقاداً لماضي الوجـود ولوعـة... وقـد بَلـيِ الجسـدُ وفنِيَـتْ كـلُّ حياة.

سمعتْ ليلى وأمسكَتْ. وسكت مدين ساعةً ثم قال :

ألا تَرَيْنَ هذا النورَ الناشئ، وهـذه الألـوانَ تـرِفُّ كالطـير علـى ذُرَى الأشجار ؟... لكـأَنَّ الدنيـا جميعـا تشـكو اضطـراب العليـل القُلَّب. أفلا تهدأُ ؟ ألا تسكن ؟

* * *

قالت ليلى :

لقد سقطت عني الحمى وانقضى الليل. أَفلا نستَقْبل النهار ؟

وقامت وهي تصلح من ثيابها، وقام مدين، وخرجا إلَى الشـرفة وَجْهَ الصباح...

فنفذ النور من مبذل ليلى شُفُوفاً، فارتدَّتْ به طيْفاً مـن الزجـاج خفيفًا.

# الفصل الرّابع

وجلسَتْ ليلى إلَى لِين الهواء آخِرَ عشيٍّ رقيقِ الشـمسِ والنّـور. وجلس إليها مدين في اطمئنانٍ وسُكون.

قالت :

في مثل هذا العشيّ...

وصرفت إليه وَجْهاً كعابد الأصنـام إلَى الأصنـام، فـإذا هـو في صمته وسكونه التمثالُ نِصْبَةً واستغلاقا وغموضًـا. ولكـنّ العـابد يتضرَّعُ ويدعو، ولا يبالي أتَسْمَع الآلهةُ أم لا تسمع.

قالت :

في مثل هذَا العشيّ، في يوم من أيام الخريف، منذ أربع سنوات. أَتذكُرُ يا مدين ؟...

ولكنَّ مدينَ في مَحْبِسٍ من المشكلات، فنفْسُه في الأصفاد.

قالت :

يومٌ باردٌ كثيرُ الرياح، فيه كآبةٌ وأَلم، وفيه اتّساعٌ وفراغ. كأَنّـه الكون وقد أَقْفَر وأوحش. وكان عشيُّه عَشِيًّا تَحِنُّ فيـه النفـوس أَنْ تَطْلَق من عقالها فتذْهب سائمةً على وجهها، وتكـثر فيـه الأشـباحُ

على ضفاف النهر شتّى... وإنَّ النهرَ لبَيْنَ يـديَّ، وان الغيـم لَعلـى النهرِ والمدينةِ وأهلِهَا، يكدِّرُها جميعاً، والأشباحُ في ردائه كالخيال. يأخذُها نورُ مصباحٍ من مصابيح المَحجَّـات، فيُخْرِجُهـا مـن الخيـال لحظةً فيدفَعُها إلى الحقِّ دفعًا، ثم تعود إلى الخيـال تـذوب. وتلتقـي السـائمة بالسـائمة تجمَعُهُمَـا الأُخـوَّة في الغيـم،فتتحدَّثـان أغـرب الأحاديث، وتكسران الكلام، وتسـخران مـن عجـزه، وتشوّشـان من أوتاره، وينحلّ الحديث من عقاله فيتبدَّدُ في نفسه...

وتَاقَتْ نفسي في ذلك العشيِّ أَنْ تطْلَقَ فسامَتْ، وتاقت نفسُـك فسامت مثل نفسي. وأَخَذَنَا الغيمُ وسار بنا، فقادني إليـك وقـادك إليّ، حتى جَمَعَنَا فالتقينا على ضفَّةِ النهر في مُنْعَطَفٍ خالٍ تَنُوح فيه المياه، ولا يجرؤ عليه إلا مَنْ تيقَّظَتْ فيه دواعي الغيب فجـاء يقتـل نفْسَه ويغسل جثَّته في النهر. ووقفنا فقلـت أنـت : أَودُّ لـو يطـول الليلُ ولا ينكشف الغيم. وقلت أنـا : أود لـو يكـون فيَّ ليلـي فـلا يكون أُنْسُـه لغـيري، وغمـي فيَّ فـلا ينكشـف عنِّـي. ثـم تعارَفْنَـا، فذهبنـا إلى حديقـةٍ عاليـةٍ وحيـدة، ذاتِ بـؤسٍ وخـلاءٍ ووحشــة، وقعَتْ لنا ولا ندري أَيْنَ تقع. وجلسنا هناك على مقْعَدٍ من رخام، صلْبٍ قاسٍ وباردٍ طاهرٍ كالثلج. وجعلنا نَرْمـي في الغيـب بـأحلام وآمال مُتَّفِقةٍ متناقضةٍ، بعيدةِ المدى قاصية المسافة. وحدَّثَتْـني بمـا لا يتوقَّعُه العقل ويَصْغُرُ عنده الخيالُ ويَكْبُو. وقُلْتَ كلامـاً قاسـياً فيـه كبرد الحصى صبـاحَ قـرّ. وكـانَتْ أحلامُنـا مـن أغـرب الأحـلام، وكلامُنَا من أغرب الكلام. فكأننا نهوي إلى فوق...

وقد كان منك ما كان في هذه الأيـام يـا مديـن، فذكَـرْتُ بـردَ ذلك العشيِّ وغيْمَه، وطَيْفَ حديقة الأحلام...

قال مدين وقد استذكر :

نعم، وكنّا خرجْنَا ذلك العشيَّ تطلبين ما قُـدِّرَ لـكِ مـن شـأن، وأطلبُ ما قُدِّرَ لي من شأن، في هذه الحياة...

قالت :

وقد قَتَلْتَ حديقةَ الأحلام يا مدين.

قال :

وقَتَلْتُ غيرَهَا كثيرا.

* * *

قالت :

وقد كُنْتَ تقول كلاماً بديعًا. كُنْـتَ تقـول إنَّـك في حاجـة إلى الزعـازع المُدَمِّـرات، لا تسْـتقيمُ لـك بدونهـا الحيـاة، وإنّ عــاديَّ الأحوال وخفَضَ العيـش مَذْهَبَـةٌ لنـارك، وإن لـك مـزاجَ إلـهٍ، بـه حاجةٌ دائمة إلى أَنْ ينْفلِقَ شيءٌ ويتميّز، وتـدْوِيَ الدوايـاتُ دَوِيًّـا. وكنت تقول : هي سُنّة التقلُّب والتحَـوّل. وليـس في الكـون قـوةٌ ولا بأس، ما لم يَصِـرْ عـدمٌ إلى وجـود أو وجـودٌ إلى عـدم. مـا لم ينقلب و لم ينكسر و لم يلد و لم يتحوّل.

قال :

لقد كُنْتُ حينئذ يـا ليلـى كـالفُلْك لا تثْبُـتُ إلاَّ علـى الأعمـاق

والأغوار... وكان ينصرف فكري إلى هذه الأعماق في استطاعَتِها أَنْ تدعو الفُلْك أو تهوي بها إلى الغور ولا تهوي، فأجد فيه كالدّوار والغشية. وكنت أظنُّ أَنِّي لا أسيرُ والأعماقَ إلا سكَنني الدوارُ، وأنستْنِي الغشيةُ الخوف... ثم فتحت عيني فإذا دعوةُ الأعماق كاذبة، وإذا سُنَّة التحوُّلِ وما حسبْتُ لها من قوّةٍ سنّةٌ كاذبة وإذا أَنْتِ أيضا... وترْكِتني أنتِ يا ليلى على خَلْوةٍ بنفسي، وكفَرْتُ وذهب إيماني بالأعماق وقُوّةِ التحوّل. ولم تبق لي غشْيةٌ سواك ولا نسيانٌ يا ليلى.

قالت :

وإنَّك لم تطلُبْ غيرَ الدُّوار والغشية من يوم عرفْتُكَ يا مدين... وقد سألتني بالحديقة عشيَّ الغَيْم، أن لا أسألك لماذا تذْهب في حياتك مذْهب متعمِّدِ النسيان طالبه، فأَقسْمتُ لك بذلك. ونظرت فلمحْتُ في عينك كسواد الحِدَاد، فأدركْتُ ما طويْتَ عنك في نفسك وأمسكت عنك. ولكنّي طلبْتُ السرّ حتّى عرفت قصّتك مع أسماء. ثم رأيتك تتناسى وتُنْسي، فغضَضْتُ وتناسيْت.

وسكتت ليلى كالواجد قديمَ أَلمٍ كان غلبه في النفس فأذْكَتْه الذكرى. لحظةً. ثم قالت :

... ثم رأيتك بعد ذلك، وقد زففتَ كالطائر أو كَسْرتَ من جناحيك تنقضّ، وأنت تقول : إن الحركةَ والسرعة تخفي عن العين شيئاً كثيرا، وتخلطُ ألوان قوس قزحٍ فتجعلها بياضًا، فلعلها تُخفِيني عن عيني وتخلطني بنفسي حتى تُعْمِيني. وذهَبْتَ في عَدْوِ

الفرسِ السبوح، وتمَّردْت على الثقل والإبطاء، وجئتني بأقصى القُّوة والحُسن.

وسكتت ليلى كالواجد اللذّة يسكن فيها.

قال :

لقد حسبْتُ مثلك يا ليلى أنَّها سكرة ليس كمثلها سكرة، وأَنَّها كمالُ النسيان والغشية. ثم نظَرْتُ فإذا الأحلام فانيةٌ والأماني، تَرْحِيها شديداً رحى الزمان، وتذْرُو هباءَها لياليَّ وأيَّامي. فصغر عندي شأنُ " كبير الأطَباء " وما ابتكَرْتُ من الدواء، وما غلبْتُ من الأَدْواء. وثقُلَ عليَّ انكساري أمام الفناء وعجزي. وكرهْتُ حياتي وأبغضت نفسي.

قالت :

وجئتني مساءً وقد فُلَّ إيمانك، فكانت لنا ثلاث ليال أرقا أليما. ثم إذا أنت قد تخلَّصْتَ وقمْتَ من الحُطام، كالمبعوثِ تجتمع له العظام، ولّما يزَلْ يتصاعد من دمارك دُخانُ ما حطّمك من نارك... وأدركْتُ أَنّك لم تنس أسماء... ثم طلع علينا الفجر بالرحيل، فسِرْنَا حتى نزلنا هذه البلاد. وقلْتَ : هذي بلاد الموت وهذا يوم الجهاد. وأقسْمتَ لتصِلَنَّ إلى تركيب دواء يجعل الحيَّ كالجماد بل كالرخام لا يُخْشَى عليه نفاد. وتحولت عَلَيَّ وعنِّي، وطَلَبْتُك فلم أجِدْك.

* * *

قال :

وقد طلبْتُ نفسي فلم أجدها، يوم نزلنا هذه البلاد، فقلت وظننت : هو خلقٌ مُعاد.

قالت :

ولكنّي لم أفتأْ يا مدين استقصيك حتى لحقْتُك. كالأمر المنسيِّ تُضيع ذكراه ثم يعود إليك على مهل. فإذا أنت قد جعَلْت كلَّ شيء سبباً إلى الفعل. وصار عندك كلّ ما سواك من ناسٍ وغيرِ ناس كقطع اللُّعَب أو خيالا أو لَعِباً محضا. وإذا أنت قد حصرْتَ همَّك في مطاردة عَدوِّك الموت، وجعلت كلّ مريضٍ وكلَّ مَرَضٍ سبباً إلى ذلك وكلَّ شيءٍ سواك.

قال :

نعم يا ليلى، كلَّ شيءٍ وأَحد. ما استثنيْتُ إلّاكِ.

قالت :

وإن استثْنَيْتَ فيَّ إلا غشيةً لك ونسيانا، كانا أصدقَ من الحركة والقوة والسرعة، تمدُّ منهما فيَّ سببا إلى الفعل يا مدين. ضُعْتَ عَنّي المرّةَ الأولى، حتى رأيتُك كالمقهور ضاع رشده واختلط عليه أمره، ثم أدرَكْتك قبل أن تفوتني بلا رجعة. ثم ضعت عنّي ثانية من مساء الحمى. فهل أُدركُك ثانيةً كما أدركتك أولى ؟

قال :

مساءِ الحمّى علِمْتُ فيه يا ليلى أن كلّ ميتٍ يُخْلِف بين الأحياء

ميْتا... وعلمتُ أن الأموات تصارع الزمان صراعا. وقلت : الفعل من الحركة، وليس مثلها عذاب، وليس كالزمان محرّك. ثم قلت : أليس أَنَّ في الوجود اعتدالاَ ؟ أليس الحيُّ والكون كلُّه تَوْقاً إلى اعتدال السكونِ واجبِ الوجود ؟ فإن بلغه الحيُّ كان الإسلامُ والجمود، وكانَ الشقاءُ والأبدُ الخُلود...

قالت وعيناها هائمتان في أبعدَ من الغيب :

كذا. إنَّه يا مدين إذا اتَّسَع الفكرُ فغشَّى على الحياة كلِّها، فقد أَمَات وسكن إلى الجمود ومات.. وها أنت في طريق النهاية. وإنَّ أخشى ما أخشى عليك يا مدين أن يكون السكونُ هو العدم.

قال :

وإن كان، فهل ترَيْن للَعدم بداية أو طولاً أونهاية ؟ أليس هو ضد الزمان ؟ أليس هو أبد الأبد ؟ القرار الّذي لا يتغيَّر ولا يتحرَّك، ولا يحْدُث ولا يزول. الكلُّ في حضرة الكلّ، ليس لحقِيقَتِه اسمٌ ولا لأَبْعاده حدّ...

ووجم مدين لحظةً ثم قال في همْسٍ بعيد :

ليقَعَنَّ لي سرُّ الجمود البقاء والأبدِ القرار، وَلأُفنيَنَّ الموت أو أفنينَّ الحياة. ويكون أخرَ عزمي وجهدي...

* * *

وقام مدين كمن تيقَّظَ فيه داعٍ جبَّارٌ لا تُرَدُّ له دعوة. وتوتَّر واشتدّ. فادركَتْ ليلى أَنَّه تاق إلى الغاب. فقالت :

إني أجد الغابَ يدعوك. فاذهَبْ يا مدين ودَعْني. فهو عشيٌّ تحنُّ فيه النفوس أن تطلق من عقالها، فتذْهبَ سائمةً على وجهها ناشدةً قرارَها المفقود...

وقبل أن يسمعَها ارتمى إلى الغاب وطلق شيءٌ في نفسه... وسمعت ليلى من الغاب رقيقَ تَوْقٍ ودعواتٍ عظامًا، وأحسَّت منها كشديد العناق. وذهب مدين كالمسرع إلى الوصال. ودخل تحت شعور الأشجار، كالداخل على عرائِسَ أَبْكار.

ولم تصبرْ ليلى فقامت ودخلت إِثْرَه عالَمَ الغاب.

وأوغلا معاً في الجُنُون الفِرَار.

# الفصل الخامس

وسار مدين في الغـاب يقـوده طريـق لغزٌ بـين أَلْفَـاف الشّـجر. ولكنّ الطريقَ تعلـم مـا غايتُهَـا والنهايـة، ومدين هـائمٌ على غـير هُدى. انصرف من بيته فَعَدَا. ثم تمهّل فمشى. وخـرج مـن بـاطن دويِّه فأَصْغى، فإذا الغابُ ساكنٌ ثقيـلٌ أَثْقـلُ مـن رضـوى. وذُعِـر مدين ثم تجرَّأَ فتمادى، وتبعه الصّمْتُ والسكونُ يطلـب في الغـاب حركةً أو حياةً، فارتَدَّ حسيراً خاسئا. وتضاحك الخـوْفُ في قلـب مدين هازئًا. وقال مدين : أمات الوحـوشُ ومـات الشـجرُ ومـات الطيْرُ ومات الماء ؟ واحتاج إلى الأُنْس، فتكلَّم وقال قـولاً فاحشًـا، فردّه الصمْتُ على وجهه كالصَّفْعة الصاعقة. ووقع كلامه في سمعه فأوْقَعَ فيه فزعا. وتصوَّر لـه ضعْـفُ بدنـه، ومـا أَفْنَـتِ الحُمّـى مـن قوته، فكاد يسقط لوجهـه. ثـم اشـتد الذعـر، فعـادت إلَـى مديـن القوى، وانطلق يعدُو عدْوًا.

وأصغى فإذا لِخُطاه جلاجلُ ذاتُ جلجلـة، سمعهـا كمـا يُسْـمَع الصوتُ البعيد تكذبـه الأذنُ أَوَّلاَ ثـم دنَـتْ منـه وبـانَـتْ أَجْراسُـها فطغى على خوفه الأُنْسُ بهَا، ونشأَتْ في نفسه محبَّةٌ لها وقال : إني لها صديقٌ وهي لي أَصْدقاء. واتَّسَع ما ضاق من الغاب، وتراجَعتِ

الأشجار وانحلَّتْ أَلْفافُها. وتخيَّلَتْ لمدين محجّةٌ واسعَةٌ بيِّنـةٌ مستويةٌ كـبرى. كـالخطِّ الراقـد يُريـحُ مـن عنـاء الطريـق القـائم صُعُـدًا. وهمسَتْ هاتفَةُ ليلةِ الحُمّى. فعـرف مديـن صـوت أسمـاء، وقـال : هي ظلّي أو أنا ظلُّها.

* * *

وهتفت أسماء :

هذه الطريقُ هي الطريق العظمى. تقتضي سرْعَةَ الطير أو خُطَـى العماليق. وقد حلْلتَ بها يا مدين وأخذَتْك روحُها. فحسبْتَ أنك تسير وأنك تتقـدم، كجميـع الّذيـن يُصِيبـون سـبيلاً، تنشـأ فيهـم حركةُ المسافر الراحـلِ وشـوقُ الرحيـلِ والتّيـه، وان كـانُوا ممـن لم يبرَحْ بيتَه قط. والّذي بك يا مدين أَنَّ الطرق حديدَةُ النَّفَس طيّـارةٌ زفّافة بما فيها من تَوق إلى الإيغال والإبْعاد، توّاقَةٌ إلى الأَبْعاد والتيه. ولكنك لا تعرف ما الغايةُ ولا الوجه. وتريـد مـع ذلـك أنْ تنتهـي وتستِقرّ. لا كأبناءِ السبيل يعشقون السـبيلَ ويـبرمون بـالمنزل، ولا يسألون المحجّة الواضحة، ولا الثنِيَّةَ بين الجبال سـارحة، ولا العقبـةَ النازحة، نهايةً ولا غاية. أولئك أصحاب الطريـق تحبُّهُـم ويحبُّونهـا. وأما أنت فمـن أصحـاب المنـازل يـا مديـن. أُطْـرِدْتَ مـن مـنزلك وسارَتْ بك الطريق، فسْرتَ وعيناك إلى الوراء، نازعتان إلى منزل فات. وليس من أبناء السبيل مَنْ كان منه أَثْناءَ السير الْتِفات. فأثْنِ سبيلَك إن استطعت... ولكنَّ الطرق لا تُثْنَى كما تُثَنَّى الحبال.

وسكَتتِ الهاتفةُ وردّد سَمْعُ مدين : الطرق لاتثنى، والكائن زمانٌ فَوْتٌ لاَ يقِفُ ولا يعود...

وانصرفت الهاتفـةُ وصـاح مديـن وانصـرف في إثرهـا، وأنفـاس الغاب تطويها : لا تدَعِيني يا أسماء. وحـام بصـرُه ومشـيَتُه حَيْرةً. وهمسَتْ رنجهاد :

هذه دنياي، فادخلها يا مدين آمِنًا.

* * *

والْتفَتَ مبغوتـا، فـإذا رنهجـاد بـين يديـه، كأنّمـا تولّـدَتْ مـن الأرضِ أوحطَّها الخيالُ إليـه. وسـقَطَ عـن مديـن العنـاء، كالطـائر ينحـطُّ مـن السـماء. ونظـر فـإذا فضـاءٌ في الغـاب بـين الأشـــجار كالفِناء، والأشجارُ حوله دائرةٌ مُؤْتَلِفة، كسواري المسجد خاشعة. وضاء وجهُ رنجهاد باسمًا. وأرسلَتْ يَدَهَـا بأَنْفـاحٍ كغريـب المسْـك فائحة. واختلط الحقُّ بالباطل، وتحركَتِ الأشجارُ والأرضُ مـائدة. وتميّزت نفسُ مدين أشتاتا، وصاح مُتَّسِعًا :

الآنَ ماجَتِ الحياة، فانسابَ فيَّ جَمٌّ من الثعـابين، وغَنّـى الطـيرُ، وطـابت الثّمـار، ونتـأتِ الجبـالُ، وسـالت الأنهـار. أفهـي الكـثرةُ والاتحادُ بالكون ؟

وقالت رنجهاد :

إنمـا هـي مقدِّمـة التخلُّـص مـن الحِـسّ والأَلم والفَـرَح، مقدِّمـــةُ

الجمود. ولن تتحِّدَ بالكون أو تتبدَّدَ فيه حتى يطهر معدنُك وتتخلَّص من أعلاقك.

وصرف مدينُ إلى رنجهاد وجْهاً حائلاً وعيْناً بعيدَةَ الغَوْر. فرقَّت له وقالت :

أهو الدوارُ قد غشِيَك يا مدين ؟

ثم نظرت فإذا هو ثابتُ الجَسَد ليس فيه تَدَاعٍ، فقالت :

إن كنْتَ ثابتَ الباطن أيضا فقد فُزتَ. وكلُّ مَنْ أشرف على عميق الهوايا، فنظر إلى الأعماق ورأى الدُّوارَ بعينه ومع ذلك لَمْ يَخْشَ هاويةً ولا دوارًا، فقد غلب الهوايا وأمن الدوارَ. إنك أهلٌ يا مدين أن يُؤْذَن لك فتدخل عالَمَ النسيان والخلود.

وأخذته من يده وقالت :

وسأبلوك يا مدين، وسترى عجباً كثيرا فلا تسأل في شيء.واعلم أن الحقّ يأبي أن يقع للنفس من سبيل المعاني ومنطق البشر. وأنه ليس من حقّ إلا ما وقع لك فأعجزَ اللفظَ وكذَّب العقلَ وخلا عن معنى.

* * *

وسارت به في الغاب سيراً حثيثاً. والغاب حولهما في سكون الأَزل. وكأنما انتفى الصوتُ، فالحركةُ خرساءُ صمّاء، وخطاهما لا يَسْمَعَان لها وقْعا.

ومضت ساعةٌ ومدين يُسْرع ورنجهادُ تحثُّ السيرَ حثّا.

وأعيى مدينُ فوقف، فقالت :

لقد ذرعْتَ السيرَ بذَرْع الزمن وقسْتَه. وإنما الإعياءُ ذكرى.

قال :

لقد طال عليّ وبَلَغْتُ جهدي.

قالت :

كذا تطولُ على الأحياءِ حياتُهُمْ، فينقضي الجَهْد ويكون الإعياء... وإنّ نِهايةَ الوجود الأبد، وإنما البقاء الأزل.

قال :

أَوَلم تُعْيِي ؟

قالت :

إنه مَنْ كان فيه السكونُ لا يعرفُ الإعياء.

ثم قالت :

أتريد يا مدين مُسْتَراحاً أم مسْتَقَرًّا ؟

قال :

إذا لم تكن النهاية، فمستراحاً لساعة.

ثم دخلا مُشْتَبَكاً من الغاب كأنّه قتلٌ شديد، وقالت : سَتَرى الكهْف. وأَفْرَجت الأشجارُ كصفوفِ المقاتلين تفِرّ. وتقدَّم جبلٌ من صخرٍ صَلْصَال فيه فوْهَةٌ من ظلامٍ لا يُقْصِيها بصر. وقالت رنجهاد : هذا كهْفُ النائمين.

وأومأت فوقف الجبل وسكن الظلام وكان قبْلُ دخاناً يدور كالزوبع. ثم جلسَتْ رنجهاد وقالت :

ادخُلْ يا مدين فاسْتَرِحْ من عنائك.

وذهب مدينُ كالمدفوع لا يملك للدَّفْعِ رَداً. وانغلق عليه الظلامُ فتَلَقَّمه الكهف. وكان منه كالنوم وليس نَوْمًا، وإنما اغتمضَتْ عيناه وفتر الجسمُ لحظة. وانفصل عن رنجهاد صوتُها وتبع مدينَ إلى الكهْف. وجاء مدينَ حُلمٌ. وإنما تقول رنجهاد ويتلقّى عنها همْسا. قالت :

لقد نزلْتَ كهْف الذين ذهبَتْ أرواحهم ولم تُمتْ أجسادُهم. كهْفاً اجتمعت فيه ظلالُ الموتى مغلولةً إلى الموتى. كنفسك من يوم ماتت أسماءُ يا مدين.

قال :

أَوَتبعَتْ روحي روحَ أسماء ظِلاًّ ؟

قالت :

نعم، من ساعة ماتت.

قال :

ولِمَ ماتت أسماء ؟

قالت :

لتُخلِّفَك بين الأحياء ميْتا وتبعَها روحُك ظِلاًّ، ويتمَّ التسلسل وتحقَّ كلمةُ الموت على الكائنات. ويعلم الناس أَنَّها مَهدٌ ومَهدَمُ،

وأَنَّه لا تنهارُ لبِنَةٌ إلا هارتْ وتَبعتْها أخرى. وقد تبِعْتَ روحَ أسماء فنِمْتَ على الدنيا. واستبدَّتْ عليك كالذَّات على الظِلِّ ظُلمًا. فلا أنت من أهل الموت، وقد نِلْتَ ما نالوا من فَنَاء، ولا أنت من أهل الحياة، لك مثل نصيبهم غفلة.

وسكَتَت رنجهاد، فدار الظلامُ كالرَّحى على قطبه وهمهَمَتْ أرواحُه همْسا : لقد نمْتَ فينا يا مدين بهذا الكهف عن الدنيا. واستدارَتِ الأرواحُ الظِلالُ وهبَّتْ. فالتوَتْ ريحاً خَجُوجاً وهفَّتْ، واستيقظ مدينُ هزًّا وذُعْرًا.

فقالت رنجهاد :

ألك يا مدين في ساعةٍ أخرى ؟

فاندفع فارًّا من الكهف وقال :

يا رنجهاد غوْثَك...

فأخذته من يده وقالت :

إذن نعاود السير.

قال :

نعم، إلى النبات وسلهوى والعين. إلى الخلاص، إلى النهاية.

# الفصل السادس

وذهبت رنجهادُ بمدينَ متوغّلةً في الغاب، فقطَعتْ به مسافاتٍ كأنّها العصور طولاً. وخُيِّل لمدين أنّ له جناحاً وأنه يطير في الزمان. أو أنه ساكنٌ مستقرٌّ والزمانُ من تحته يمرّ. وذكر نفْسَه فرآها كما يُرى الشبَحُ في أقصى أفق الفكر، فكأَنَّه عُمِّر قرونا، أو مات وبُعِث بعد عصورٍ، رميمًا.

وقالت رنجهاد :

لقد قربنا يا مدين من الموت.

فقال مدين :

أطال الزمان أم طالَتْ نفسي ؟

قالت :

هو الزمان. لم يطُلْ، وإنما كثر عليك، وأزفَّ فيك واحتدَّ بك سَوْرًا.

ودخلا في كونٍ غريبٍ روحُه السرعة. ينشأ فيه النباتُ فيتصاعد إلى السماء، ثم يهيف فيذبل ويَيْبَسُ فيتساقط، في طرْفةِ عيْن. وتجرى الأنهارُ ثم تغور فتمّحي، وتعزف الرِّياح العاصفات ثم

تفنى وتسكن، وتُخْلَق الوحوش والطيُورُ والهوامُّ فتمرُّ سراعاً وتبلى. في لحظةِ بَرْق.

ووجد مدينٌ في نفسه التواءً كالتواء الإعْصَار الشديدة وإِعْجَاجاً، وأدرك أَنَّها حركةُ الزمان في نفسه دُوَارًا.

قالت رنجهاد :

هذا عَالَمُ الزمانِ المطلقِ. يجتمعُ فيه لكلّ مخلوق المولدُ والحياةُ والموتُ في لحظةٍ، فلا يبقى. عجلتُه في الدنيا بُطْءٌ، وهي هنا سرعة. هذا عالم الموت والأبد.

وطغى الدوران في نفس مدين وكادَتْ تصيبهُ غشْيه.

فقال :

يا رنجهاد بلغْتُ جهدي.

قالت : تريد مستراحاً أم مُستقَرًّا ؟

قال :

إنّه لا مستقرّ اليوم قبل النهاية.

قالت :

إذن، مستراحاً لساعة.

* * *

وخرّ مدين فوقع لِيَدِهِ ووجهه.وسكَنتْ فيه أعاصيرُه.وهتَفتْ رنجهاد في نفسه :

لقد كان الموت انتقاماً من الإنسان وثَأرًا، لِمَا اختصَّ بالعظمة والجمال والطهارة.

خلق سلهوى العالَمِين في ستِّ ليال، وكانت السادسةُ أشدَّهُنَّ عليه ظلاماً قَتَامًا. وكاد يُدركه الإعياءُ مَلاَلاً وسآمة. فقال : أيتها الأكوانُ كُوني.ثم طلَع الفجرُ فنظر، فإذا الكون نورٌ ونار، إلا الأرضَ اجتمَعتْ فيها الأقذار. فحرَّكَها فَغَلَتْ كالقدر وفاضت بمثل ذوب البراكين نفْطاً وجيَفاً وأدراناً وقَطِراناً وقارًا، ودَنَساً وقُبْحاً وفظاعةً وعارًا. وعلم سلهوى أنَّ ماخلق من حياة انحصر في الأدْنَاس وتخمُّرِ الأقذار وتعفُّن الجَيف والفَرْث. وتصاعد إليه من أرجاء الأرض عَفَنٌ وصِنّةٌ ونُتْن. فقال وقد داخله اليأسُ وعاف : لقد خاب أمَلي وحبط خَلْقي. واستوى على العرش ستة أيام بلياليها. وأطرق واجما، وأغرق في الفكر يطلب مخرجا من الخيْبَة. وعمّ الكوْنَ غيْمٌ. ثم جاء سابعُ يومٍ فانقضى الكَدَرُ وذهب الفِكْر والغَيْم. وقام سلهوى فخلق الإنسانَ. وأَرْسَلَه صورةً من نورٍ لا فخَّاراً صلصالاَ. وقال : كن طهارةً وعظمةً وجمالاَ.

وهاجَتِ الأرضُ غِيرةً وحسَداً واشتدَّتْ. وتجمَّعَتْ تريد الإنسان أن تحطِّمَه وانقضَّتْ. فأرخى سلهوى على الإنسان جناحَه. وقال: أنْتَ أمَلي من خلقي، وسِرّي في أكواني، وأنت الواحِدُ الأَوْحَد، والجمالُ والسلوى، وليس سواك مَعْنَى.

وكتمتها على سلهوى الأرضُ غيظا...

ثم جاءتْهُ ليلةً في هالةٍ من النُّتْنِ تُعْمِــي. فجلسَـتْ قـرب العـرش وقالت : يا سلهوى هــذا يـوم حِسَـابك وحسـابي. خلقْتَـني مـادّةً طيناً. وخلقْتَه فجعلْتَه صـورةً نـورًا. وخصصْتَـني بـالدَّنَس والقبـح، وخصصْتَـه بالطهـارة والحسـن. وظَنَنْـتَ أنـك غلبْتَـني وتداركْتَـــني وسلَوْتَ عني وإنما أنت يفرّ من القتال، ويقول فرّ مـني فأنـا القـاهر الغالب. فهَلاَّ أودعْتَني طهارة ومزجْتَ طينتي نُورا، وكسـوْتَني مـن الجمـال صـورة. ولكنـك صـوَّرْتَ في النـور، وطهَّـرْت النـور، وحسَّنْت النور، لا تخرج من الوهم والفراغ والمعنى.

وإن هو إلا خيال. كالخاطر بالبال أو الآل بالقيْعَة.

كذلك قالت الأرض، ثم انفجرَتْ فغشَّتْ على سلهوى نُتْنَا.

وانصرفت فقال : إنه لا يُعجز سلهوى معجز، وقال : لَأكْسُوَنَّ المادَّة حُسْنًا وأرزقنَّها طهرا. وقام فملأ صورة النور طينًا.

* * *

وكان للأرض يوم...

انتفخـت فتنفّسَـتْ، فعصـف العَفَــنُ عصْفــاً وصــاحت طَربــاً ورقصت جنونــا، وكـان لهـا علـى سـلهوى غلَبَـةٌ وصَوْلـة. ونظـر سلهوى فإذا صورةُ النور قد ثقلـت وتدلَّـت، بمـا فيهـا مـن طـين، كالوطب. وهبط آدمُ الأرض. وذهب عن الإنسان الجمالُ، وجاءَهُ القبحُ مـع الطـين والتخمُّـرُ والمـوتُ. وأهـوى سـلهوى في القنـوط

والحَسْرة. ثم قال سلهوى : لَيُغْلَبَنَّ الموتُ بالحبِّ والحَمْلِ والوَضْع. وصحَبتْ آدمَ حواءُ.

ثم مات من بني آدم أولُ ميت. فصلّت الأرْضُ على قابيلَ واتّخذَتْ وليمة. ودعَتِ الأكوانَ إلى ليلةٍ من لياليها. وقامت فقالت : انظروا الدود يأكلُ العفَن. وتنشّقوا عطر النُّتْن.وانشرُوا في الأفلاك نبأَ غَلَبتي على النّور لا يَطْهَرُ منّي مدَى الدُّهور. وقولوا: العالَمُ من حيث هو كائنٌ فاسدٌ ومن حيث هو فاسدٌ كائن، موْتٌ ولا موت، وخلودٌ ولا خلود. ونور يُشِعّ، إلى الطين مردود...

وأطلق الموْتُ الصورةَ من ثِقَل الجسد فهمّت الرّوحُ النّورُ أن ترتفع فأهوت. وتاقت إلَى السماء فإذا هي على الأرض واقِعةٌ واقعة. وبقيَتْ فيها على وجهها حَيْرى، وصحِبها الشوق والذكرى. ووجدت حَسْرةً لوْعَةً على ما ضاع من جسد، وحاجةً إلى مادَّةٍ سَنَد. وكان أَوَّلُ العذاب الأبد.

وكذلك زنَتِ المادّةُ بالروح فدنَّسَتْها، وأَلِفَتِ الصورةُ دنسَ المادّة فأقعدَتْها. وبقيَتْ بعد الموت بين الأكوان تعْوي...

وهذا هو يا مدين عالم الموتى...

قال مدين :

جاءتني أسماءُ ليلةً فقالت : أين يا مدين جسدي معدنُ روحي، أين أنا المفقودُ حسًّا ومعنى ؟ لقد بكيتُ وكثر بكائي، وأعوَلْتُ

حتى مللْتُ عويلي، ومزّقْتُ روحيَ أشلاءَ وحملت علــى الأجْسَــاد أريد دخولها فلم أجِدْ فيها شقّا...

واسْتَرْسَلَتْ رنجهاد تقول :

... هذا عالم الموتى، الذين ماتُوا و لم يُدرِكوا الفناء. جاؤوا فلـم يبلُغوا العين. يذكرون إلى الأبد الأجساد. ويسترْجعُون ما بـادَ مـن حياة وما مضى من مَلْءٍ، ويشْكُون الفـراغ. ويجِـدون صُدَاعـاً في رؤوسهم وقد ضاعَتْ، وأدواءً في صدورهم وقد خَوَتْ. ويبكـون ويُعْولـون ويمزِّقـون أرواحهـم أشـلاء... كمـا فعلـت أسمـاء. وقـد أوكَلَـتِ الأرضُ بهـم الزمـانَ يذكّرهــم تذكـيرا. ويشـتدُّ فيهــم ويعصـف، ويجتـذب المـاضيَ ومــا كــان فيــه، والمسـتقبلَ الأبـد وإمكانِيَاتِـه، فيعجنُهـا جميعـاً ويُحَمِّلُهـا الـروح. وقـد تُعْيِـي بعـضُ الأرواح فتطلب مثلك مستراحاً، وتميل إلى الدَّعَةِ والنوم. فـإذا هـو ينخسُها كالمهماز نخْساً. بل انظر يا مدين الزمانَ ما يصنع...

ونظر مديـن فـإذا هيـاكلِ مـن عظـامٍ رميـم تقـوم فتمشـي. ثـم تكتسي لحْماً وألوانا، وصحّةً وجمالاً. ثم تشـيخ وتَسَـاقَطُ فيأْكُلُهَـا الدود. فتذهب رماداً وتعود رُفاتاً. في طرفة عين...

قالت رنجهاد :

وذاك صنيع الزمان بما يعيي من الموتى : يُعيدُ لها المـادَّة والجسـدَ لحظة. فيتحرَّكُ فيها الشوقُ وتُؤْلِمُها الذكـرى. كـذا، إذا حلمَـتْ، تحلمُ الموتى.

وأطرق مدين ساعةً كالمصيخ إلى مصيره ثم لَوَى فقال :
أين سلهوى والنباتُ ؟ أين يا رنجهاد النهاية ؟

قالت :

لدى ابتداء الأبد، لدى العَيْنِ، لدى السكونِ والنسيانِ والصمْتِ. وها نحن ذا على الباب...

واندفع متقدما فقالت :
إنه بابٌ لا يدخلُه اثنان. ادخُلْه وحدك.

ثم ضحكت وتبدَّدَتْ فتلاشَتْ.

* * *

ورفع مدين رأسَه فإذا هو في ليلٍ من الغاب أبكم. وغُصَّتْ عينُه بالعَبْرة. وقام يجرُّ في مشْيته وقد كلَّت الرجْلُ وذلّتْ. فسار حتى جاء فجلس بفناء بيته. وقال : لأخرجنّ من مَحْبِسي وليلي.

ومضت عليه ساعة ثم ساعة، وهو يخلط الظلمة والنور، والأملَ واليأس. كتردُّد الفُلْكِ على الموج، أو الشكِّ في النفس. فلما أوشك الفجرُ، رجعت ليلَى ثقيلةً كالبحر الساجي، وجلست إليه فقالت :
أنسيتَ النومَ كما نسيتُه ؟

قال :
ماذا صنْعتِ ؟

قالت :

توقَّعْتُ وترقّبت. وذهبْتُ فملأْت أرجاءَ الغاب انتظارًا. وكشط القَتَادُ والعضاهُ والطلْحُ انتظاري، كشْطَها لصوف الأغنام بين الأشواك ترعى.

ثم قالت :

وأنت ماذا صنْعتَ يا مدين ؟

فلم يجبها مجيب.

# الفصل السابع

وانقطع مدين إلى المارستان أيَّاماً. تأتيه رنجهادُ كلّ يومٍ ولا يعود إلى بيته. وتذهب إليه هند بطعامه كل يوم. وتعود فتقول : إنه قد احتبس في بيت الدواء. فهو لا يخرج منه حتى يركّب عقّارَه. وعلمَتْ ليلى أنه سبقها وبَعُد ما بينها وبينه، وَنَبا كيانُه عنها. وذهبَتْ نفسُها عليه.

* * *

ثم جاءها ليلةً وقد كادت تقْنَط فتخرج فتسيم. وقال :

الليلةَ النهايةُ يا ليلى.

وأقبل عليها إقبالَ المَشُوق البعيد الشوق. فلقيتْه بوجهٍ ملأَتْه الآلامُ امتلاءَ الشِّراع ريحاً، وقالت :

أَنِهايتُنا معاً أم نهايتُك وابتدائي ؟

قال :

نهايةُ الباطلِ وابتداءُ الحق.

وسكَتتْ ليلى كالمسْلمِ عجز عن الرّدّ فأهوى، أو كالبيت المتهدِّم تَسَاقَطُ جدرانُه في جوفه أنقاضًا. ثم قامت وقد ثقلَتْ عليها الليلةُ كما يثقُل الإثمُ على الآثم النادم. فقالت :

ألا نخرج إلى فناء البيت ؟

وخرجا فجلسا. وكانت الليلة قمراء وضاحةَ الظلمة بيضاءَ فكأنهما في رغْوةِ حليب، أو زَبَدِ سحاب. وقالت ليلى :

إنه ليس من باطل يا مدين إلا ما فسد من نفسك، ولا من حق إلا ما صدق منك. وقد كدتَ تبطل كلَّ شيء...

قال :

لأني رأيت الآلِهَةَ والنفسَ والأديانَ والفكرَ والعلمَ كالسدُود تُقَام وتُجْعَل لها الحكمةُ والعقْلُ أَسَاساً، فتنتَصِبُ واقيةَ الوادي من جرَف السبيل، والحياةِ من الجنون...

قالت :

وهو عندك باطلٌ والوقوفُ عند السدِّ جُبْنٌ ؟

قال :

نعم يا ليلى. ولقد خُلِقَ الإنسانُ هَلُوعا، يجبن ولا يُقْدِم، فيفُوتُه الغيبُ فَوتَا. ويَخْشى أن يفسد عليه المعقول، فيتّخِذ العقل تِرْساً يدفع به الخيال كمسموم النبل دفْعا. ولو أقدم فطلِقَ من سُجون المعقول لوقع له الحقُّ وسقط الباطلُ وجاء الشفاءُ وكانت البراءة.

قالت :

بل يكون التيه يا مدين، وإِنَّ غيرَ المعقول لغُولٌ داهيةٌ جَمُوح لا يُمَارَسُ شديد. يذهب بك ولا تَثْنِيه ولا تقدر عليه ولا ينحصر لك ولا يُحَدّ. وما لا ينحصر لا يُدْرَك. وإنما أنت تتيه فيه وتتبدَّدُ.

لذا حبسَتْنا الأقدارُ يا مدين على العقل وشدَّتْنا إليه، حتى لا نضلَّ السبيل.

قال :

ما رُبطْنا ولا حُبِسْنا يا ليلى. وما هو إلا أنّنا نسينا سبيلَ الإطلاق الجُنون، وخشينا الدُّوَارَ يورثه تجاوزُ العقلِ وطبعِ البشر. فأغلَقْنا آفاقنا، وقصَّرْنا مدانا، وأدَنْينا كالأعشى أقاصينا. وإنما العقلُ عقال.

قالت :

هيهات أن يطْلَق "بروميتي" من أصفاده يا مدين.

قال :

أمّا أنا فقد طلقْتُ يا ليلى، واهتدَيْتُ إلى سبيل المُطْلَق المحض والحياة الأبد. وباح لي غابُ رنجهاد بسرّه.

قالت :

وكلُّ كائنٍ عندك له سرٌّ وخافية. كأنّك صاحب الشُّرَط يرى الرجَلَ فيظن سُوءًا. أَلَيْس في الكون ظاهرة صادقة ؟ ألا يكون صريحًا ؟

قال :

لا يا ليلى. في الكون كلّه وَهْمٌ وغشٌّ وكذبٌ وخدعة.

قالت :

وأين ترى عينك غشًّا ؟ أين ترى كذباً وخدعة ؟

قال :

في الريحانـةِ تذبـل، وفي الشـمس تغـربُ والحـــبِّ يُسْــلَى... في الموت.

* * *

وسكَتَتْ ليلى هاوية. وأمسك مدين ساعةً، ثم قال :

هو الدلس يا ليلى. وليس أشدّ على المرء من أن يتصوَّرَ المستقبلُ لعينه ذِكْرى، وكأَنَّمَا قد مضى ولم يُنْسَ. وليـس أشـدّ مـن الزمـن يسخر منك، وأَنْ تموت وتبقى حيًّا، وأن تهمس الساعاتُ إليك في كلّ لحظة : أنا التضليل والخدعة... ولقد دلست علــيَّ الدنيـا مـن سنّ العشرين يا ليلى.

وقام مدين ثم قال :

ولكنها لن تدلس اليوم ولن تستطيع سبيلا.

وصاحت ليلى وكأنما انقضَّ عليها شكٌّ أو لدغَتْهَا حيّة :

ما أنت صانع ؟

قال :

إني لشاربٌ عقّاري، فخارجٌ من دارٍ إلى دارِ.

ودخل الغرفــة. فمـا قـامت ليلـى وأدركتـه حتـى صـبّ العقّـار وشرب. فتعلّقت به وفاضت بكاءً وقالت :

أرضيت بالخسران ؟ أتريدُ أَنْ تقتُل نفسَك ؟

فاحتملها إلى الفناء وقال :

إنما أنا قاتلٌ ظِلاًّ فزماناً وَمَوْتاً، فبالغ سرمداً وخلودًا.

قالت :

ماذا شربت ؟ بأيِّ سمٍّ قتلت نفسك ؟

قال :

لا سمّ اليوم ولا قتل نفس. هو الدواءُ، دوائي بيدي اليوم ركَّبْتُه.

* * *

وأحسَّتْه قد فاتها، فعلا صوتُها بكاءً وتحاملَتْ عليه تغشاه، وطوَّقَتْه يديها وقالت :

حدِّثْني يا مدين آخرَ أحاديثك.

قال :

هو حديثُ المستحيل يُرغم على الإمْكان يا ليلى. احتجْتُ أَوَّلَ أمري أنْ أتصوّر ما يستحيل تصوُّرُه وأتعقّل ما لا يُعْقَل، فلقيت عناءً طويلا. ثم ذكرت حياتي وبطلانها، ورأيت ما رأيتُ في الغاب من عذاب الظّلاَل وخسَّتِها، وآلام الأموات لم يبلغوا الفناء وذلُّوا للزمان وطغَتْ بهم الذكرى. وأدركْتُ ما أدركت من مصيري لو لمْ أمْض في سبيلي حتى أبلُغَ العين. فخفَّ عنائي وانكشف الإشْكالُ وتيَسر الأعْسَر. ثم نظرت فإذا ما كان يفزَعُ منه عقلي قد بان كالفَيْض وتصوَّر بديهاً، فانفلق في نفسي منه ريحٌ جُنونٌ زَعْزَعًا. ثم علوْتُ ذلك فَجرَتْ في قلبي الطمَأْنينةُ ماءً

هادِئًا. ووقَعتْ لي سبيلُ الحركة الحُرَّة المطْلَقة مطهرةً من الزمان متبدِّدةً في ذاتها جامدة. وبان لي سرُّ تركيب الدواء، فركَّبْتُه عقَّاراً يحنط الجسد الحيَّ فيخلِّدُه كالمومياء...

وقام مدين كالآلة تحرّكَ فيها دُولاب. فإذا نُور القمر جميعاً على وجهه. كالجمال يشتدُّ على وجه الحسناء تموت. وقال :

هذا الأبد يا ليلى. هذا النسيانُ، هذا الخلود.

ولمحت ليلى في عينيه نُورا كنور الوحي يُوحَي.

وقال :

إني أجدُني وضَّاحاً، وأجد بي نوراً. وقد أمطرَتْني السماء صفاء. وطَهَّرَتْني فأنا نظيفٌ كنِصْعٍ نظيف. وقد عادَتْ لي عظمتي وطهارتي وجمالي.

ومشى مدين خطوات يريد الخروج، فاعتلقت به ليلى وهزَّتْه هزًّا، وصاحت :

يا مدين، أفقْ من غشيتك يا مدين.

وأحس بليلى فقال :

دعيني. من أنت ؟ دعيني.

وتخلص منها فتقدم في سبيله لا يراهَا ولا تُوقِفه، وقال :

إذا جرُؤْتَ فأَطْلَلْتَ على الهاوية، فالهاوية لا تجرؤ أن تُطِلَّ عليك.

* * *

ثم وصل إلى باب الدار، فوقف مُصيخاً كمَنْ أصاب صوتاً. وقال : اسمعي... إنها أجراسُ الجلاجل ذاتِ الجلجلة، ألا تَسمعِينها مبتعدةً هاربة ؟ إنها الأيَّامُ وأسماءُ مولِيَّةً ذاهبة، تصوِّتُ الجلاجلُ في أعناقها، والرَّاعي يسوق ويَسُوط قطعانَها... إني الآن الحقُّ في حقّها...

وسقطَتْ عنه الذكرى، وفسدَتْ عليه الحافظة. ونسي أَنَّهُ هو وأَنَّ امرأتَه ليلى. ومات عنه كل ما مضى من سابق عمره. وأَقْفَرَ قلبه وخلاَ، فظَنَّ أنها الطمأنينة والسعادة والأبد. وامتدَّتْ يدُه بلا حسٍّ إلى يد ليلى، فجعلَتْها على صدره وصاح :

انظروا. فهذا قلبي سكت، وقد غلب السكونُ الزمان. أنا لا أمُرُّ ولا أَحُول. أنا الوجودُ، أنا الخلود، لم أسْتَحِلْ منذ القدم... لكن من أنا ؟ أُولَدُ كلَّ ساعةٍ خَلْقاً جديدًا. انظروا آفاقي تَنَاءَى، فما أوسعَ أَبْعَادي ! ها سكن عني الحسُّ وآن الحُلُول. وعظمْتُ وشربْتُ السماء وحلَّتْ فيَّ الأكوانُ جميعا...

وتدفَّقَتِ الأكوانُ فانصبَّتْ فيه، وتبدَّد هو فيها. وخرج من البيت مائجا كالدُّخَان، فقام في وجهه الغابُ والأشجارُ وَزَبَدُ القمر يعْلُوها. ونظرَتْ ليلى فإذا رنجهادُ على شفا الغاب واقفة تنظر، كأنَّها علِمَتْ بما كان فجاءَتْ. وجرت إليها ليلى وصاحت:

يارنجهاد ارحمِيه وأغيثيه. إنه لِيكتفي بحياة كحياةِ آبائه.

ولم يتحرَّكْ من رنجهاد لسانٌ ولا طرفَتْ عين. كالقسوة تُوبِس

النفس. وذعرت ليلى فارتدَّتْ فأسرعت إلى مدين، وخطا خطواتٍ ثم وقف وقال :

ما هذه الريحُ الكريهةُ تخنقني ؟ أتعفَّنَ الهواءُ أم تعفَّنتْ أنفاسي ؟

واشتدّ به النتن، واضطربت حركاته، فاصْطَكَّ وصاح :

ألا خلاصٌ من هذا العفنِ الباطن، وهذا الدّود يتحرك فيَّ كالجنين في الحامل ؟ ما هذا الوهن يهْوي بي وهذه الروح تدَاعى وتنهارُ...

وسقط على الأرض، فصاحت ليلى بهند ألا انظري هل بقي في الزجاجة من عقّاره.

ثم وقعت إلى مدين مُندكَّةَ القلْبِ وَلْهى. وكأنَّما استيقظ مدين لطرفة عينٍ وذكرَتْ عيناه ليلىّ، فهمس منهوكَ النَّفَس :

هي النهاية يا ليلى. لقد خانني الجسد، وخانتْني الروح فلا هو استطاع الخلودَ، ولا هيَ...

وخرجت هند وأقبلَتْ تجري كالذاهبة العقل وما تدري، وقالت: لم يبق في الزجاجة شيء.

ورفعت ليلى صوتَها بالعويل، ودفع مدين آخر أنفاسه فقال :

لِمَ خانني الجسدُ وخانتني الروح يا ليلى، ما قعد بي وبدوائي يا ليلى ؟

وشخصَتْ عينه وغُصّ، فسكن واسترخى.

* * *

وهتفت رنجهادُ قاسيةً ساخرة : ما الّذي قعد بك يا مدين !...

ثم لوَتْ فاسودَّتْ، وظهر لها جناحان، فنهضت وصفّقَت، ثم قامت كالسحابة المُغِمَّة ودخلت عالَمَها الظُّلمة، وقالت :

ساعةٌ من النسيان بحياة كحياة آبائه، وبلَيلى أخلَفَها بعدَه بين الأحياء ميتة... ألا إنَّ الوجود اللَّعنةُ الأبد. لن يولد النسيان. لن يولد الفناء. لن يُغلب الزمان. لن تدرك السماء. أنا البهتان...

وطارت روحُ مدين فلحقَتْ عالَمَ الأموات، وروح ليلى فلحقت كهف الظلال.

* * *

وبَقيَتْ الليلة قمراء، وضّاحةَ الظُّلْمةِ بيضاء...

# المُسَافِرُ

دفعته ضرورةُ المســاء آخر عتمـةٍ يـومٍ مـن أيـام الصيـف، وقـد جاءت ليلةٌ لألاءٌ من زجاج. فإذا هـو يجـيءُ الجبـلَ ظـاهرَ المدينـة، ويدخل الحديقة ويقُوم تحت القبَّة، وقـد أُسْقِط في نفسـه وجاءها الإسلام.ويقول : قد شُوِّشَتْ دواليب، وانقضى توْقٌ، وانفصمت أوتار. ولقد مات ميّت...

ويذكر عهداً له طويلا قضـاه في البحـث والطَّلـب والجَـوْس. إذْ قالوا له : سلِ الشرقَ سرَّ الطمأنينة والحُلم. وإذْ قام فسار في طريق الشرق وثناياه، فجاب من بلاده اليابس والرطب، وذا الزرع وغيرَ ذي الـزرع، والفضـاء والصحـراء، والسَّـهْلَ والحَـزْن والنخـلَ والوادي. ودخل القُصُورَ الجنان وفـاخرَ الأمصـار ووضَّـاحَ المـدن. فما كان فضـاءٌ مـن قحْـط ممـدود، ولا مسـجدٌ وصـلاة، ولا إبِـلٌ وسكونٌ مُنيخ، ولا مقبرةٌ وبيـاضُ قبـور، إلا سـألها سـرَّ الطمأنينـة والحلم. وأطال السؤال وأكثر مَدَّ اليد وألحَّ وألحف حتى لقـد ظـنَّ مراراً أنه فاز بالسرِّ والطمأنينة والحلم. ثم إذا هو تقوم له بعدَ الظن مآذنُ المساجد نقيَّةً صاعدةً كالنبال، فإذا التَّوْق يقـوم وإذا الطريـقُ والجوْسُ تعود...

كذلك سنتين في سؤال وحاجةٍ ورجاءٍ في الفوز...

ثم يجيءُ هذا المساء باليقظة والموت : بشوقِ النفس وقد خان وخوَى، والطريقِ وقد طَمِسَتْ عمًى، وقد امتنع الحلمُ والاطمئنان نأى. ويحدِّث نفسه : "ومع ذلك أفليست الطمأنينةُ والحلم واضحةَ السرِّ بيِّنةَ الطريق ؟ أليس أنها... ؟"

"بلى. إنَّها نوْم من السماء ورَوْح. وبراءةٌ من الحركة والجَهْد والعناء وحلولُ الدّعة والهُدوءِ والسكون. فالإسلام بها إسلامٌ وإذعان. والحيُّ بها جسداً ورُوحاً قرارٌ واعتدال. لكنْ، - لا هي طمأنينةُ "أبولون" الإغريق تُمسِكُ يدُه عنانَ الأَفراس الجامحة ولا ترتعش ولا تألم، وتُغطِّي طمأنينتُه على باطن التقطُّعِ ودفين الداء ولا يحتار ولا يوْجَع. بل سكونُ الرخام. طمأنينةُ الرخام يقوم ويُقاومِ ويثْبُتُ ولا خلجةَ في القوام ولا اختلاحٍ. كذا ألحانُ موسيقى الشَّرْق، وكذا خطوط نقشه، راجعةٌ عوْداً على بدءٍ ولا حركة ولا تحول ولا انتقال، - ولا هي الجُبْن ولا العجز ولا التسليم للقَدَر ولا القول بالجَبْر، بل القرارُ الأعظم، قرارُ واجب الوجود. قرار الكون وادعاً إلى سُننَهِ في اكتفاء ورضى. ولتكن الدنيا خضمًّا من هَوْج العناصر هيْج القوى، فلن تُحرِّكَ من الشرقيِّ ولا هو يُبالي بها. فهو يعلم أن لا تحوُّل ولا تقلُّب ولا جديد، وأنَّهُ ما من شيءٍ إلا وهو إلى غيره من وجهٍ منتسب، ومنه نسخةٌ وصورة، وإليه عائد. وما حوَّلَ رقصٌ راقصاً عن نفسه قط، وإنْ هو حوَّلَ صُوَرَه ولَوَّنَه بألوان وأكْثَرَ جسدَه. لكنَّ الراقص يعود في آخر الرقص طاهراً خالصاً تامًّا إلى نفسه. كذا فلتُقَلِّبِ الزعازعُ

من الدنيا ولتُحَوِّلْها تحويلاً ولتُكْثِرْ منها إكثاراً ولتُقَوِّضْ تقويضا. فلن تُحيِّرَ من الشرقيَّ باسماً وادعا، موقِناً بأن الأعراضَ لا تذهب بشيءٍ من الجوهر ولا تجيءُ بشيء : يقين الرخام. حكمة الرخام.

فالرخام والشرقيُّ يعلمان أنَّهما دائمان باقيان، وأنَّهما غلبا الدهر وأَفْنَيا الزمان. فالزمانُ بالحركة : عنها يتولَّد وبه تقاس. والحركة تحوُّلٌ وانتقال وفساد وزوال، تأكل وتُفْني وتحرِقُ وتُبيد : مِن الأجرام والأجساد ومن النفس والفكر. بل انظر النفْس وحركَتَها، والفكرَ وحركَتَه، وما يلقيان من نصَبِ مشاكلِ الرّوح والحياة ومُنْغلِق المُعضِلات. كالرّحى إذا دارت على قطبها ولا طعام وترْحي، فجعجعةٌ وحركةٌ مُبيدة وأكلُ حجرٍ لحجر. فإذا سكَنتْ وسكن الحجران كلاهما على الآخر، كان التطابُقُ والاتِّفاقُ وانتفى الأكلُ والفساد. وكذا الشرقيُّ في اتفاقه والكوْنَ، وسكونه إليه، واتحاده به. وللدَّوامُ جزاءُ السكونِ والدَّعَةِ، ولَلْبقَاءُ، ولَلأبد.

وهذا هو سرُّ بقاء الشرقيِّ ودوامه على الدهر : هذا النفيُّ لكلّ حركةٍ واضطراب، وهذا الخلاص من كلّ زمان. تنفيها وتخلُص منها أهرامُ الفراعنة، واطمئْنانُ " بوذا " وإيمانُ الأنبياء وحتى طمأنينةُ التونسيّ لا يحتار ولا يتكدَّر ولا يأْلَم لعالمٍ تزعزعه الحروب والانقلابات[1]. وهل أعلى وأسمى من هَذا التماسك

1- كتب المؤلف هذا زمن الحرب العالمية الثانية، سنة 1942.

والتمالك عن حيرة النفس، وهذه الثقة بالحكمة، وهذا الثبات للتحوُّل والتقلُّب ؟ وهل أعظم من هذه الحكمة تمحو الأحداثَ الزائلة وتثبُت، وتُبيد الأعراضَ وتبقى، وحدَها قائمةَ الذات ؟

وَلَكثيرٌ ما تبيد من ألم الإنسان. فهي تنفي بَشريَّ الحيْرة عن الإنسان، ومأسَاة الصراع بين الكيان الناقص والكيان الكامل. فلا الشَّرْقُ يعرف "ديونيزوس" يألْمُ أَنَّه كالفرع عُضِد عن أصلهِ، وأَنَّه وحيد مقطوع. ولا هو يعلم مأساةَ "ديونيزوس" يجْهَدُ أن لا تبقى حياتُهُ الفرديّة فرْعا مقطوعاً من حياة الكَوْن، وأنْ تعودَ له الصّلةُ بأصله فيتَّحِدَ مع الكيان الكامِل وروح الحياة المطلقة الكبرى. فما انقطعتْ صلةُ الشرقيّ بالكل المُطْلَق، ولا هو حدَّتْهُ أحوالٌ ولا حصره زمان : وليدُ اللاَّنهاية والإطلاق، في الله حيٌّ، عائدٌ إلى الله. وما انحصرَ بشرٌ في حدود البشريّة إلا جاء الأَلَمُ وجاء العجْزُ وجاءت مأساةُ شأن البشر في الحياة، وما حدَّته حدودُ أُفقِ الإنسان. لكنِ الشرقيُّ غيرُ محدود، طالقٌ من ظرف البشرية إلى الله : فيه يحيا، وبه تنفتح له أوساع الإطلاق، وبه يسلم من ألم "ديونيزوس"،أَلَمِ الحدّ والفراق والوحدة والانحصار. كالحيران الخالي إلى غارِ جبلٍ يتيه رُوحاً في فضاء الصحاري : قاعاً صفْصَفاً في قاعٍ صفصف. فإمَّا أَنْ تُميتَه الوحدةُ وانحباس النفس في النفس، وخلُّو الروح في قشرة البشر، والشعورُ بضعفه وانفراده وحقارته في الكون. وإما أن يتّسع ويطلق وتسري في روحه روحُ الكون وروحُ الإسلام وروح الله. كذا الحلاَّجُ وكذا الغزاليّ وغيرهما،

سَلِموا إذْ أنكروا البشريّة وانتسبوا إلى عالم الوجود المطلق : عالم الله. وما قصُر الحلاّجُ ولا الغزاليّ ولا ابنُ الفارض عن سواهم فِكْراً وحَيْرةً وتيها في المعضلات، ولاهم عمدوا إلى التصوُّفِ وانقطعوا إلى الوجود المطلق عجْزاً عن الفكر وعناءِ تفكير البشر. وإنما هو الفكر يبلغ بصاحبه أقصاه، ويقتصر فيه المُفَكِّر على العقل، فلا يكون منه إلا أن يُفْضِي به إلى الوحدة وإلى العجز عن بلوغ الحقّ بالتعقُّل والعقل، ويُشْرِف على أوّل أفق اليأس والقنوط، ويكاد أن يأخذَه دوارُ الحيرة، ويخاف أن يقع فيه. فإذا الخوْفُ يلجئه إلى أن يعمد إلى العلويات : يولّدُها له عجْزُه البشريّ ويسْلَمُ بها مِنْ أَنْ يُغْلَب ويُقْهَر. كذا ينتسب إلى الآلهة عُجَّزُ البشر. فإذا العَجْزُ قدرةٌ وإذا سرُّ طمأنينةِ الآلهةِ مفتوح.

بكل ذا يُحدِّث المسافرُ نفسَه وبأَنَّه يعلم جدَّ العلم ما هي هذه الطمأنينة وهذه الحكمة الشرقية. ولطالما مدَّ فيها إلى الشرق يدَ السؤال. ولطالما ألحف في ذلك. ولطالما حسب بعد التصبُّر والتطلُّب وتوطين النفس أن الشرقَ رزقه إياها وتصدَّق بها عليه. ولكنَّه ينظر في هذا المساء، فإذا العطيّة كاذبة وإذا الصّدَقَة كاذبة وإذا الحسبان خدعة. وإذا هو يجد في نفسه أنّه لم يفُزْ من هذه الطمأنينة الشرقية بشيء قط. وينتظر فتعاوده ذكرى آخر ما قطع من مراحل سفره الطويل.

فهو في قرية " كِسرة" على جبلٍ جلاميدَ من الصخر كقِطَع العذاب تتراكم وتتراكب، ثم يقومُ فيها فجْأَةً كالجدار جانِبُ

الجبل عاريا كجنب مقروح، تنشج في أسفله عينُ ماء باكية تسيل إلى الصخر، فتأكل من أصل الجبل، ثم تقع إلى الغور تحته فتَشتَّت وتضيع كيأسٍ نفسٍ عقيم. وتتبعثر بيوتُ القرية بين الصخور حقيرةً بشريَّةً ذِلَّةً مَسكَنة، كشَتمَةٍ في وجه قوّةٍ قاهرة أو عارٍ على جَمال. ويتباسط فوق القرية على رأس الجبل بساطٌ غليظ من حصًى حديدٍ عليه أغربَةٌ سود وفوق القرية والجبل والبساط والأغربة هولُ أوساع سماء خالية. وينظر المسافر حولَه فإذا الجبل قافلةٌ هوْلٌ من أشخاصٍ حجارة، كلٌّ له ألم، وكلٌّ له قصّةٌ جَلَبة، والأذن تسمع وعين الماء تحكي. وتَنْشأُ الحياةُ ويتحرَّكُ الجبلُ المأساةُ وتتحرَّك الصخرةُ الفيلُ والصخرةُ الدبُّ فتَطَأُ وتدُوس، وتتفرْقَعُ أوصالُ الجبل وتصوِّتُ أحشاؤه يعصرها عصْراً ليُخْرجَ منها ماءً وعيْنَا. ألماً كألم الأرحام لدى المخاض... والسماء فوق ذلك مُقْوِيةٌ مقفِرةٌ خالية.

وذا هو رمز المسافر نفسِه : خلَتْ سماؤُه وأقفر، واعتمل روحَه وفكَره، وتألَّم وعصر أحشاءَهُ عصْرا.

ثم في قرية " مَكْثَر" يجول ضواحيها ويقف عند قوْسٍ نصْر روماني، عمارةٍ في الأثير قُدَّتْ من السماء والزُّرْقة. فينظر فإذاً حجارةُ القوسِ تتباعد وتتصاعد في لين وهوادة، وتترامى القوسُ إلى أبعاد الفضاء، فيدخل الناظر من القوس إلى السماء، كأنه جُعِلَ إليها طريقاً مِعْرَاجاً ولها بابًا.

وذا ليس من المسافر في شيء : ذا رمزُ الشرقِ اللاَّحق بالسماء..

وهـا تعـاود المسـافرَ ذكـرى عروجـه إلى السـماء مـن القـوس، فيعجَبُ منها ويكذِّبُها عقلُه ويقول : ما كانَ عُـروج. ولقـد كـان العروج. ولكنَّه كان في يُسْرٍ بسـيطًا، كأنـه بـالطبع، حتـى لَيُبْعِـده العقلُ وحتى لَيُكَذِّب. وهذا المسافر يُشْرِف على أفق مـا لا يُـدْرَك بالتعقّل، وكأنه الخبط والجنون، وما هو بالخبط ولا الجنون. فيدرك أن طمأنينةَ الشرقيّ وحلمه مما لا يُتعقّل فيه، وأَنَّـه إنْ خانـه الجهـدُ إليه وكذِبَ أملُه فيه واستحال عليه، فذلك أَنَّه لم يطلبه قط إلا من وجه التفكُّر والتعقّل. وليس تُدْرَك طمأنينةٌ بالعقل والجهد والفكر. وما هي إلا أن يكون الحـيُّ كيانـاً أمـلأ كيـان أرفقَـه، طـاهراً مـن التَّعَسُّف والتوتُّر والاشتداد. فليس في الكون اضطـرارٌ ولا تكليـف ولا عَسْفٌ ولا شيءٌ يرغِم إلى شيء : فلا قمرُ هذه الليلة الوضّـاح يجهد جهده أن يكونَ وأن يُضـيء. ولا هـذه الليلـةُ العـذراءُ تجهـد جهدها أن تكون وأن تلطف وأن ترقّ. ولا بحيرة هذه المدينة تجهد جهدها وتتكلّف أن تتلأّلأ بَلأْلاَءِ القمر وأن تتآخى على صفحاتهـا الأنوارُ والظُّلمات. ولا شيء من هذا السكون وهذا الرضى وهـذا المَلْءِ. يجهد اجتهـاداً إلى السـكون والرضـى والمَـلْء لا تكلُّـفَ ولا تجهُّد ولا تصنُّع. بل ذاك هو الطبـعُ والاتِّفـاق والمطابقـة، والاتحـاد والوصال، ورضى الكلِّ بالكلّ. ذاك مقدار مـا يوجبـه الكَـوْنُ مـن الحيّ من جَهْدٍ إلى الكيان، مقدارُ جَهْد الكائنـات المطمئِنَّـة راضيـةً مرضيّةً : لا جهْدُ الصراع والمقاتلة، ولا جهدُ عامل المناجم يقتطـع أحشاءَ الأَرض وينهب، ولا جهْدُ " بْرُوميتي" يجهـد أن يطْلَـق مـن

الأغلال، ولا جهْدُ الزورق البخاري يجُرُّ الباخرةَ العظيمة يُدخِلُها الميناء، ولا جهْدُ الحيِّ النَّهِمِ الأَكول يقع على مائدة الدنيا فيلتهمها لهْماً. وإنما هو أن تنفتِحَ النفسُ للكَوْن وأن تكون إليه منتبهةً يَقِظَةً وعنه راضيةً وبه واثقةً وله مُسْلِمة : هبة الحيِّ نفسَه للحياة. هبة الوجودِ المطلقِ للحيِّ الطمأنينةَ والسَّعةَ والرَّوْح.

وتتسع عينُ المسافر إلى المدينة وينظرُهَا فإذا هي كالبحيرة الرصاص واقعةٌ إلى نفسها نائمةٌ هامدَةٌ هادئة، كرقَّاص الساعة الساكنة. وإذا عيْنُه لأوّل مرّة تنظر وترى فلا تجهد ولا تنصب في النظر والرؤية ويشبعها النظر والرؤية... وإذا وقارٌ وعظمةٌ وهدوءٌ وقرار.

وينحدر المسافر مفتوح العين في النوم والحلم. فيكون انحدارا رفيقاً لطيفا. ويكون أول عهده منذ سنتين بالراحة والنوم.

ولا يزال في الطمأنينة والحُلْم.

# السندباد والطهارة

كانت الليلة مأْساةً قَلَقاً قُلَّباً دويًّا، يتصارخ فيها الدَّمَار والكيـان وينبو كلُّ شيء عن القرار، كأَنَّ عدَماً يجْهَد إلى الوجود، أو كـأنَّ حياةً تجْهَد إلى الفناء...

خرج السندبادُ من خانه يحمل جراباً. فبادَرَتْه مـن البـاب نفْحَـةٌ عتيدةٌ من هذه الريحِ القِتالِ الَّتي لم تفتأ تُهَزْهِز الدنيا من يـوم قذفَـه مركبٌ إلى هذه المدينة. فلوى لها السندبادُ لحظةً، ثـم وقـف وهـي تنفضُه نفْضاً، وترمي بجرابه على رُكْبَتَيْه، وتحصب وجهَـهُ وعينيْـه، ويوشك جسدُه أن يشترِكَ ويصـير هُبُوبـاً محضـاً كـالقلاع. فَيـأْبَى ويصمد ويقول : "كم طالَتْ مهزلـةُ هـذا الصـراع بـين الغولـين : غـول الفسـاد، وغـول الكيـان، أفـلا يغلـب منهمـا غـالب ؟ ألا يَنْتَهيان؟ وإِني ما أَرَى نظّارة.فلِمَنْ يتصارعان ؟"

ثم نظر يميناً وشمالاً في الزقاق الضيق الطويل، فرآه خلاءً وحْشَـةً وظلاماً رصاصاً، وقد كَنسَتْ منـه العاصفـة كـلَّ مـارٍّ وكـلَّ حـيٍّ وكلَّ وَجود. ثم كأنَّ السـندبادَ تـردّدَ سـاعةً أَيُصْعِـدُ في الزقـاق أم يُحدِّر، أو لذَّ له أن لا تجد لذعاتُ البرد وصفعاتُ الزَّعزعِ الحاصبة عليه سُلْطاناً. ثـم إذا هـو انْدفَـعَ مُحـدِّراً في الليـل والقـرِّ والزوبعـة الخاليـة. وسـار مُسْرعا في سَيْل الهبـوب، حتـى دُفِـع إلى بطحـاء

المرسى، تتزاحم فيها أكداسٌ ظلامٌ من العدائل. فتماسك لحظَةً، ثم تمشّى فعبرَ البطحاء، ومال فمشى عَلى مَرْفَإِ الناحية اليسرى، وعلى يمينه سفُنٌ وفلْكٌ راسية تُذَعْذِعُها الرياح. ولا يزال كذلك يمشي، حتّى وقف على غاية المَرْفأ، وقابله البَحْرُ ظُلَماتٍ وغيْباً. فنظر مليًّا والريحُ تُلِحُّ على ظهره، كتحامل جسَدِ الأنثى الضابعة. وأصغى إلى العواصف تُرشُّ على صفحة الماء في المرسى رشًّا نُحاسًا، فيأتيها من ظلام البحر صدًى هديرٌ وهْمَهمة. وإذا السندباد صفَقَتْ منه ضحكةٌ فَلَقٌ شديدةٌ قصيرةٌ خانقة، كأنَّها سخريةُ شيطان قارسة. وقال : "ليلةٌ عاتيَةٌ، وريحٌ شمالٌ هَجْهاجَةٌ لاذعة، ولُعَابُ البحر، ورَمَادُ السماء... هو ذا الكوْنُ يَتَقَيَّأ".

* * *

وفجأَة انثنى السندباد. وجال ببصره، فإذا قُبالَتَه على يمين المرسى نُورُ سراجٍ يُرْهِقُه الليلُ فلا يكاد يُضيء. فتراجع قاصداً إليه مُتَّئِدَ الخطى، وكأنَّما قد ذهب نشاطُه وهمُّهُ من كلّ شيء، أو كأَنَّ الزوبعةَ والبحرَ والليْلَ قد ماتَتْ جميعاً، وفنِيَتْ مادّةُ الكوْن وكان الفراغُ والخلاء.

وجاء حتى أطلَّ على السراج في قعر سقيفةٍ مستطيلةٍ ذاتِ دخان، مدخلٍ لحانة أو خان. ونظر يتعرَّف، فتذكّر أنه كان نزل هذا المكان لدى عَوْدَتِه الأخيرة من سفرته الأخيرة، وأَنَّه خانٌ وحانةٌ وماخُورٌ معًا، جمعَتْ فيه قهرمانَةٌ خمراً وقياناً وفرشاً وطعاما، لكلِّ مسافرٍ ذي قلق ومَسغَبة وكلِّ سكّيرٍ عِرْبيد. فدخل

حتى وقف على بابٍ في زاوية السقيفة. ونظر فإذا الحانةُ تكاد تكون خاليةً إلاَّ من جماعةٍ من البحّارة سكارى يُغَنُّون ويعربدون، أو من شيخٍ في ناحيةٍ كأنَّهُ مسافرٌ غريب يَخْفَق برأسه نوْما ويتّكئُ على جوالق من متاع المسافر. وإذا صاحبُ الحانة الأحمرُ مُنْكَبٌّ الصلعةِ على صندوق يحسب دراهِمَ، وغلامٌ له مُقْبِلٌ على كؤوسٍ يُصْلِحها وينضِّدُهَا ويخدم الشاربين.

وأرجع السندباد البصرَ، وأداره في داخل الحانة فرأى بها دخانا متلبِّداً، وتصوّر عددَ من تعاقب بها من شرْبٍ في ذلك اليوم. ووجد منها قَزَزًا. وهجم عليه معنى جميعِ ما مرَّ به في أسفاره ورحلاته من حانات الخمَّارين على المراسي. وأفعم نفْسَه أَنَّ هذه الحاناتِ لا تخلو واحدةٌ منها من الدَّنَس والعار والشُّؤْم والقبح واليأس. كأنَّه لا يسافر مسافرٌ إلاَّ وهو يريد أن يتطهَّرَ، ولا ينزل من مركبٍ نازلٌ إلا وهو يريد أن ينزِع أَوْساخَه. وكأَنَّ الأبعادَ لا تتقدَّم إلى القاصد إليها، ولا تُورثُ القادمَ منها إلا قذَراً وتوْقاً شديدا إلى الاغتسال، أو كأَنَّ للأَبْعَادِ مَهابتَها، وللبحر عظمَتَه، ولما وراءَهُ من آفاق حُرمَتَها، فلا بدّ للراكب قُبَيْل الركوب أن يتخلَّص ويخْلص، وأن يجلس في هذه الحانات فلا يَدَعُها إلا وقد نفض فيها من غبار طريقه، وتقيَّأَ بها ذكرياتِ ما رحَّله من ذُنُوب وجرائم، أو مسح عليها مِمَّا أَقَرَّه من دمامة حياته، أو نفث في أرجائها آخر ما علق بأحشائه من مرارةٍ وسُمٍّ ويأس. أمْ هو أَنَّ المرتحِّل لدى أول ارتحاله، والقادمَ لدى أول قدومه، كليهما في عناء المتمخضَة وشِدّةِ

الـولادة، وكليهمـا يجهـد أن يطّـرِح ويطْـرَح ؟ فـــالراحلُ يطلـــب الطهارةَ والخلوصَ من هذه الجهة من الأرض وهذه الجهة من الحياة التي هو خارجٌ عَنْهَا بعد ساعة، فَلِـمَ لا يـنْزَعُ علـى سـاحلها مـالا يزال عالقاً به مِنْهَا ؟ والقادِمُ كذلـك يطلُـبُ التخلُّص والتمخُّضَ من تلك الجهة من الأرض وتلك الجهة من الحياة التي بارحها فـارًّا منذ أيامٍ وقد وصل منها منذ سـاعة، فَلِـمَ لا يـنزع بهـذه الحانـات آخـرَ مـا يـزال عليـه مـن دَرَن ذكريـاتِ بـلاده البعيـدة ورُوحِهـا وعيشها وأنفاسِها ؟ وأصحابُ الحانات هـمُ القَوَمَةُ على ذلك كلّه. كذا بعضُ أهل التقي قَوَمَةٌ علـى متوضَّآت المسـاجد ومراحِيضهـا وصهَاريجهـا، يُشـرِفُون علـى المُصلِّـين في تغوُّطِهـم واسـتبرَائِهم واستنْجَائِهم ووُضُوئِهم، ويُحضِرون لهم المـاء إعانـةً علـى صلـوات الله، ولا يتـأذَّوْنَ ولا يَشْـكُون ولا يسـتنكرون. وإن أصحـابَ الحانـات لَقَيِّمـون علـى مـا هـو أشـدُّ وأمـرُّ وأوجـع. فالمسـافرون يخرجون إليهم من غياهب البَرِّ بكلّ لَخَنِ الأرض والحياة، ونفـوسٍ كالمَسْخ، ووجوهٍ كالنَّزْع، وحيْرةٍ وقلق وقُطوبٍ وألم. أو ينـزلونَ إليهم من السُّفُن وكأنَّ بهم ريحَ السمكِ المتعفِّن، وعلى وجوههـم اللَّعْنةَ، وفي حركاتهم وكلامهم أخلاطاً من أعاصير البحر وأهـوال الآفـاق وإقحـال الصحـاري ووحشـيَّةِ كـلّ غريـب بعيـد. فهـم يُحْضِرُون لهم الخمْر ويهيّئون لهم الحانَـةَ إعانَـةً لهـم علـى الخـلاص والنجاة. ولا يتأَذَّون من ذلك ولا يشْكُون ولا يستَنْكِفُون...

* * *

لكنْ ما شأن السندباد وذلك كله الآن ؟ فهو قد تاق إلى الفرار، فجَاءَ يطلب رُبَّانَ مركب يُرْكِبُه فيُوغِلُ به في غيابات البحار. وهو يعلم أنَّ صاحب هذا الخان يعرف مَنِ الرائحُ ومَنِ الغادى من أرباب السفن، لأنّهم لابُدَّ أَنْ يمرُّوا به لكأسٍ يشربونها، أو جواهِرِ بَهْرجٍ يبيعونها جوارِيَه، أو ساعةٍ ينفثون فيها مرارةَ البحر المِلْحِ في بطونهنّ. ولئن توقَّف السندبادُ الآن لحظةً على الباب، فإنما ذلك لأَنَّ الحانة لقِيَتْهُ بصفْعةٍ من الدخان والتُّتْن، وخنَقَتْه بريح الخمر المُهْراقة وقيْءِ السكارى، ونفخَتْ في وجهه بقايا سَهَكِ ما تلاصَقَ بها كاملَ اليوم من بشَرٍ متحاكِكِين، ودفْءِ تنُّور المطبخ، وبخار الطعام ودسمه. وعلى ذلكً فالسندباد لا يَقْدَر الدخولَ، وإنّما يقوم في الباب - بينما يقول صاحب الحانة : عِمْ مساءً- يقوم وينظر ويبتسم ويتذكَّر. يتذكَّرُ أنَّه عرف كثيراً من معاطِنِ الحيوان وشملَتْه كثيرٌ من حَظَائر الناس : في بيت أبيه أَوَّلاً بقريته، عندما كان صغيراً ينامُ وأَمَّه وأباه وإخوتَه السبعةَ على فراشٍ واحد، فيُصبْح وعليه من لُعَاب أخته وَبَوْل أخيه الأصغر وبَخرِ كاملِ العائلة وكامل الليلة، ويقول كبشّار : هذه ثمرَةُ صِلَةِ الرحم. ثم في الكُتّاب حين كان صبيا يُلَقَّن القرآن، ويجلس في الشتاء والصيف في السقيفة تراكم فيها خمسون صبيًّا، ليس منهم إلا متنفِّسٌ بَاخِر، أو مُطْلِقٌ رجْليْهِ بالكَلَع الرِّيح، فائحٌ بكامل جسده وأمعائه، حتى يمتليء الكُتّابُ نكهة وغيْماً. ثم بعد ذلك في منتديات النّاس، وفي الأسواق، وفي السُّفُن بعد السفن، ثم لدى

إصبَاحِه من جميع مَنْ عرف في حياته من الجواري والنساء، بعد أن يكون ذهَبَ أَوَّلُ المتعة في أَوَّل الليل بالسكرة واللّذة، ولا يُصْبح من الجسد المطروح إلى جسده إلاَّ صِنَّةُ الابط وشعَرُ العانَةِ وقَبْحُ العوْرَة، فلا يجدُ له إلا مقْساً كفرْث الحبلى وغُصَّة. ثم... لكنْ ما فائدة التعداد ؟ أفليس كلُّ ما يَملَأُ أفئدة الناس، وما يتحرَّك في صدور الناس، وما يتعفَّن في نفوس الناس من بغضاء ودناءةٍ وأوهامٍ ونفاقٍ وحماقاتٍ وسفاسفَ، أليس كلُّ شيء كذا نفْياً للطهر والنقاءِ والحسنِ والطيب ؟ أليست الأرض كلُّها ؟ أليس كلّ حي... ؟ وتحرَّكَتْ يدُ السندباد وكأنَّه لا يشعر فقبضت بَطْنَهُ وقال : ثم أليست هذه أيضاً ؟

وما دامت السماواتُ لم تخلق للإنسان مُحِيطاً غير الإنسان، ولا ظَرْفاً غيرَ الجسد، ولا فجَّرَتْ فيه مَعيناً غيرَ النفْسِ الأمَّارةِ بالسوء، وما دام السندباد قد دخل قبل اليوم ألف ماخورٍ وماخورٍ، والتجأَ إِلَى أَجْوافِ القِحَاب ألف ليلة وليلة - مادام بينَ الناس لم يقتُلْهم جميعاً وفي جسده لم يُصَفِّهِ كالزجاج، فليدْخُلْ هذه الحانةَ فإنَّه لا تثريبَ عليه.

* * *

وتحرَّك فتقدَّم يدفع جرابَه بركْبتهِ. وحرَّك يدَه ردًّا على سلام صاحب الحانة، واقتحم الدفْءَ والدخانَ والهواءَ وجماعةَ البحَّارةِ السكارى. وذهب إلى مقعدٍ بزاوية الحانة باردٍ أسْوَد. فوضع جرابه وجلس وقد احمَّرتْ عيناه واغتَصَّ، وهو لا يدري أَمِنْ شدّةِ عفونة

الهواء أم من الحنين إلى البكاء. وجعل يديْه على عينه، وجاء الغلام يسأله ما يختار من شراب، فيقول : كأساً من خمر الكَرْخ. ويفتح عينيه، فإذا قبالَتهُ شمطاء معطيرةٌ مَزْهُوَّةٌ كذُبَابٍ على فَرْث، منصبَّةُ الثّديَيْن كالدلاء، مشغولةِ اليدَيْن والصدر والخدّ بكلبٍ وبرٍ أبيضَ، لسانُهُ كالنار قائمٌ كالعُود. فيمعن النظرَ فإذا هي القهرمَانَةُ صاحبة الحانة، ويتذكر أنه لدى مَرَّتِهِ الأخيرة بحانها، تركها تترَّنح ثَمْلَى في أحضان البحّارة السكارى. لكن ما لها هـذه الليلة تَنْسَى وجهَها الذي خلقَه لها ا لله، وما لها تتحوَّلُ به في عين السندباد إلى صورةٍ من وُجُوه كلّ مَنْ عَرَفَ من النساء ؟ وما لها تفُوحُ بنتْنِ كلّ سلطانٍ سفَّاح ذي دماء، وكلِّ قاضٍ مُلْتَحٍ ذي ارتشاء، وكلِّ مؤدِّبٍ صبيان ذي لواط، وكلِّ صاحبِ رُقْعةٍ متلصِّص سرَّاق، وكلِّ متعبِّدٍ كاذب ذي رياء، وكلِّ رَذْلٍ متعالٍ أصله في الحَمْأَةِ والخِزْي ورأْسُه بين الرؤساء ؟ ثم مالها تهمس إليه وصوتها يحكي أصواتهم جميعا صوْتاً صوْتاً : "نحن جميعاً هكذا، نقرِّبُ الكلْبَ وحرارةَ شَعرِه ولسانِه، وننفيك ونُقْصِيك وبَرْدَك وأنفاسَ الأعاصير في وجهك... أوْ تُحِبّ الكلاب..." ولا تزال تتحوَّل صُوَرُها، وتتنوَّع أصواتُها إلى صورة كلّ حيّ وكلّ إنسان، وصوتِ كلّ حيٍّ وكلِّ إنسان، وهي تقول : "... أَوْ تُحِب الحياة كما نحبُّها، أو تُقْلِعَ عن الرفضِ والجهاد. ولكنّك خُيِّرْتَ بين النساء والمعرفة، والناس والطهارة، فاخترْتَ". ويزيد وجهُها وصوتُها قائلَيْن : "عِمْ مساءً". ويهْوِي جسدٌ فيمسح جنْبَه ويجلس إليه...

ويرتَدُّ السندبادُ بغتَةً إلى الحِسّ، فَإذَا الجالسةُ إليه قَيْنَةٌ من قِيان الحانة يتذكَّرُ أنه كثيرا ما لجأ إلى حضنها وفراشها في ليالي الهَلَعِ والفرار. وتتسرَّبُ إلى جسده فظاعَةُ القبح.

* * *

وهمَّتْ به القينةُ، فهمَّ بالقيام وتفل، وهَمْهَم ولَمْ تفهَمْه : "كذا، كُلَّمَا هبط إنسانٌ أرضاً لَقِيَتْه الحياةُ بوجهِ القِحاب"

ثم قام فأنكرَتْ وقالَتْ : "إلى أين ؟ أَعْودَةٌ أم سفْرَةٌ أخرى ؟"

فلوى وجرَّ جِرَابه وشقَّ الحانة. ثم خرج إلى الليل يقول كذي الخَبَل : "إلى ما وراء الحياة، إلى الطّهر".

فأول فُلْكٍ لقِيَتْه وقع فيها وأرسلَها شديداً وأوْغَلَ في العاصفةِ والبحر.

وكانت آخرة سفراته، واحتوَتْهُ طهارةُ الأعماق.

# مِنْ أَيَّامِ عُمْرَان

# إسداء شكر

يطيب للمؤلّف تقديم خالص شكره إلى صديقه الأستاذ الفاضل الدكتور محمود طرشونة لما بذله من قصارى الجهد وفائق العناية في جمع نصوص كتاب "من أيام عمران وتأمّلات أخرى" وتحقيقها.

**م.م**

# تمهيد

عمران ودانية

شخصان في المخاض لست أدري أسيكون منهما قصة أو رواية أو لا يكون منهما شيء...

# المرحلة الأولى

# الفقدان

## – 1 –

# يوم النزول من الجبال

قال : أريد أن أذهب إلى الأعماق. ثم أمسك ساعة، ثم قام يمشي ساعة، ثم قال : أعماق الأرض أم أعماق البحار ؟

وكأنّما هو "ناعورة" تدور في رياح الأفكار.

قال : أريد أن أغوص على السرّ.

فقلت :

ـ عندما كنت بالبحرين كنت أرى المَغاص تغوص فيه البحّارة قبل أن تلد الجوهرَ الأعماقُ فلا يعودون وتنقطع بهم الحِبال فيقولون : إنه من غاص على غير جوهر قبل أن يخلق الجوهر انفتحت له أيدي عرائس الأعماق فاحتضنته واعتنقته ورُحْن به إلى كهوف الظلام في جزائر ما تحت البحار.. وإنه من غاص على غير سرّ قبل أن يخلق السرّ...

قال : لعلّه أن تذهب به عرائس الأعماق إلى جزائر ما تحت البحار.

## – 2 –

# يوم المعرفة النكرة

تدافعْته الطّريقُ وأفْناه الأُفُق، فوقف وأقام يسْتريح ساكِنَ الـرُّوح والسّاق.

وحطّها الجبلُ في السَّفْح وقد اتّقدتْ شوْقاً لمبْسوط الوِهاد فَنَزَلَتْ على مُنْعَطَف الطَّريق. ولَحَظَها عِمران فقال :

ـ إنْ شِئْتِ منزلةً راضيةً مرضيّة فسبيلُها العِشرة. والتفَتتْ إليه وكأنَّما باغتها ماردٌ من الجان :

ـ أنت لا تعرِفني ولن... فأيّ عِشرة لكَ مع نَكِرَة ؟

قال :

ـ لا تَثْريب اليومَ عليّ ولا عَلَيْكِ. إنّي لا أعرف كلّ من عاشرتهُم مِلْء حياتي أكثر ممّا أعرفك. إنّما العشرة ترافق الوحدةِ في المسير وفي المصير وكِلانا لكِليْنا نكرة. والسَّبيل إلى كِليْنا مجهولة.

وضمَّتْهُما الطَّريقُ صامتة واقفة. وذهبا يقول وتقول تيهاً بها وتيهاً به. وهكذا طَفِقَا يقولان تأصيلاً للكيان بالتّيه في أبعادِه بكلِّ جَزْم شكٍّ وحيرة إيمان، قولاً تركاه أوراقاً مُبَعْثرةً من أوراق خريفِ الحياة.

## – 3 –

## [ يوم اللقاء الأوّل ] [1]

دانية : أيّ داع أن نسير معاً ؟

عمران : لأنّ الحياة طريق. وأيّ طريق تُركَب بدون رفيق ؟

دانية : طريق الانفراد والوحشة.

عمران : تلك طريق الانتحار.

دانية : بل طريق الانعتاق للوحدة.

عمران : ليس في الكوْن حيّ كائن أوْحد. الكوْن كلُّه أحياءُ أزواج. إنّكِ وحدكِ عُقم لا يلد ولا يولَد.

دانية ( مردّدة ) : وإنّكَ وحدَكَ لعُقم لا يلد ولا يولَد.

عمران ودانية معا : فلْنُزَاوِجْ بين طَريقينا لعلّهما...

1- العناوين المثبتة بين معقفين [ ] من وضع المحقّق والبقيّة من وضع الكاتب.

– 4 –

# يوم السؤال الأعظم

دانية :

ـ أتذكر يا عمران يوم التقيْنا على الطَّريق التَّائهة أنت مُشرّق وأنا مغرّبة واتّصلنا في غير شرْق ولا غرْب ؟

عمران :

ـ يا دانية كلُّ الجهات فانية في السُؤال عن الطَّريق : أين فيها أنتِ وأين أنا. ألا ترين أن كلّ إله جوابٌ عن سؤال. وأعظم سؤال تحدّى كلَّ جواب هو الإنسان ؟



رسم : إيغون شيل : صورة ذاتيّة النمسا، 1911

... ثمّ إذا هو عامّة يومه ساج في السهاد.

يوم الضحية لا تذبح

## – 5 –

# يوم الضحية لا تذبح

نزل عِمْران من الجبال فقامت له دانية من أثْنَاء الـوادي في الفجْـر غَضَّةً خِصبَـةً كَيـوم ربيـع نـديّ. فصَحَبِهـا وتعاشـرا، وكـان يقـصّ فيقول:

ـ لقـد رأيتهـا والفجْـرَ يُشّـعان إشـعاعاً، ويعـدان بالجمَـال والأبَـد والكيَان، فأقولُ :" أيُّهما أصْدقُ وعْداً ؟". ولا أزالُ أقولُ.

وكانتْ دانية بعد ذلـك تقـوم لـه عنـد العشـاء والخلـوة، وعلـى وجهها شعرها الفاحم يرفّ عاطِفاً كـأنس ظلمـات الليـل القريـب، فيراها دفيئة الصَّدر تدنو إليه وتحنّ فيها الوحـدة إلى الوحـدة، ويـرى اللَّيل يحتضن الأرض يضمّها إلى صدر السَّـماء فـترقّ عينـه ولكنـه لا يلبث أن يَلْوِيَ عنها وهو يقول : "أيّهما أصدق وعداً ؟". ثم إذا هو عامَّةَ ليْلِهِ ساجٍ في السُّهاد.

ثم قام له ابنه يوم النَّحر على رأس الشَّاة تطـرح للذَّكـاة وعيناهـا ذائبتان إليه كالدَّمع راضيتان كالإيمان والحبّ. فنظرها ثـم نظـر ابنـه ثم قال : لا سؤال هنا ولا شكّ.. الشَّاة أصدق نحْـراً وأصـدق فِـداء وعيناً ودمعا. أما الابن فقابيل وهابيل ثم إسحاق وإسماعيل لا يذبح واصطحب كلباً له على الدَّهر.

## – 6 –

# يوم اللّقاء المستحيل

نزلت تقول :

ـ كيف ألقاك بعد لياليَّ العِجَافِ ؟

فقام لها في طريقه فارّا من الوهاد إلى الجبال، فوقفا وجهاً لوجه وقالت :

ـ أين الطَّريق التي لا نهاية لها فألقاك ؟ قال :

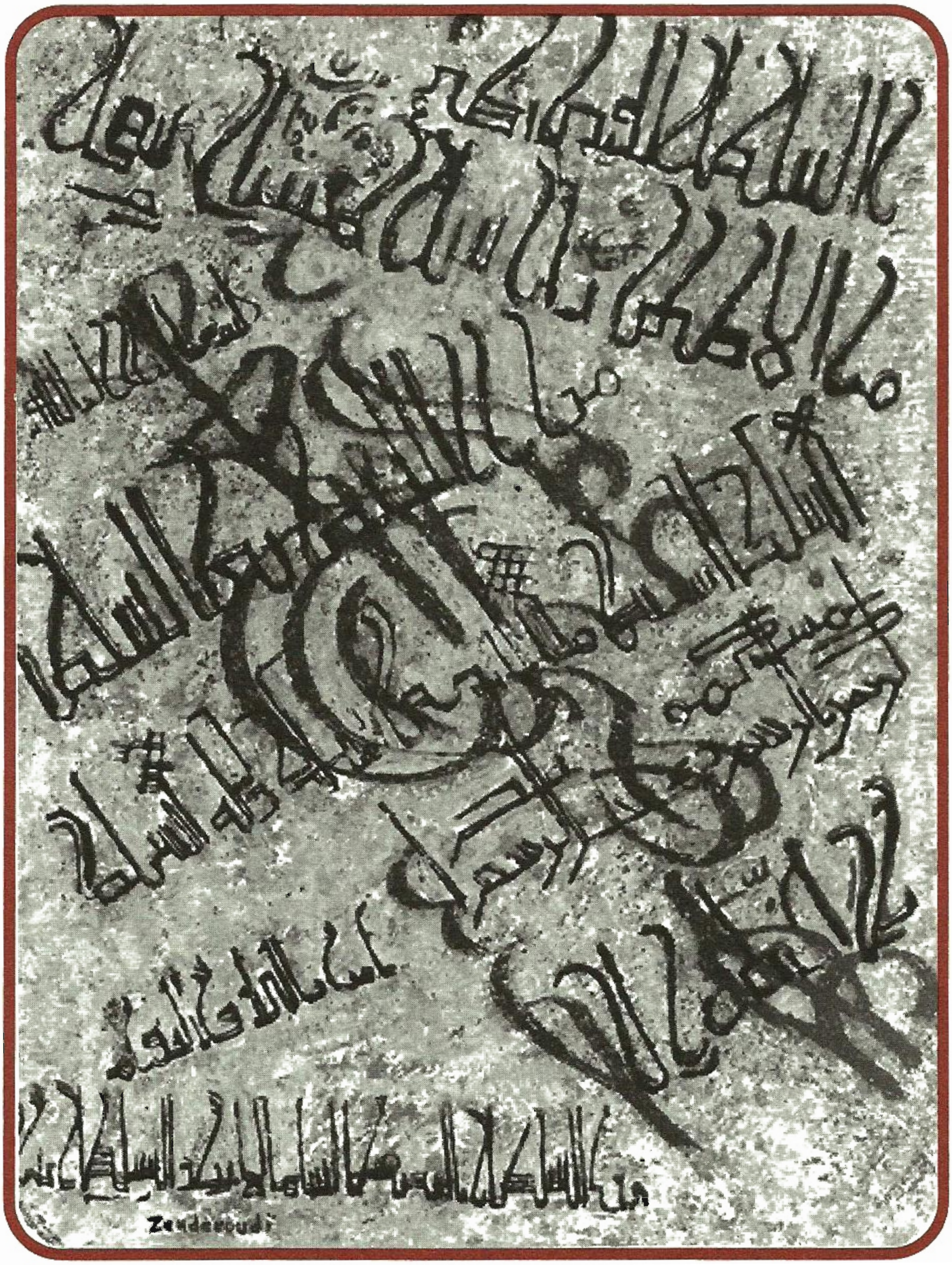
ـ لعلّها على اليمين ؟ قالت :

ـ أو لعلّها على اليسار ؟ قال :

ـ على اليسار عندك وعلى اليمين عندي... ذاك مكان اللّقاء. هَاتِيني يَدَكِ قَبْلَ أَنْ تضيع الجهات.

تمدّ يدها اليمنى ويمدّ يده اليمنى وجهاً واحداً إلى الأمام فلا تلتقيان.

وقال الله : تلك مأساة اللقاء المستحيل بين عبادي في الحياة. لا لقاء إلا عندي في اتّحاد الفناء بعد الممات.




رسم : الزندرودي

... تلكِ مأساة اللقاء المستحيل بين عبادي في الحياة لا لقاء إلا عندي في اتحاد الفناء بعد الموت...

يوم االخندق

## – 7 –

## [ يوم الخندق ]

حدّثت دانية قالت :

ـ ثمّ جاء وجلس بي يوماً على حافة خندق أسود غليظ تنصبّ فيه جميع مياه المدينة الدنسة وترفرف عليه سُحُب النتن. فقلت :

ـ ما رأيت أقبح من هذا الجلوس على الخندق.

قال :

ـ اجلسي أطلعك على حقيقة الجمال يصفه الشعراء.

فلم أجد غير الصَّبْر.

وانحدرت الشمس إلى المغيب فإذا ما بالخندق من الماء يعكس صورتها. فقال :

ـ انظري. هذا جمالها. مغيب الشمس على الخنادق القذرة.

فكرّهني وا لله في الشّمس وقبَّح في عيني مغيبها باقي حياتي. فما رأيت مغيب شمس بعد ذلك إلاّ شممت نتنا ورأيت قذراً. وقال :

ـ كذا مَا مِنْ شيء ليس فيه جمال وهو في قَدَر الإنسان.

– 8 –

## [ يوم اللّعب ]

عمران – دمعة من خمرة.

دانية – لا، بل دمعة وخمرة.

عمران – أَرَأَيْتِ عيني ؟ أرأَيْتِ وجهي ؟ أَرَأَيْتِ... ؟ لَعِبُ الحياة يعجبني.

دانية – وجهي برهان. ثدياي ظلام أم بيان ؟



رامبرندت، هولندا، القرن السابع عشر

وما الأزل ؟ وما الأبد ؟

## – 9 –

# [ يوم الكَلِم ]

جلسَتْ دانية إلى عمران ذاتَ عشيّ وهّاجةَ العين والوجه والأمل وقالت :

ـ إني يا عمران فضاء، فهل من كَلِم ؟

قال :

ـ أيّ كَلِم ؟

قالت :

ـ ما يملأ العَدَم فيرتدُّ كَوْناً.[1]

قال :

ـ إنّهم يا دانية ألّفوا أكره التاريخ : في ظاهره والمُسْتَبْقى من أحداثه وأصدائه مَسْرَحٌ رديء وزيْفٌ فادح... وفي حقيقته مأساة مغمورة، مطموسة العظمة، مأساة مغامرة الوجود الإنساني في

1- ( أو ما به ارتدّ كوْناً حائلاً العدم السرمد الأبد )
( أو ما به امتلأ العدم السرمد الأبدُ فارتدّ كوْناً حائلا فانيا ا لله الأحد الذي أولد و لم يُولد )

الكوْن، مغامرة الكيان الذي به وحدَهُ يكتسب الكوْن معناه وشرفه عظمته، فالكون في صمته هَوْلٌ في هَوْل بدون معنى، إذا لم يعْنِه الإنسان، الكون في صَمْتِه وأصل ذاته هَوْل أصم وخلاء أبْكم يَنْشُدُ مَنْ يَعنيه أو يُطْلِق لسانَه. وبغير ذلك إنما هو العَدَم العَجْز، لا يرتاده إلاّ تجّار الأمل الحاجبِ لليأس من التخلّص من الأقزام، ومن إزاحتهم إلى الطُرَّة من الحياة.

## – 10 –

## [ يوم الخلود ]

عمران : اجلسي إليّ.. أحدّثك حديث الأبد يفنى لأنه يبهرك بأنه اللانهاية ثم ينكشف لك عودا وتكراراً وحكاية لما سبق أو حكاية لحكاية.

اجلسي إليّ أُنَاوِحْكِ آمالنا البكر زنى بها الإنسان بألحان النادبات على الدهر.

اجلسي إليّ أحدّثك حديث فنائك وفنائي أو تحدّثيني حديث انتفائك وانتفائي. ألم يبلُغْك أنَّ الخلود عَوْدٌ على بدء ؟

# – 11 –

## [ يوم النزول إلى الأرض ]

دانية (نزلت نحو الأرض تطلب الإنسان ذاهبة إلى عمران) :
ـ أنت عمران ؟ عمران ! أي عمران ! أيُّ نَسَبٍ لَكَ بالأنبياء ؟

عمران ( مارًّا في السبيل ) : ما أنزلكِ من علياء جبالك ؟

دانية : ما نَسَبُكَ من الأنبياء ؟ أو من الإنسان ؟

عمران : انتسِبي ما يصلح لكِ من نسب. أنا الأوّل الآخر الإنسان الإله. أكون لأَفْنى فأُبعث... أُبعث في أعالي الجبال !

دانية : الجبال ضباب. الجبال هواء أو أضغاث هوى. ليس في الجبال امرأة ولا حبّ، ولا خلجة قلب ولا ومضة بَرْق، ولا فرجة أفق نحو السماء، نحو الباب الذي وراءه العدم.

عمران ودانية : ألا مَنَاص من فناء الحيّ مُرْتَدّا إلى ما لَمْ يَكُنْ ؟ إلى عبث السماء يهزؤ بالكوْن على أنغام لحن العدم ؟ أَلاَ رحمة من -إن كان موجوداً - من ا لله ؟

جواب الكون : الرعد.. الرعب.. إلى الأبد.. إلى أن يفنى الإنسان.

## – 12 –

## [ يوم الوهاد ]

**هي** : الجبال سماء كاذبة.

**هو** : والوهاد أيضاً، أليست طمأنينة ؟

**هي** : الوهاد أرض صادقة.

الوهاد حبّ ممدود لا أتعثّر فيه.

**هو** : وهل في الحياة متعة بلا تعثّر ولا جهد ولا ألم ؟ أنت لا ترْين الحياة إلاّ وهداً والحبّ إلاّ...

**هي** : إلاّ أخذاً وعطاءً معاً، لا كما تريده أنتَ جوهراً فرداً... هو الخلود الفناء، الأَوْجُ المستحيل إلاّ في القلب.

**هو** : الحبّ والحياة كلاهما خلود فناء... وآل في قيعة.

**هي** : أيّ ساحر يا عمران صنع كلّ هذه الأوهام ؟

**هو** : أنا وأنتِ مادام بنا للحياة معنى صادق أو كاذب.

## – 13 –
## [ يوم البحر ]

على شاطئ البحر.. عند الغَلَس.

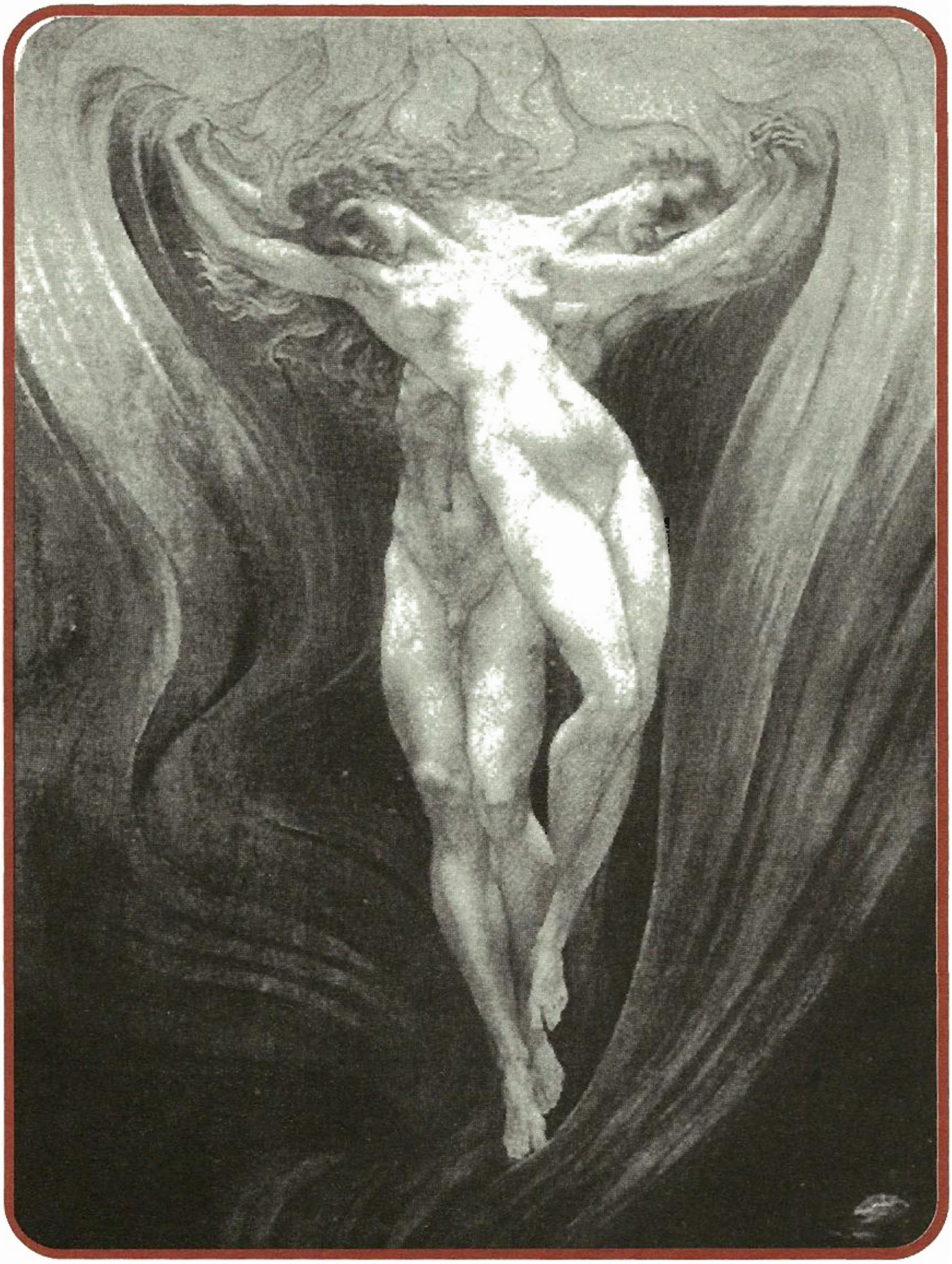
**دانية** : أليس من اللاّزم أن يكون للوجود معنى ؟

**عمران** : لزوم ما لا يلزم. وتسألين ! تلك علّة العقل، آفة الكيان. إنّما الوجود واجب بما هو فيض من كون الأزل الأبد، نفياً لما ليس له وجود ولا معنى : العدم.

**دانية** : وما الأزل ؟ وما الأبد ؟ لا بداية ولا نهاية ! أهو هزل أم عبث ؟

**عمران** : الكون لا يهزل. الكون حَتْم يا دانية. وإنّما أنت وأنا في تيه الزمان والمكان بلا بداية ولا نهاية، فلتة من فلتات الكون إذا هذى !

**دانية** : وما أروع وأبدع يا عمران أن نهذي أنا وأنت عشقاً محنة وبلوى، ننسى الكون والأزل والأبد ولا تبقى إلا أنشودة البحر وزرقة السماء الصمد.



رسم : جان دلفيل : حب الأرواح، فرنسا، 1900

... دانية : وما أروع وأبدع يا عمران أن نهذي أنا وأنتِ عشقا محنة وبلوى، ننسى الكون والأزل والأبد ولا تبقى إلا أنشودة البحر وزرقة السماء الصمد.

يوم البحر

## – 14 –

## [ يوم الجسر ]

وقفت عليه على الجسر ورأته ينظر الماء فقالت :

ـ أَتُراكَ لا تزال تريد أن تغيّر وتبدّل ؟

فابتسم وقال :

ـ إنه لا يستطيع تغييراً ولا تبديلاً مـن بَطُـلَ عنـده سـحر الكـذب والوهم.

قالت :

– ومع ذلك فأنت تعلم أنّه لا شيء غير الكذب والوهم.

قال :

ـ نعم. وفي حياة الإنسان هل جاء صدق الأبد ؟

قالت :

ـ إذن تتعطّل الحياة ويجيء الحقّ الصّمد. الموت.

قال :

ـ ومع ذلك فا لله حيّ.

فشخصت بعينها وشخص.

ثم قال :

ـ أتعلمين لِمَ جئت إلى الجسر ؟

قالت :

ـ لا أعلم.

قال :

ـ لا أعرف في الدّنيا مكاناً أدخله فلا أتمالك عن الضرب مثله.

قالت :

ـ وفيمَ ؟

قال :

ـ لأنّها كلمة قالتها بعض الحكماء في بعض عصور الحكمة عند بعض الأمم الحكيمة...

فضحكت وقالت :

ـ تعني الدنيا ؟

قال :

نعم، جسرٌ ومعبرٌ.

ثم جاءت ريح عاتية صرصر فزفرت في أخاديد نفسه.

## – 15 –
## [ يوم التّيه ]

في شعاب التّيه وأوْهام التأمّلات التقى عمران بدانية وسارا معاً حتى اعترضهما سائل اصطحب الطريق يُغنّي... هو ثالث ثلاثة في التّيه.

**السائل** : ماذا تصنعين هنا ؟ ماذا تطلبين ؟ السماء ؟ الأرض ؟ الغِنى ؟ الفقر ؟ الحبّ ؟ الحمل ؟

**دانية** : العشق.

**السائل** : عشق ماذا ؟

**دانية** : كلّ شيء. حتّى أتّقد وأُوقِدَ الكَون بالجماع ليكون بي. فأنا العلّة التي عنها يولد الغير وعنها يتأتّى معناه.

**هو** : ولو كنت... وما أنت في وَضْع الوعي الجذريّ ؟ لا شيء. الوجود الوهم.

**هي** : ولَوْ... لأنّي أنا خالقة وجودي.

**هو** : بالوهم. بالعشق. السلام عليك. أنجبْتِ الحياةَ وحياتُك من العبث بالإرادة العمى !

ويأخذ الطريق في شطحة مولانا جلال الديـن الرومـي... وهـو يغـنّي :

**شـيْـخ مِـنْ بَـلَـد فَــاسْ رَايَــحْ بــيــن الـنَّــاسْ**

**يـغني : وَآش عَلَيَّ مـن النَّـاسْ**

**وآشْ عَلَى الـنَّـاسْ مِـنِّـي ؟** (*)

---

(*) من موشّح صوفي مغربيّ لا يزال يُنْشَد إلي اليوم (المحقق)

# المرحلة الثانية
# الوحدة

## – 16 –

## [ يوم التجاوز الأقصى ]

**عمران** : إنّه يا دانية لا فرح ولا أَلَم ولا سعادة ولا شقوة إلا في الوحدة. أما إذا أصبحت بحيث تتنّي الحياة في كلّ ما تحبّ، فقد أصبحت ناظراً لحياتك وذاتك وقد متّ عنها توّا. وذاك لا يبلغه إلاّ الذين ذاقوا الشجرة المرّة الحرام، فطعامهم زقّوم..

## – 17 –

## [ يوم الطريق الطويل ]

**عمران** (قادماً من أقاصي أبعـاد البعيـد.. يجـرّ المشـي جـرّا..) : الطريق طويل.. طويل.

**دانية** : (حين يلقاها) أين أنا ؟ أين أنا ؟

**عمران** : على الطريق الطويل..

**دانية** : إلى أين ؟

**عمران** : إلى لا أين ؟

**دانية** : بلى. إلى أين ؟

**عمران** : إلى الأبد.

**دانية** : وأَحْيى ؟

**عمران** : لا. تُبْعَثِين.

**دانية** : وأموت ؟

**عمران** : قبل البعث.

**دانية** : وَلِمَ ؟

**عمران** : اسألي الله.

**دانية** : الله ؟ وأين هو يا تُرَى ؟

**عمران** : يا تُرَى ؟ حيث لا جواب ولا سؤال. حيث الصَّمتُ.

**دانية** : حدّثـني. لا تـتركني وحـدي. إذا كنـتُ وحـدي أفكّـر. التفكير عذاب. خذني بالكلام. أَلْهِني.

**عمران** : إذن تموتي... الكلام ملاذ الموتى. عيش الحياة.. زَيْفٌ ووهمٌ وبهتان.

أنا وأنت ليس لنا معنى !

**دانية** : الذباب ليس له معنى ! القمر ليس له مَعْنـى. العنكبـوت ليس له معنى. الأخطبوط، هل له من معنى ؟

**عمران** : ولكن قد يكون المعنى سابقاً الوجودَ، كما كنتِ أنتِ يا دانية في ضمير الكون، في ضمير الله قبل أن تكوني فعلاً.

**دانية** : ما من شيء إلا وراجع في معناه إلى ضمير خالقه !

**عمران** : أقول : أنا وأنتِ ليس لنا معنى، فتُجيـبيـنَني بالرجوع إلى ضمير خالق ! ؟

**دانية** : إمّا ذاك وإمّا أن تَقْدر بصفة ما علـى إدْراك مـا يتجـاوز العقل وأن تُفْهِمَني ما معنى وجود الكوْن كلّه في ثقله بلاَ ضـرورة ولا مبّرر ولا معنى..

# المرحلة الثالثة
# مولد الكبرياء

## – 18 –

# يوم الصمت والغصّة

قالت دانية لعمران ذات عشيّ ذائبة الروح :

ـ هذا الأفق الذي فيه تغيب الشمس، ألا نغرب فيه نحن يوما مع الغاربين ؟ قال :

ـ الشمس لا تغرب، وإنما هو أن تتطاوح بها الأوساع وتقصر عنها العين. وليس المغرب مكانا، وإنما هو مدى البصر وآخر النظر. وأما الأفق...

وسكت عمران وكأنما سجى وانطلق. فقالت :

ـ فأين الحدّ ؟ ألا مغرب ؟ ألا نهاية ؟ قال :

ـ لا نهاية لأيّ كيان ولا لأيّ كون. لا نهاية للأفق التوق، الكون الأبد، لأنّه واجب الوجود. وإنما العَرض زائل. وللعين وحدها، للضمير وحده، للوجود وحده - دون الكيان - مغرب ونهاية عندها ينتهي...

قالت :

ـ وهل نسيت داعي البقاء ؟ أليس أن الأفق الإنسان ؟ أليس أن الأفق حلم بما هو توق وجهاد وشوق.. إلى الأبد سؤال ؟

قال :

ـ بلى، لكن أليس أعظم منه وأبقى صمتُ الكون عن الجواب !

قالت :

ـ الصمت عدم. والسؤال وحده، بما هو حمل، كيان.

قال :

ـ هذا لسان الأنثى الغرور، هبطت من الجنة القرار، التي لا تلد ولا تولد، لتحمل عشقا وتلد عتوّا كالشيطان.

قالت :

ـ لست أنسى قول الحبيب الأوّل لمريده : لو لم تجدني لما طلبتني قطّ. إن السؤال الحقّ هو الخالق بدءًا وعوداً لما يسأل عنه. لولا السؤال والسائل لبقي الكون قفرا والوجود عبثا وسخرا.

# – 19 –

# يوم الكفَّارة والرّحمة [1]

دعاهما داعي الرحيل والتيه نحو ما لا يدريان، فاجتاز أمامهما في بعض مراحل طريقهما مارّ من أبناء السبيل، في يده عصاه وفي السماء عينان. وإذ رأياه مكفوفا تائها في ليله قالت دانية وقد ذهب بالها شعاعا : يا عمران، أليس أن الله وحي ورؤيا لا يسمعه أصم ولا يراه أعمى. فما ذنب من خلقوا صمّا وعميا ؟ ألا علينا أن ندعو لهم ونعطف عليهم كفّارة ورحمة ؟

قال عمران : وما أدراك أن في انغلاق الكون أيّ مفتاح وأنه ليس أصمّ عن دعائك وأعمى. إلا أن مفاتيح الغيب لعند الله لا يعلمها إلا هو، إلاّ هو...

وتطاولت الطريق إلى ما لا غاية ولا نهاية... ولا كفارة ولا رحمة.

---

1- لم نثبت هذا اليوم في الطبعة الأولى لأنّنا لم نجده ضمن المخطوط الذي اعتمدنا. وقد عثرنا عليه في طبعة ثانية لكتاب "تأصيلا لكيان" د.ت. ص 206. ونبّهنا إليه مشكورا الباحث كمال الرياحي.

– 20 –

## [ يوم تجاوز المدى ]

أُغْدِقَتْ عليه الفاكهة ألواناً وأُوتِي عصفاً وريحاناً. فقام يزرع كلّ شيء وجَاعَ وقال : لا شيء فيه كمثل الملء لحياة إنسان. ولا شيء إلاّ ويمكن ويجب تجاوز مداه. إلا أن تكون العين عن الأبد عمياء.

## - 21 -

## [ يوم الإياب والطهارة ]

قال :

ـ إن استطعت أن تترك الكون إلى حيّز واجب الوجـود وكـلّ مـا ينبو فيه عنه وينبغي منه فقد آمنت.. فإذا الحياة خلق جديد.

حين طغى الفعل على عمران اشتدّ وقام صرحاً كالصخر وقال:

ـ إذا انقطع قلب العابد عن ربّه لحظـة فتعلّقـت عيْنـه بسـحابة في السّماء تذروها الريح، فقد انقطعت عنه لحظة الطّهارَة.

# المرحلة الرابعة

# الحاجة إلى الحب

## – 22 –

# يوم القطيعة

قال عمران لأمّه، وقد جاءها يوماً يبكي كما كان يبكي قديما في مهده :

ـ أيا أمّي أحبّيني. فقالت :

ـ وإني يا بُنيَّ أحبّك. فقال :

ـ لا كما تفعلين أريد ، إني أريد أن تصليني.

فعطفت عليه ولاَنتْ يدها على وجهه، وضاءت منها له ابتسامة، وقالت :

ـ وهذا يا عمران، ما قد تقول حينَ كنتَ طفلا[1]، وتقول وتتحدث عن السماء والبحر، ويحويكَ حضني

وأقبلتْ فضمّته. فحَنَا وحَنَّ، لحظة كالبرق. ثم كأنه وجد كالقرّ. فتسلّل وقام، يوسوس له الشيطان : حتى الأمّ ؟ حتى

---

1- هكذا في الرقعة المخطوطة. أمّا في المخطّط فقد ورد القول على هذه الصورة : "هذا ما كنت تقول وأنت طفل أيضا".

الكون ؟ فأين الوطن ؟

وانصرف منكـرا الصلاةَ يقـول : السـماء سمـاء. والنجـم لألاء لذاته. والماء وحده يجري. وأنا على شفا ذلك كله أنا. على حدة. كالدمعة يفرزها الكون على خدّه. إنسانا على الأرض...

# المرحلة الخامسة

# الموت

## – 23 –

## [ يوم الشوق ]

حطّته إليها طرق الجبال.فالتقيا على جسر على نهر. فقال :

ـ أجد بي شوقاً إلى الماء أو حاجة.

قال :

ـ إلى الماء. إلى العطف والحنان.

قالت :

ـ وأنت أيضا تؤمن بالرَّحمة والوهاد، وبالجّنات تجري من تحتها الأنهار، وتبلغها بالبلوى والمِحنة، وبالصبر على الجبال. وماذا صنعت في الجبل ؟

قال :

ـ عشت عيش الجبال. ونمت على الحديد إلى أن عضّ الحديد لحمي، وكلّمتُ صدى الوادي تحتي، واتّخذت الصخور رفقة واليراعة نوراً، والكهف خلوة، وشربت ماء العيون، وطعمت العروق.

قال وقد عوى الذئب :

ـ عوى الذئب فاستأنستُ بالذئب إِذْ عَوَى...

قالت :

ـ وماذا صنعت في الجبل ؟

قال :

ـ أخـذت الظـلام غشـى عيـني أن تـرى، والـتراب سـدّ أذنـي أن تسمع. أطلب أن تفنى السماء.

– 24 –

## [ يوم الشيخوخة ]

سئلت دانية عن عمران فقالت :

ـ لقد شاخ يرحمه الله وهو إذن في العقد الرابع من عمره.

## - 25 -

# يوم القحط [1]

حدّثت دانية قالت :

ـ ما سمعتُ من عمران أصدق من كلمة قط. كان يقول :

ـ تعلمي قصّـة شيخوخة الحياة. إني كنت وأنا صبي يقتل الحشرة غيري فأوجع، ثم صرت أقتلها أنا فأوجع، ثم صرت أقتلها بين يدي ولا أشعر... ويقول : ترين كيف يُفْرشُ للموت ؟

وقد أراه بعد ذلك يعود صديقا له مدنفا أياما متتابعات، وكان أخاه الأوحدَ. ثم يمسك عن ذلك يوما أو يومين، فلا يلبث أن يأتيه ناعيه. فلا يخطر له أن يتحرك، ولا يقوم إلى بيت صديقه وأهله، لتعزية أو مؤاساة أو بكاء، ولا يألم ولا تحضر له نفس.

---

1- جاء في هامش هذا النصّ في كتاب "تأصيلا لكيان" ما يلي : كتب المؤلف "يوم القحط" بعد أن شيّع إلى مقبرة الزلاج صديقه الراحل الوطني المناضل المرحوم علي البلهوان وذلك يوم السبت 11 ماي 1958" (الطبعة الأولى، تونس 1981، ص 195 ). وهذا لا يستقيم لأن "يوم القحط" نشر لأوّل مرّة في مجلّة الندوة ( جويلية - أوت، 1954 أي قبل وفاة علي البلهوان بأربع سنوات. (المحقّق)

ويتساءل الناس عنه، ويستغربون غيبته من المأتم. ثمّ تقوم الجنازة على صدرها قرّاء المقابر كالخزي، وفي وسطها النعش، وفي آخرها جميع اللحى وجميع الطرابيش والعمائم والأزياء.

وتُصَلَّى الصلاة بالجامع على الميت، ثم تتمدد القافلة في أزقة المدينة تَؤُمُّ مقبرة الغرباء.

ويمرّ بها عمران صدفةً وهو في تجواله بالمدينة الهائمة منذ يومه، فيشمئز منها اشمئزازا. وينكر هذا الجمع على جثة صديقه وأخيه، ولم يكن في حياته جَمعَه جامع بأحد، ولا وَصَل بينه وبين غيره واصل. ويقول عمران :

- حتى الموت ! الموت نفسه لا يقي الفريد من عار القوافل وشتم الجماعات. هم يتحدّثون عن قداسة الموت، ويحنون له الظهور، ويطأطئون له الرؤوس، ويخنعون ويجمدون. أو يدعون. ولكنهم يهتكون الحرمات، ويلطخون موت الوحيد بالاجتماع عليه كالذباب، ويشوّهون وجه المفرد الفرد - وجه الصمت والخلاء والوحدة - بقوافلهم وترتيلهم ونعاقهم، وحديثهم وراء النعش عن الحياة ومآربها في البطون وفي الفروج...

وتذهب الجنازة حتى توارى الجثة في التراب. وأرى عمران يلوي وهو يتفل ويحتقر وينتقم. ولا يزال عامة يومه هائما يدور كريح الإعصار على قطبه. حتى إذا جاء الليل، وغلب الموت والسكون، وقهر الظلام كل شيء، قام عمران فجاء مقبرة الغرباء.

فوقف على قبر صديقه، وهمّ أن يتحدّث إلى الميت فيقول ويقول... لكن ماذا يقول ؟

فهذه السماء وكواكبها الأقاصي، وهذه الأرض وبردها، وهذا الليل وشدّته، وهذه القبور كلّها تتلاطم وتتضارب وتتشاتم وتتصارع كأشباح الأغوال في خرافات الأطفال.

وينزل على عمران مثل الكابوس الأدكن. وتتبادر إليه ذكريات عواصف الريح على رؤوس الكثبان أو ذروات الأمواج، وتنْصَبُّ عليه صور كل هباء وكل رشاش وكل غبار وكل فناء. ويحضره الزمان والمكان، وتقوم في عينه كل أم والدة : من نعجة ثاغية، وفرس ناحطة[1]، وامرأة معضلة في دمائها وأشلائها وأغراسها وقبح حالها صائحة.

ثم هو يذكر أبا العتاهة وحماقاته في شعره عن الموت. فلا يثبت لذلك كله وينفجر من حلقه غناء جنون، لطم صافق وشتم فاحش في وجه الليل والموت والسكون. ويذهب عمران متمايلا بين القبور، ثملا بالغناء والليل والإقفار.... ولا يزال يضحك ويغني إلى أن يعيي ويقع في العجز والحقارة والذل، ويذهب به النوم على قبر من القبور. وتمسخ القيامة...

ثم يصبح عمران، وتصبح الشمس والنور، فإذا هو مدحور.

---

1- نحطت الفرس : صاحت من الإعياء والتّعب. (المحقّق)

فيقوم ويعود إلى المدينة. فأول من يلقاه صاحب له في الجهاد يقول:

- أين كنت عمران ؟ إنهم يترقبونك لعمل عليك اليوم أكيد. فيقول :

- نعم، توّا.

ويذهب وهو يبتسم، ويدخل فيقول :

- اليوم أيضا يجب عليَّ " أن أحمل الماء من النيل إلى عصاكم المغروسة في الرمل " ؟ اليوم أيضا يجب أن أعمل ؟... ألا تستحون !

فينظرون هل يرون من عورة...

## – 26 –

## [ يوم الانحدار ]

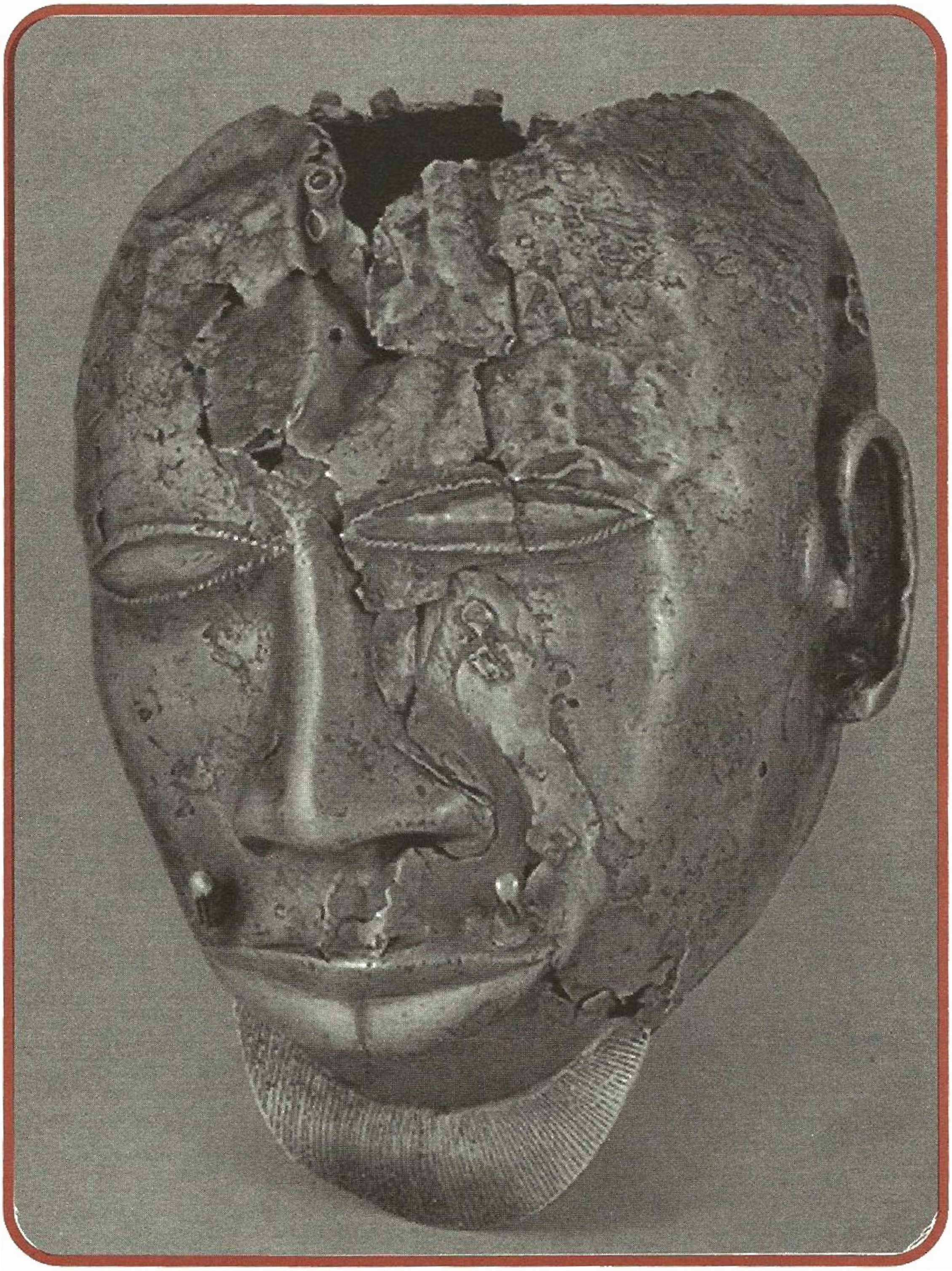
**هو** : ماذا تصنعين ؟

**هي** : أتأمّل الماء يجري في واديه والحشرةَ تدبّ على الأرض.

**هو** : ...

**هي** : لأنّ شأني مع الحشرات شأن المـاء لا يَـنِــي إلى الوضـع، إلى الموت.

كذلك ينحدر الوجدان والإحساس من حـدّة القمـم إلى خـلاء الوهاد كما ينحدر الماء ويسيح وينبسط فيهدأ ويخلو...



قناع من ذهب، فن اشانطي، غانا، إفريقيا، القرن السابع عشر

تفجّرت في صدري عين وسالت فخرجت إلى دموع الأساطير.

يوم العين

## – 27 –

# يوم العين

قال :

ـ ما جئت تصنعين ؟

قالت :

ـ تفجّرت في صدري عين وسالت فخرجت إلى دموع الأساطير.

## – 28 –

## يوم دانية

قال الأصمعي :

**« ليس في أيّام العرب يوم إلاّ وليوم دانية هَوْلٌ فوق هَوْلِه ».**

## - 29 -

# حديث آل عمران

حدّث بعضهم قال :

سألت آلَ عمران خَبَرَهُ وكان الناس يقولون فيه بأقوال. فقال بعضهم : إنه قطع كقواطع الطير.. وقال بعضهم : إنّه مات - رحمه الله - وقبره عند منقطع الوادي.

ورأيت مَن إذا سئل عنه ردّ لثامه على وجهه وأَعْرَض واستعاذ من الشيطان، فكنت بعد ذلك إذا سألني سائل أقول : قل علمُه عند دانية.. وقد ذهب البحر بدانية...

## ـ 30 ـ

## [ يوم الغوْص ]

الطريق طريق الجبال. الصعود.

قال :

ـ الطريق هنا ذروة الجبل إلى البحر. الغَوْص.

قالت :

ـ قد يكون بعض الغَوْص رسوباً.

فقال :

ـ فإذا كان ؟

ثمّ أمسك وقال :

ـ كلانا أحاق به الدّهر.

قالت :

ـ ما أنت صانع ؟

قال :

ـ أنصرف فأردّ الأمانة إلى صاحبها.

وأهْوى فأراه لا يبلغ قاع البحر لبُعْدِ غَوْرِهِ وظلمته وسواده وأراه في بحور الشياطين.

وصاحت دانية صيحة كَوْنُها من سويداء الصخر وارتمت. فأرى الصخور تكشف جسدها وتقطعه أشلاء وتُبَدَّدُ الدماء ولا يفي إلى الماء منه شيء. وصيحتها لا تزال هناك إلى اليوم، ولا يزال دمها على الصّخر، وقد يراها الناس كالطائر تحوم على ذلك المكان فيغشاه مثل السحاب أو الغيم. وإذا كان يوم صيف جاءه برد كأشدّ أيّام الشتاء. وإذا كان الشتاء جاءته رحمة كألطف حرارة الربيع وريح كَرِيح عروس، وليس يقرب ذلك المكان بحري أو طَائر بحر إلا أخذته المياه وذهبت به... وانفجرت عيْن من الجبل فهي إلى اليوم هناك كمجرّة السماء شلال على قائم الصخر.. تتلو على الدهر : عمران ودانية.

# تَأمُّلات

– 1 –

الموت والحياة توأمان، شاهدان على الكون لا يفترقان، بدونهما ينتفي الكيان عقلاً وأصلاً. وهل قام الكون في هندسة مبناه على غير قاعدة الازدواج والزواج ؟

– 2 –

أقسى ما في الموت أنه بابٌ خدعةٌ ليس وراءه إلا العدم.

– 3 –

أمام عظمة الموت ليس أكرم من الصمت. فأنى تسألْ لا يجبْك العدم.

– 4 –

ألا ترى أنّ الله في منتهى الغيب. والغيب أقصى أبعاد الحياة. والحياة عشقٌ للغائب وفناءٌ في الشَّوْق إليه ؟

– 5 –

**جلال الكلمة**

الحياة فانية. الكلمة وحدها باقية. بها خلق الإنسان الإله وإليها أرجعه. فجعل الكلمة الله. التوراة والإنجيل. القرآن كلام الله. موسى كليم الله. وأي رسول لم يتكلّم على لسانه إله ؟

إنما الصمت العدم والكُفْر بالله.

– 6 –

الحياة صيرورة وديمومة وفناء.
والكيان وعي وسؤال.

– 7 –

الإنسان بالطبع أنانيّ في الخير، لا يعطف أو يحوجه شيء إلى الغير، وأنانيّ في الشرّ، يرى عونه على الضرّ فريضة على الغير.

– 8 –

عجز العقل الإنساني مفتاح الغيب والإيمان.

– 9 –

أقصى الإيمان كفر أو عذاب، كالحب بلا وصال تأباه ويأباك.

– 10 –

الدين حيرة وسؤال في حوار دائم مع السَّماء، وإلاّ فهو بلادة طبع أو خدعة أو بهتان.

– 11 –

من مآسي الإنسان أنّه إذا لم يجد الله لا يجد ما يعوّض الله، إلا كذباً وبهتاناً أو ملهاةً ومخادعةً للنفس، وكلتا الحالتين بخس وبؤس.

– 12 –

ما أتفه الحبّ القاصر عن الجنون، وما أخسّ العبادة خلت من العشق.

– 13 –

الحب والجمال ثأر الحياة من الفناء والعدم.

– 14 –

ما أجمل الحياة وأطيب السعادة وأعظم الوجود لو لم تُركّب الأقدار في نفس الإنسان معنى الخلود وهو ممتنع.

– 15 –

الإيمان أصدقُه شكّ الحائر الذي لا يزال يطلب ويطلب حتّى يجد. وأحمقُه إسلام المسلّم الذي لا يطلب ولا يجد فيقف جامد النفس والعقل.

– 16 –

القسوة يبس وجفاف وقحط. والرحمة لين كريح الفجر وجنّة كأوّل الحبّ. وهذا هو الإنسان وذلك هو الحيوان الضاري أو هي السنوات العجاف. وقد يجتمعان في الإنسان شوقاً حنيناً لأصله الحيوانيّ.

– 17 –

طريق السعادة إلى الروح متعة الجسد خالصة أو عذاب التصوّف.

– 18 –

ليس من الأدب على أيّ وجه أن تقول لتقول وإن أبْدعْتَ حرفاً ولحناً. وإنّما هو أن تكون لتقول لتكون نحتًا وتمحيصا.

– 19 –

ما أحقر الزمان عند المَمَات.

– 20 –

لو لم يكن الوجود مأساة لَمَا كان الله ملاذاً ومَلْجَأً ومعدن الطمأنينة والرّوْح.

– 21 –

الشيء وضدّه كالوجود والعدم توأمان متلازمان لا يقوم بدونهما تصوّر ولا منطق.

– 22 –

لو لم تعرفني لَمَا طلبتَني في كل زمان ومكان. هكذا أوحى الله بالدين إلى الإنسان.

– 23 –

كلّ دين وكلّ وحي مسبوق بإيمان، عنه مصدره أو إليه مرجعه.

– 24 –

ما أزهد غَنِيّ النّفس في المال وكريم الأصْلِ في الجاه والعليم بالناس في الناس.

– 25 –

يا بنيّ استمتع بشبابك قبل أن تندم عليه فما للحياة جمال ولا

معنى إلى بغرور الشباب، ولا بغيْره غلبة على القدر والدهر وثَأْرٌ من مأساة الوجود في مسيرهِ الحَتْم نحو الغروب.

– 26 –

الخلق وهمٌ يَجْهَدُ أن يكون فيكون إذا مرّ به إله أو مجنون.

– 27 –

هل في الخلوّ بالوحدة والغيبة بالسكر لبّ التصوّف ومأساة الإلحاد المستحيل، أم زيف الانعتاق والمفرّ وحضور الانتحار الخسران ؟

– 28 –

بَنى الإنسان الأهرام جيلاً فجيلاً لتفنى دهراً فدهراً وئيدا، ويَفْنَى هو معها جيلاً فجيلا، ولا يبقى إلا سرّ الكون منغلقاً حديداً. ولادةً وموتًا. ولا معنىً جديداً.

– 29 –

عندما تطغى العتمة بالوحشة واليأس يقوم أذان الصلاة ملجأ زيفاً إيهاماً بنجدة جماعة المصلّين لليأس يدفع الوحدة واليأس من حوله. وإنما القاسم المشترك بينهم وبينه التفاف كل واحد منهم بتوحّده بوجهه ودعائه أمام الله فلا تكون إلاّ صلاة جماعة أوْحاد. وهل أقسى في منزلة الإنسان من وحدته أمام الله والقضاء والقدر والكون الصامت الشامت ؟

– 30 –

## واعذاب الحيّ

كانت أمّي رحمها الله تقول :" واعذاب الحيّ. " كثيرا ما تعدّدها في حالات التعب أو عند سماع خبر سوء عن الغير.

وكنْت في صغري أسمعها تقول ذلك ولا أفهم حتى الألفاظ. وفي عنفوان شبابي أهزأ بتأوُّهها كأنّه علامة ضعف وعجز، وأستغرب أن لا تملأ نفسَها مثلي روعةُ جمال الكيان وسعادة الوجود وهي أعْرق منّي في الحياة.

ثمّ تطارحتني ظروف الزمان، وتناوبتني التجارب والأحوال، وسكنتني مأساة الحيرة أمام انغلاق الكون عن سرّ الوجود - وجوده ووجودنا معاً - فبدا لي أنّ قولها خلاصة ما حكمت به الأقدار على الحياة، أتراحاً قرينة بالأفراح وأدواءً ملمّة بالصحّة والعافية وعذاباً لازماً لا خلاص منه إلاّ الممات.

وما أقسى أن يكون الموت نجاة، وما أنكر منطق الأقدار تجمع الشيء بضدّه ولا تستحي في التناقض بل تحكم به وترضاه. سرّها المكنون في أصل الخلق والكيان وحقيقة الكون والإنسان.

28 جانفي 1996 (1)

---

1- تاريخ ولادة الكاتب : 28 جانفي 1911. (المحقّق)



الهادي التركي، تونس 1976

قال عِمران لأمّه، وقد جاءها يوما يبكي كما كان يبكي قديماً في مهده : أيا أمّي أحبّيني.

يوم القطيعة

— 31 —

المعرفة عقل وعلوم والأديان تصديق وقبول.

— 32 —

أما رأيت أن ا لله وحده خلق ولا يزال آلاف العباد مدى آلاف آلاف السنين، وأن آلاف آلاف البشر مُذْ خلقوا لم يستطيعوا إلا خلق إله واحد ؟ فما أعقم الجماعة وما أغرّ كبرياءها !

— 33 —

الإنسان صدى ا لله في الأرض وعبقرية الإنسان شيطان.

— 34 —

كاد الإيمان الذي لا يصحبه شكٌّ وبحثٌ وطلبٌ وجَوْسٌ أن يكون عَمَى بصيرة وضلال سبيل ووهمَ تائهٍ في قاع سراب.

— 35 —

إن كنت تريد أن تكون، وأن تكون إنساناً، فاجعل كلّ حياتك سؤالاً وكلّ طريقك سيراً لا يني.

— 36 —

الوحدة مع ا لله، والجماعة مع الغير. وأيّ شيء هو الغير ؟ إن لم يكن سعيا وهمّا لحجب الوحدة : وحدتك أنت إن لم تكن مع ا لله، ووحدة كلّ واحد من جماعة غيرك. إلا أن تذوب الأجساد ويذوب وجودك ووجود غيرك معاً في العدم، فتبارك العدم مقصد الكيان ومنتهى الوجود.

– 37 –

التصوّف سكرة الحائر وجنون العاشق لما لا يدركه عقله. فبخمريات ابن الفارض و " شطحات دراويش مولانا " تبدأ رقصة الحيّ التائه يغنّي :

علّلانى فإنّ بيض الأمانى

فنيت والظلام ليس بفَانِى

– 38 –

المنطق كمال الفكر والوجدان ومحبس الخيال.

– 39 –

آفة الطمأنينة السؤال. والعكس بالعكس.

– 40 –

ما أشبه مأساة المجنون وليلى وروميو وجوليات بمأساة مولانا جلال الدين الرومي أو محنة الحلاّج. كُلٌّ يطلب الوصال والاتّحاد، ويقوم المجتمع وعاداته أو الجسد وحدوده دون ذلك بتاتا. ولا يبقى لعشق المجنون أو روميو صلة قرابة ألْصق بالإنسان من شطحات مولانا مع الله وموت الحلاّج في الله.

وما أقسى القدر الذي جعل اكتمال الكيان وروعة الوجود ملتزمين بالغيبة عن الوعي في سكرة أو جنون.

– 41 –

نقول في تونس :"الفْرادة عْبادة". وأيّ وحدة لا تصحبها تأمّلات؟ وأيّ تأمّلات لا تسأل إلاّ عجز العقل عن الجواب ؟ وإنّما أنت تأبي أن تعجز فتجيب : هو الله، وتكون "الفْرادة عْبادة".

– 42 –

يا بني، اعلم أنه من لا تلازمه طولَ حياته الحاجةُ إلى الأدب يجعله غذاء لروحه وعشيراً لقلبه ومداراً لفكره، يخشى أن تقصر أبعاد حيويته وتضيق آفاق كيانه وفضاءات سعادته فيلازمه عشقاً ليكتمل له ملء كيانه الإنساني واستمتاعه بروعة الوجود وجمال الحياة.

– 43 –

الشعر ينزل على الشاعر وحياً كوحي الأنبياء من الله. ويأتي بعد ذلك الفقهاء ليفسدوه، وأصحاب النقد والشرح ليطمسوه.

– 44 –

لا معنى للحياة غير مكتوم سرّها مطلوباً فممتنعاً.

– 45 –

لا وجود لله إذا لم يطلبه طالب. وأي معنى يكون لوجود الله عند الله وحده لا يجده أحد !

– 46 –

ما أبعد القلبَ عن الصَّبرِ والصَّبرَ عن القلبِ ! وليس مع الصابرين إلا الله.

— 47 —

آية صفات الله أنّه لا يتناقض فيه الأزل بلا بداية والأبد بلا نهاية، ولا الحضور مع الغيبة. فوجوده نقيض كلِّ منطق عقلي[1].

— 48 —

سؤال إلى مفكري نظرية العبث : ما هو موجب وجود الكون وبروزه من العدم، وبأي نوع من المعجزات يقبله العقل ؟

— 49 —

الإنسان ضمير الكون وصداه. لولاه لبقي الكون عدماً لا صوت له ولا وجهاً.

— 50 —

إنّما تتبرّج الأنثى هياماً بجسدها وحلماً بالذكَر. وأنّى يكتمل لها جمالٌ بدون هذا وذاك ؟

— 51 —

قيمة كلّ أدب حقّ على قدر إثرائه لكيان الفرد والمجتمع معا بأبعاد أوسع وطاقات فكرية وأخلاقية أسمى.

— 52 —

أيّ قول تقوله يفضح باطنك من حيث تشعر أو لا تشعر. فاحذر أن تستبله الناس.

---

1- أو : كلُّ منطق عقليّ ينفيه.

— 53 —

غرور الشباب اغتصاب لبكارة الحياة.

— 54 —

ليس في الدنيا نار قطّ أحْرق للإيمان من خيانة الحبيب الأوّل.

— 55 —

الإيمان - وإن شئت الطمأنينة المنشودة والسعادة التي بها تكون - إنّما هو إيقاع يؤلّف بينك وبين نفسك، وبين كيانك والكون حولك، وبين حياتك والفناء والموت بعدك، لحناً ليس فوق روعته جلال أبهى، ولا أبعد من نهايته فضاء أسنى ولا زمان أبقى.

— 56 —

الإيمان با لله هو الإيمان بالإنسان، بل قل إنّ الإيمان بالإنسان هو الإيمان با لله. فالقولان سواء مادام الإنسان مشغوفاً بالخلق والإبداع وفاءً منه وشكراً للّذي أمر كلّ شيء أن يكون فكان.

— 57 —

جلّ ما كتبت كان بإيحاءِ المأساة الحياة التي لا يكون بدونها الإنسان إنساناً.

— 58 —

من يوم كتبتُ ما كتبتُ عن مشكلة المعرفة عند الغزالي وعند غيره من القدماء والمحدثين، والسؤالُ لا يزال قائماً... والمأساة مأساة عجز العقل الإنساني...

– 59 –

آفة الأدب اللفظ إذا انتفخ وطغى.

– 60 –

حيث تحلو الحياة يبقى ناسك في نسكه.

– 61 –

لو لم يكن الوجود مأساة لما كان الله رحماناً، ولا كانت آخرة ولا جنّة.

– 62 –

ماهية المجتمعات الإنسانية ومصيرها رهينا تاريخها لأنّ الذكرى بعدٌ من أبعاد الكيان، ولأنّه لا وجوداً ممكناً في غير حيّز الزمان.

– 63 –

لا أعرف إيماناً صادقاً لا تسنده حيرة.

– 64 –

الذكريات حيلة من حيل القضاء الحَتْم يعوّض لك الحيّ الحاضر بخيال الماضي الشبح الواهي، وتصدّقه أنت ليكتمل لك الهزء، وعليك القسوة والسخر.

– 65 –

أقسى اليتم فقد الأصدقاء بحكم المنية أو بالفرقة والبعاد بعد طول عشرة وحميم وداد.

— 66 —

جماع أمل الإنسان في العدل والإنصاف بعد يأسه منهما في الحياة الدنيا يوم القيامة والحساب.

... وقلْ : علّلاني[1]...

— 67 —

إذا فقدتَ رفاق شبابك، أصحابك في عشق الوجود واللّهو والزَّهو، تكاد تنسدّ أمامك أبواب الإيمان بأنّ الحياة دائمة البهجة والسعادة والوفاء.

— 68 —

الإيمان التصوّف عشق للمطلق وتوق إلى الأبد.

— 69 —

أقسى الشقاء الكفر الأعمى، وأقسى البلادة الإيمان الساذج.

— 70 —

كن من تشاء : إنسانا ثائراً أو صخراً صلداً فأنت إلى الفناء صائر لا يرحمك إلا الله.

— 71 —

ما أثقل الحياة لولا بسمة الهزل.

---

1- إشارة إلى بيت أبي العلاء المعرّي :

علّلاني فإنّ بيض الأماني فنيت والزمان ليس بفاني

– 72 –

العبادة عِشْقٌ وِصَالُه في الآخرة.

– 73 –

ليس في الدنيا جواب عن سؤال سرمدي هو " من أين جئنا وإلى أين نساق ؟" دون حبّ أو رغبة أو رضىً في الحياة أو بَعْدَها على حد السواء.

– 74 –

اللهم كن لي بُعداً لآفاق وجودي في حياتي، وبَعْداً سكينة طمأنينة بعد وفاتي.

– 75 –

مجال الأدب ما بين الرؤية والرؤيا انطلاقاً من الواقع إلى الحلم الهائم الواهي.

– 76 –

إنما الخواطر أحياناً أسقاط القلم العاثر، فيها لصاحبه بعض زادٍ للمسافر الجائع.

– 77 –

لا يصون الأدب من الزيف إلا القيِّمون على تخليص ذهب معدنه من بهرج بريقه اللمّاع بصرامة النقد ولطف الإحساس.

— 78 —

الفن والدين توأمان، كلاهما من وحي السماء لا يكتمل لحياة الحيّ جمال ولا معنى بدونهما.

— 79 —

كلُّ ما فات ومات دعه واطلب غيره تغنم راحة بالك وثواب الصابرين.

— 80 —

كل جمال الكون في عين الإنسان. بدونها إنّما هو عدم ظلام.

— 81 —

أقسى اليُتْمِ فَقْدُ رفاق فرحة الحياة، عشيقة تُقَبِّحُها الشيخوخة، وأصحاب لَهْوٍ تَيَبَّسُ على وجوههم البسمة...

— 82 —

أكتب ؟

لمن أكتب ؟

ألأنا الذي سيموت، طمع في أن يبقى حيّا ؟

في ما أكتب ؟

ومن يقرأ ما كتبت ؟

وهمٌ كلُّ ذلك. ولكنّه لا حياة يضطلع بها الحيّ، ولا أدب يعينها إن لم يكن كذلك أساسا ليقين لا يستقيم.

— 83 —

وهل أقسى في منزلة الإنسان أشدّ جوْراً أن تقرأني - أيّها القارئ - وتردّد مع كلماتي أصداء مأساتك في ألحان التّعاطف والتّجاوب معي وجدانا وشعوراً وفكرا حتّى كأنني حيّ معك، مشاطر لك لحظتك هذه وأنا منذ الأحقاب عظام رميم ؟

الأدب مأساة أيضاً من حيث هو ملهاة وطلسم وهْمٌ يُغذّى به الحيّ، ويسير الحيّ جهراً إلى السلوى واللّهو عن الوجود.

الأدب - كالفن سواء - النسيان.

— 84 —

لمن تُثْمِرُ الشجرة في الغاب السحيق حيث لا يوجد إنسان ؟

تسأل ذلك لأنّك تجعل الإنسان غاية كلّ وجود وكلّ كَوْن.. ولكن إن كان ذلك الثمر لحيوان من نملة أو غيرها، فلمن أو لِمَ خُلِقت النّملة العائشة بثمر الشجرة ؟

الدّور والتسلسل ؟ أكلّ موجود مبرر لوجود موجود آخر له صلة ما به أو نسبة، أو له معه علاقة ما كعلاقة النملة بثمر النبتة ترسل حبوب ثمرتها مع الرياح.. ؟

إن كان ذلك فَلِمَ كلّ هذا ؟ لِمَ النملة حتى تحتاج إلى نبتة تثمر لها لتعيش ؟ لِمَ ؟

آخر الأمر أنّ الكون جنون. لكن جنون مَنْ ؟ جنون ماذا ؟ من أين أتى ؟

لعلّه أتى من أنّه لا يمكن أن نتصور عدم وجود هذا الكون كلّه، ولا يمكن أن نتصوّر مكانه الخلاء المطلق، العدم العدم...

أو نلجأ إلى الجنون الذي قد يكون هو السرّ في وجود الكون ؟ وعندئذ يتمّ الوئام والاتّفاق وتحلّ الطمأنينة والرَّوْح...

– 85 –

ما أفرغ الحياة بلا حبّ، وما أكذبها بلا أبد !

– 86 –

إنّما خلق الله الكون ليكون شاهداً وكليماً، لأنّه خلق الأكوان كلّها واستوى على العرش يراها ويتسمّع صداها، فلم يجد فيها إلاّ صمتًا كالموت وعمى كالظلام. فقال تعالى : "أين ؟ أين الشاهد؟" وقال للإنسان : "كن وكن شاهداً". فكان. وقال : "أشهد أن لا إله إلا الله". فصار كليم الله لأنّ الكون كلّه أبكم صامت. خاطبه الله فلم يجب. وجاء الإنسان فسأله فصمت. ودعا اللهُ الإنسانَ فقال : "لبيّك اللّهم لبّيك".

– 87 –

أيّها الإنسان !

ترى هل لك غير أجيج الهوى واللّهو لفحاً صرصراً يزفّ بك ولا يرد ولا يدرك بديلاً عن إقحال اليأس والكيان والعوْذ بالموت من عبث الوجود ؟

– 88 –

وإنّي إذ أحاسب نفسي أو أقدّم حسابي أمام النـاس فلأفكّـر في حساب آخر وأدقّ وأعدل هو حساب أمام ا لله مادام خـير مـا في الإنسان هو ا لله..

ورحـم ا لله والـدي الـذي علّمـني ذلـك فـأعطى حيـاتي أسمـى معانيها.

– 89 –

من الناس من يعوذ بالفن من مأسـاة الوجـود الواعـي كـالمتعب المجهود ينهال في النوم... في حال أنّ الفنّ تجاوز للمأساة الوجوديّة إلى المستوى العالي الذي تتنزّل فيه قيم الجمال وحساسيّة الوجدان.

– 90 –

الموت في الفصول الأربعة :

في الصيـف يمـوت ازدهـار الربيـع، وفي الخريـف تمـوت شمـس الأنـوار الفـاقع لونهـا، وفي الشـتاء يمـوت لطـف الخريـف، وتفنـى سمفونية الوجود الرائعة في صمـت الكـون وفي غفلـة الإنسـان عـن روعة مأساة الكيان.

وفي الربيع ينبعث كلّ حيّ ليثأر بالزهر من الموت الغريب.

– 91 –

يقولون : العبقريّة جنون.

وأيّ نبيّ لم يكن مجنوناً ؟

وأيّ مجنون لم يكن نبيّ العقل الجديد ؟

**— 92 —**

ما أسعد حظّ الأميّ يبقى كلّ حياته مغمور النّفس بالتّطّلع إلى معرفة ما لا يعرف، وتبقى الدّنيا والعالم كلاهما عنده مسرح الغرائب والعجائب التي تجعل من الحياة مغامرة رائعة في سبيل اكتشافها والتمتّع بافتضاض أبكار أسرارها. والويل كلّ الويل لمن مسّت يده شجرة الزقوم... وبئس المصير لِمن ذاق من قطوفها.

**— 93 —**

لا قيمة لطمأنينة لا تكون انتصاراً على ألم وحيرة.

إذا لم تكن كذلك فهي مجرّد سذاجة أو بلادة طبع.

**— 94 —**

أيّها الزائر الحبيب، السّلام عليك من وراء الباب الذي وراءه العدم.

تفضّل واجلس هنا بعض لحظات أمام لا نهاية البحر، لا نهاية الموت، لا نهاية السؤال الذي ليس له جواب : لماذا الوجود ؟ لماذا الفناء ؟

يا حبيبا زارني في مرقدي، توقّف هنا لحظة وتذهب المهجةِ، وتذهب الحياة شعاعاً في نهاية السؤال...

**— 95 —**

الموت في أن لا تكلّم أحداً ولا يكلّمك أحد، الموت في انتفاء الحوار، والارتداد إلى الصَّمت والانغلاق.

والصَّمت هو الوحدة والانحصار والانغلاق، لأنّ الإنسان لا

يكون إلاّ أن يكون كلاماً وحواراً واشتراكاً مع النّفس والكون، وآفاقاً بعدها آفاق.

فالإنسان أزل وأبد.

– 96 –

الجسد توق إلى الروح.

وأيّ فرحة حياة لا توحي برقصه ؟

وما أتعس حياة لا تكون من أوّلها إلى آخرها رقصة الحمل الحيّ فالمخاض المأساة، فالوضع المظفّر ونصر ا لله.

كذا يرقص المحبّ مع الحبيبة بالوصال.

كذلك رقصة الصوفيّة وجلال الدّين الرّومي.

بذا كلّه يصرخ الجسد توقه إلى الرُّوح بل - فوق ذلك- أنّه المسلك إلى الرُّوح.

– 97 –

يسألونني :" هل كتبت من جديد ؟ رواية كالسدّ ؟ حديثاً كأبي هريرة ؟ أو غير ذلك ؟ من غير أن يدركوا أنّ الإنسان سؤال واحد لا يتكرّر. ولا يتغيّر. لا يتكرّر لفظاً دون إفلاس وإملاق، ولا يتغيّر معنى دون زور ودَلَس.

– 98 –

إنّما الحياة إيمان، إيمان عمى... أو نسيان.

لقد متَّ إنْ أصبحت لا تؤمن بشيء أو لا تؤمن بإنسان... خليلة أو خليل، زوجة أو صديق، مُعْتبراً أو حلقة مفرغة...

— 99 —

بعد خمسين سنة من معاشـرة البشـر أريـد أن أتفـرّغ لاسـتدعاء ذكرياتي وما عذبـني مـن صـبر علـى تـأمّلاّتي في الكـون والنـاس، وكيف نقلوا لعبة الوجود إلى ألعوبة الحياة، وانحدروا بلعبة الوجـود المأسويّة إلى ألعوبة الحياة الهزليّة، متأرجحين بالمغامرة الإنسانية بـين ركح المأساة العظيمة ومرقص اللعبة الازدراء.

— 100 —

اللاّمعقول هـو الكـون في ماهيتـه وأصلـه لأنّ عقـل الإنسـان لا يدرك إلاّ ما له بداية ونهاية.

والمعقول هو الصورة المنتزعة منه وَهْماً بفكر الإنسان.

حقيقة الكون فيها نصيب الحقيقة والواقـع في الصّـورة تعكسـها المرآة كأنّها هي وليست هي.

— 101 —

اليوم أصبحت وحيداً.

وأريد أن أقول : ما بالوحدة يتنزّل على الإنسان من حقارة، ثم ما يولّد الشعورُ بالحقارة من مأساة، وما ينتج الاضطـلاعُ بالمأسـاة من شرف هو أسنى شرف الوجود.

— 102 —

**نهاية أخرى " للسدّ" : نشيد غيلان وميارى.**

ما أضيق هذه الدنيا ! هات لنـا بُعْدَيْنـا في أبعـد أبعـاد الوجـود، ومَثْنوَيْنا في وحدة الكيان الأبد.

— 103 —

مدى العمر أحلام مداها الفجر، وللفجر آفاق ليس لها حدّ بقـاء.
فَعِشْ حالِماً بما لا يحدّ فتبقى، أو فعليك سلامي.

— 104 —

مدى الحياة مدى التفكير.
وبنـات الحياة أفكار، فإذا صارت يتامى فانْعَ الفكـر لا الحيـاة، أو هذه معاً وذاك.

— 105 —

أقسى اليتم فقدان الوالدين في الصغر، وافتقاد إخوان الشباب في الكبر.

— 106 —

إنّ أعمق أسرار أيّ لغة وأخص خاصيّات عبقريّتها إنّما هو الموسيقى التي تمتاز بها وتفْضُل بها غيرها، لأنّ اللغة هي قبل كلّ شيء سمفونية روح تتجاوب أنغامها في أعماق الإحساس والقلب والفكر، ولأنّها توحي بالرّوح.
كان التنزيل منغّماً على أنغامها على نحو من الرَّوْعة والكمال في كلّ الأناجيل وكلّ التّراتيل على اختلاف أنواعها.
وهكذا أدركت معنى وجود الموسيقى في شعائر كلّ الأديان لأنّ الموسيقى هي روح الصوت التي بها يفقد حسيّته لينفث في النّص أولى نفحات المطلق المنشود.
ولئن جاءت كلّ أطقاس الشعائر الدينية مستعينة بالرّقص

والأناشيد فلأنّ العنصر الحيّ في كلّ لغة هو موسيقيّتها أي خصائص إيقاعها المرتفع بها عن الحسيّة إلى ما فوق الحسّ والعقل، إلى سكر خمريّة ابن الفارض أو شطحات مولانا جلال الدّين الرّومي.

وقد يصحّ أن يقال إنّ الحكمة والطمأنينة والسعادة إنّما هي اتّفاق إيقاعك الباطنيّ مع إيقاع الكون الذي يسمّيه أهله رضى الله. وإنما هو رضاك أنت بالله جواباً كلّيًا عن كلّ سؤال.

وكلّ ما جاء في بحثي عن الإيقاع بقي على سطح الأشياء لأنه تحليل منطقي وتجسيد ميكانيكي للإيقاع بينما هو شيء جوهره روحيّ وقراره ضمير الإنسان.

وقلت ولا أزال أعتقد أن أخصّ خاصيّات عبقريّة كلّ لغة هو إيقاعها،وأنّ أصحّ وأنجع طريقة لتعليم اللغة وترسيخها في ذهن المتكلّم بها وإحساسه هي إكساب المتمرّن على اللغة الإحساس الصحيح بموسيقاها الذي يجعله يترنّم أو يتغنّى بالكلام ولو كان لا يفهمه.

فهذا الذي حدا بي إلى البحث عن الإيقاع في العربية وإلى محاولة ضبط "سلفاجها" حتى تكون العربية في أدمغة وأفئدة أبنائنا في المدارس نغماً موسيقيّا غير محتاج إلى معنى. وهذا ما قد يصحّ معه أن نقول إنّه لا يمكن اكتساب ملكة اللغة العربية بدون حفظ القرآن.

ولا يمكن أن يصوغ الإنسان لحن شخصيّته إلاّ على قدر موسيقى أعماقه.

— 107 —

أجل، الحياة إرادة البقـاء للبقـاء دون معنـى لـه ثـابت، أو دليـل مقنع لوجوبه سبباً لوجوده.

كما قالوا عن واجب الوجود في أديانهم الآخرة والأولى.

والموت سعي إلى ما وراء الحياة بحثاً عن معنى الحياة.

— 108 —

لو لم يكن الوجدان مأساة لما كان الله.

— 109 —

آفـة المطلـق والخلـــود الصـــيرورة، تُرجعهمـــا إلى دوام متقطّـــع الأوصال، متواصل التركيب، متّحد اللحــن : مخـاض الوضـع عنـد الولادة، فعذاب الموت عند الاحتضار.

فعود على بدء بلا وَهَن ولا نهاية.

— 110 —

أقصى روح المحبّة فناء سعيد، وأقصى الشـــوق فنـاء بعيـدٌ بعيـد، صباحاً مساء إلى أقصى الزمان.

وأقصى الوفاء.

— 111 —

دعاء الواقف أمام الباب الـذي وراءه العدم : اللهـمّ اردُد علـيّ إيماني إن كنت لا تزال موجوداً... حتى تنفجر حنجرتي بـ "لبّيك اللهمّ لبّيك. لبّيك إنّ الوجود منك، الحمـد والنعمـة والملـك لـك، لبّيـك إنّ الوجـود لـك، واجـب في الكـون فَأَوْجِبْـه في النّفـس يـا واجب الوجود..."

# ملحق: قصة القصة

لمّا قرأنا نصّي *يوم القطيعة* و *يوم القحط*[1] غَمرنا إحساس يشبه اليقين أنّ وراءهما نصوصا أخرى للأستاذ محمود المسعدي مكوّنة لنصّ قصصي أو روائي أكبر سمّاه *من أيام عمران* . وبقينا ننتظر صدورها. وفعلا التحق باليومين السابقين نصّ ثالث بعنوان *حديث الضحّية*[2]. فاستبشرنا وقلنا إن البقيّة قادمة حتما...

وجاءت البقيّة بالفعل في خاتمة كتاب *تأصيلا لكيان* بعنوان *حديث الصمت*[3]. وإذا كان الفاصل الزمني بين الدفعة الأولى والدفعة الثانية لا يتجاوز ثلاث سنوات، فإنّه بين الثانية والثالثة قارب ربع القرن (من 1957 إلى 1981). فقلنا هذه نُفَاضَة الجراب وليس بعد الصمت كلام.

ورغم أنّ ما يشبه اليأس استبدّ بوجداننا لم نشأ أن نجهز على الحلم وأن نغتال الأمل في اكتمال الكتاب. وبما أنّ مبدع النصّ حيّ يرزق، يعيش بيننا ويحاورنا ويتمتّع بذاكرة لا يزال ينتقش فيها تراثه المخطوط والمطبوع، سألناه عن عمران ودانية. وكأنّ السؤال لقي في نفسه هوى عتيقا، فنبش في أوراقه ودفاتره ووجد فيها ثلاثة نصوص أخرى هي يوم

1- نشرا لأوّل مرّة في مجلّة "الندوة"، أوت 1954، ثم أعيد نشرهما في مجلة "الحياة الثقافية"، سبتمبر - أوت 1976.

2- نشر في مجلّة "الفكر"، أفريل 1957.

3- محمود المسعدي، *تأصيلا لكيان*، تونس 1981، ص 197. ثمّ أضيف في الطبعة الثانية (د.ت) يوم خامس بعنوان "يوم الكفّارة والرحمة" (ص 206).

*اللقاء والمعرفة النّكرة* و *يوم السؤال الأعظم* و *يوم اللقاء المستحيل*، وقال: نَفَدَ الزاد.

فابتهجنا بها لا محالة، لكنّ الإحساس بوجود أيّام أخرى من أيّام عمران ودانية لم يشأ أن يزول... فرأيت أن أتولّى بنفسي مهمّة التنقيب عنها، وساعدني على هذا الإصرار ما لمسته في أحد أفراد أسرته[1] من رغبة مماثلة في الكشف عن الموجود الذي هو في حكم المفقود. فأفضى البحث المضني في أحد الدفاتر المخزونة في بعض الخزائن المنسية نصّا ثامنا هو *يوم الوهاد*. فقلنا : أوّل الغيث قطر. لكنّنا بحثنا طويلا في المسكن الكائن بقرطاج إلى أن بلغنا طمأنينة اليأس، أو كدنا..

فتذكّرت أنّ الأستاذ محمود المسعدي كان يقطن قبل تحوّله إلى قرطاج منزلا في شارع صلاح الدين الأيّوبي بباردو. فسألت السيدة الفاضلة التي تواطأت معي على الكشف والاكتشاف أن نزوره يوما لعلّه يُبطن من الأسرار والنّسيان نصيبا، فلم تمانع.

لكن كيف الوصول إلى الأوارق والدفاتر المهجورة والبيت نفسه ظلّ مهجورا عشر سنوات كاملات تراكم فيها ما لابدّ منه من غبار الأيّام ورطوبة الليالي !

إلاّ أن غيلان كان قد علمّنا أنّ الإرادة لا تقهر مهما تألّبت عليها قوى الطبيعة والزمان، والآلهة والبشر. فأيقنّا أنّ الغبار إلى زوال وأنّ الرطوبة إلى جفاف، وأنّ العزم وحده باق والفعل. فزال ما لا بدّ من زواله وبقي ما بطبعه يبقى.وأخذت الدفاتر تنكشف الواحد بعد الآخر، دفاتر كانت في ما مضى زرقاء أوحمراء أوخضراء، فوحّد الزمان لونها فصارت لا لون لها.

---

1- هي السيدة سميرة بنغازي.

ولّما فتحناها وشرعنا في استكشاف مضامينها كاد يصيبنا الإحباط إذ لم يكن فيها غير وثائق شتّى : كشوف حسابات بنكية، وظروف رسائل شخصيّة، ودعوات لحضور اجتماعات أو حضور حفلات الزفاف أو تدشين معارض الرسم، وقطع من صحف قديمة وغيرها...

ومّما لا شكّ فيه أن تلك الوثائق الإداريّة والعائليّة كانت في سرّها تسخر من سذاجتنا وجهلنا، وربّما من عشى بصرنا لأنّنا اقتصرنا على قراءة المطبوع عليها وفاتنا أنها هي نفسها استعْمِلت مسودات لكتابات خطّية. وما تبادر إلى الذهن قط أنّ تلك الكتابات لم تكن من جنس نصوص الوثائق الرسميّة رغم تعايشها معها على نفس الأوراق.

فقرأنا إحداها.

وكم كان انبهارنا شديدا لّما ظهر فيها اسم دانية ! وفي أخرى اسم عمران... وأيقنّا أنّنا وجدنا ضالّتنا، وهان استنشاق الغبار واستنثار الرطوبة وضنى الإجهاد، وتجمّع لدينا اثنان وعشرون يوما أخرى.

و لم يكن كلّ ذلك سوى مرحلة أولى سرعان ما أفضت إلى ثانية قوامها تهجّي الحروف والكلمات لأنّ كاتبا يكتب تحت ضغط الإلهام على وريقات يتداخل فيها الكلام الاداري المطبوع والإبداع الأدبي المخطوط لا يتسنّى له التأنّق في الخط و لا حتى الحرص على وضوحه. فهو يكتب كما اتّفق ولا يخصّ بالتأنّق غير اللغة التي يكتب بها، و لا يسخّر طاقته إلاّ لتجويد الأسلوب والتعبير عن دقائق الأفكار ورسم الصور والمشاهد الحيّة. فكان لابدّ من استنساخ النصوص المخطوطة وتحقيقها. ومن حسن الحظّ أنّ صاحبها لا يزال يحتفظ بوعي كامل وقدرة على التذكّر عجيبة وقد تجاوز التّسعين من عمره. فكلّما أشكلت علينا قراءة كلمة أو جملة إلاّ وأسعفنا برسمها الصحيح المخزون في ذاكرته ووجدانه.

ولّما كانت *من أيام عمران* قصة ( أو رواية ) تخضع إلى تسلسل بحسب منطق ما، منطق الأحداث، أو منطق الزمن، أو منطق التركيب البنيويّ، أو منطق الدلالة، كان لابدّ من تصوّر طريقة لترتيب تلك النصوص المتناثرة. ولا أحد يمكنه ذلك غير المبدع نفسه.

إلاّ أنّ الكاتب تعذّر عليه التصنيف والترتيب بسبب صعوبة في التنفس تنتابه من وقت إلى آخر. فأوكل إليّ الأمر، فتهيّبته إذ رأيْتني شريكا في التأليف. وهالني الموقف، فشرعت أبحث عن حلّ يخلّصني من هذا الوزر، وفضّلت أن أعود من جديد إلى الدفاتر والأوراق أستنطقها علّني أعثر فيها على حلّ. وأخذت أستعرض من جديد الكشوف البنكيّة وظروف الرسائل الشخصيّة، ودعوات التدشين والزفاف، وقصاصات الصحف القديمة... إلى أن وجدت ورقتين صفراوين مكتوبتين بالعربيّة والفرنسيّة وفي أعلى الصفحة الأولى عنوان *آل عمران* ( وليس *من آيام عمران* ). تفحّصت الورقتين فإذا فيهما تصوّر أوّليّ للقصة في خمس مراحل، فقلت: فُرِجَت وربّ الكعبة !

إنّه ملخّص لخمسة فصول يحمل كلّ منها عنوانا : الفقدان - الوحدة - مولد الكبرياء- الحاجة إلى الحبّ - الموت. فكان عليّ أنّ أصنّف جميع الأحاديث ( أو الأيّام )، المطبوع منها والمخطوط، بمقتضى هذا التّقسيم الخماسي. ولم تكن هذه العمليّة من اليسر بمكان لأنّ التطابق بين االنصوص الموجودة والفصول المتصوّرة ليس تامّا إذ لم يكن منهج الكاتب في التأليف خاضعا إلى التدرّج في تحرير الفصل تلو الآخر بل كان يعتمد منطقا آخر بعيدا عن منطق التسلسل والتتابع.هو منطق الإلهام : تعنّ للكاتب فكرة تتصل بأحد الفصول فيثبتها على الورق - أيّ ورق - ثم ينساها دهرا ويكتب أخرى. وقد تنتمي الأولى إلى الفصل الرابع والثانية

إلى الأول[1].وهذا التقاطع لا يدخل ضيما كثيرا ما دام التصوّر العام كائنا في ذاكرته - إن لم يكن في ذاته ووجدانه - لكن الذاكرة خوّانه أحيانا. وقد خانته فعلا خيانة نكراء في مناسبتين : الأولى لّما أسند العنصر الثاني من مكوّنات شخصيّة عمران المتمثّل في هجر المجتمع إلى أبي هريرة[2]. والثانية لّما ألحق صورة موت عمران في المرحلة الخامسة *بمولد النسيان*[3]. وقد يكون الكاتب تفطن إلى ذلك في وقت من الأوقات فترك الصورة الأولى لمدين وتصوّر ثانية لموت عمران.

إلاّ أن هذه الصورة الثانية أيضا لا تخلو من إشكال : فهي تذكّر باختفاء السندباد في أعماق البحر في قصة *السندباد والطهارة*[4] وهي صورة لا غناء عنها في قصّة من *أيام عمران* لأنّ بنية القصّة قائمة بأكملها على الانحدار من قمّة جبل في اليوم الأوّل إلى أعماق البحار في اليوم الأخير[5] خلافا لبنية *حدّث أبو هريرة قال...* القائمة على الانطلاق من

---

1- فعلا فـ"*يوم القطيعة*" و"*يوم القحط*"، وهما أوّل ما نشر من الأيام قد وجدا مكانهما في المرحلة الرابعة والمرحلة الخامسة، بينما أدرجنا "*يوم الضحيّة*" المنشور بعدهما في المرحلة الأولى. أمّا "*يوم الصمت*" وقد صدر بعد الأيّام الثلاثة السابقة فقد رأينا مكانه في المرحلة الثالثة.

2- انظر "*حديث العدد*" و"*حديث الجماعة والوحشة*".

3- يقول في *مولد النسيان* في نهاية الفصل السّابع، د. ت. ن. 1974، ص 112 : "ألا خلاص من هذا العفن الباطن وهذا الدود يتحرّك فيّ كالجنين في الحامل ؟" ويقول في المخطّط بالفرنسية ما ترجمته : "وفي أحد الأيّام صار لا يقدر على الكلام، بقي قادرا على المشي إلاّ أنّه بدأ يفوح بالنتن... أحبّت امرأته أن توقظه فجذبته من ذراعه إلاّ أن الذراع انفصلت عن الجسم وظهرت في مستوى مفاصل الكتف آلاف الديدان". ولم يقرّ الكاتب هذه الصورة في أيّ من نصوص *من أيام عمران*.

4- يقول المسعدي في نهاية *السندباد والطهارة* :" فأوّل فُلْكٍ لقيته وقع فيها وأرسلها شديدا، وأوغل في العاصفة والبحر. وكانت آخر سفراته. واحتوته طهارة الأعماق." ضمن كتاب *مولد النسيان وتأمّلات أخرى* ن. م. ص 115. وتقول دانية في قصة *من أيام عمران* : وأهوى فأراه لا يبلغ قاع البحر لبعد غوْره وظلمته وسواده، وأراه في بحور الشياطين."

5- نصّ المسعدي في *حديث النزول من الجبال* على أنه الحديث الأوّل وأضاف بالفرنسيّة ما ترجمته:"كامل الكتاب نزول من الأعلى بعد تحليق ضاف. الصقر والطائر الغبيّ. الذهاب نحو الأعماق سيفضي إلى *الغوص في البحر*.

بعث حسيّ والاختتام ببعث روحيّ، ولبنية *السدّ* القائمة على البدء بالصعود إلى الجبل والانتهاء بالعلوّ في السماء[1]، وخلافا كذلك لبنية *مولد النسيان* القائمة على التركيب والانحلال، تركيب عقار يقضي على الزمان فيضمن الخلود، وانحلال جسم مدين بسبب تناوله العقار الذي استنبطه.

لهذا كلّه رأينا من باب الأمانة العلمية أن نثبت تصوّر الأستاذ محمود المسعدي لقصّة *من أيام عمران* حتى يتسنّى للباحثين والنقّاد المقارنة بين المخطّط الأوّلي والمنجز. وقد ورد هذا المخطّط باللغتين الفرنسيّة والعربية: الأولى لتصوّر الأحداث، والثانية لبعض الجمل والنصوص القصيرة التي تبلور ذلك التصوّر، وقد تكون نواة لأحاديث تجسّمه كاملا. فكان لابدّ من تعريب الأسطر الفرنسية اللغة واستبقاء الأسطر العربية وإبرازها في خط مختلف (بالحروف الغليظة) لأنّها -كما قلنا- بداية التحرير، وهي في أغلب الأحيان بداية بلا نهاية لأنها لم تعد في نصوص لاحقة تكمّلها، فالكاتب فضّل إنشاء نصوص جديدة مستقلّة عن النواة الأولى. ولم نره عاد إلى نصّ أثبته على ورقتي التصوّر وعمّقه إلاّ في *حديث الضحيّة* الجامع بين الحاجة إلى الحبّ وعبثيّة الموت. وهذا نصّ الورقتين :

**المرحلة الأولى : الفقدان.**

- كيف أضاع الحسّ الاجتماعي.
- تفاهة إرادة الفرد أو الجماعة.
- تشابك الفعل الإنساني المتجاوز للأجيال والعزائم.
- إوالية الأحداث باطنية ومحتومة[2]

---

1- يقول غيلان وميارى :" لنعلون برأسينا ولنفتحنْ لهما في السماء بابا."

2- Comment il perdit le sens social: Vanité de la volonté de l'individu ou du groupe. Engrenage des faits humains dépassant les générations et les volontés ; mécanisme interne fatal des événements

**- "فلمّا أصبح إذا سيل عرم ذهب بالجسور والقناطر والأنعام والمؤن... وقامت الحرب".**

## المرحلة الثانية : الوحدة (أو الفرد).

- ينسحب من المجتمع؛ يحسّ أنّ المجتمع تخلى عنه.
- شيء ما في باطنه صار خاويا[1].

**"وبعد أيّام شعر عمران كأنّ شيئا ذهب منه كدم يفرغ منه قلبه أو إيمان يذهب به الشيطان".**

- عند ذلك يعتزم أن يعيش لذاته لكنّه يشعر أنّه وضع نفسه على هامش أمر ما، "**على طرّة الاجتماع**".
- حيرة أولى لكن تصحبها الكبرياء[2].

**"وقال عمران: يهجرني ما يهجرني.. لابدّ أن يبقى لي شيء..." وأحسّ كأنّ شيئا غريبا تحرّك فيه. وتبيّنه أيّاما، فلم يدرك كنهه.. وإنما كان الكبرياء!**

## المرحلة الثالثة : مولد الكبرياء.

- حياته "على الهامش" صعبة. رأى فيها وضعا زائفا.
- شعر أنه يتحوّل إلى كائن مصطنع وأنّه مُقْصى[3].

**"وجعل روضة في صحراء وقال : "لأجرينّ لها في نفسي وحدها الماءَ". وجعل عليها أسوارا من نحاس وأقام عليها صروحا وحامية وقال : " هذا ملكي وحدي..." ثم إذا بعض العيون نضبت...**

---

1- Il se retire de la société. Il sent qu'elle l'abandonne. Quelque chose se vide en lui. (...)

2- Alors il pense à vivre en individualiste... mais il sent qu'il s'est mis en marge de quelque chose (...) 1ere inquiétude mais il a... ( l'orgueil) (...)

3- La vie «en marge» est difficile; il la sent comme une position fausse, il se sent devenir artificiel. Il se sent exclu (...)

وأخذ الشعور بحياته الزائفة والمصطنعة يغمره شيئا فشيئا. النفي لا مناص منه. أحسّ أن الموت يطارده. فاللعبة التي شاهدها عند غيره أفضت إلى لعبة في داخله. إنها لعبة الوجود.

إنّه خائف.

كان يودّ أن يعود إلى إيمانه، ويقول : "لو أحاول". إلاّ أنّ كبرياءه تمنعه من ذلك، كبرياء من أصابتهم اللعنة، لعنة قاسية، صعبة لكنّها مفخرة لهم[1].

## المرحلة الرابعة : الحاجة إلى الحبّ.

قرّر في النهاية أن يعود إلى إيمانه لكنّه لم يعد قادرا على ذلك ولا على أيّ شيء آخر.

كان يودّ أن يُعْطَى، أن شخصا ما يمنحه الحبّ أو الحنان. فوهب نفسه لكل شيء. لكن لا شيء يجيب[2].

**"وقال : "وددت أن يشملني حبّ شيء"**

**وذهب فوقف على الأشجار والجبال والأنهار والسماء، وسكون الليالي، وتثنّي الأمواج، وعطر الريحان. وفتح قلبه وانتظر. فلم يخرج إليه منها شيء من عطف ولا حبّ ولا قبول...**

**وجاء أمّه يوما يبكي كما بكى في مهده وقال:**

**– يا أمّي، حبّيني.**

---

1- Peu à peu le sentiment de sa vie fausse, artificielle l'envahit. La négation est inévitable... Il se sent menacé de mort « Le jeu vu chez les autres » aboutit au « jeu en lui même », jeu de l'existence. Il a peur. Il voudrait recommencer à croire : il se dit : si j'essayais... Mais l'orgueil le retient. L'orgueil des damnés, dont la damnation dure, difficile, est un titre de gloire.

2 - Il finit par se décider, mais il ne peut plus croire ; il ne peut plus rien faire. Alors il voudrait qu'on lui donne... Il voudrait que quelqu'un lui donne de l'amour ou de la tendresse (...) et il s'offre ainsi à toute chose : rien ne répond (...)

**فقالت:**

**– وإنّي أحبّك يا بنيّ.**

**فقال:**

**– لا، أريد أن تحبّيني حبّا يصل قلبي.**

**فعطفت عليه وقالت :**

**– هذا ما كنت تقول وأنت طفل أيضا.**

هل في مقدور البلاد أن تمنحه هذا الحبّ وقد صار حب الأفراد لا يكفيه؟[1]

وفي نهاية المطاف فهم أن الحياة ينبغي أن "تحتضنه" من جديد، ومن جديد تبعث فيه دفء الحنان.

**وقال : "لو عطفت عليّ الحياة. لو أحبّني الكون والحياة".**

ولا يستطيع أن يكتفي بحبّ صديقته. فلم تيأس[2].

**وكان يقول لها :**

**– ياريحي. أريد منك حبّا كحبّ العفاريت أو الفيلة، أو الأمواج، أو الصخور، عظيما واسعا ينسيك بين الأوساع.**

إلاّ أنّه لم يكن في مستطاعها أن تمنحه هذا الحنان الكونيّ"[3].

## المرحلة الخامسة : الموت

"الميّت الحيّ". كل شيء يولد ويموت في نفس اللحظة[4].

**"وجاءه ملك الموت فقال :**

**– هذا جرابي فيه أرواح [البشر] ولي أن أجعل فيه روحك.**

---

1- Le pays pourrait- il l'aimer ? car l'amour individuel ne lui suffit plus.
2- A la fin, il comprit qu'il faudrait que la vie «l'adopte» de nouveau, de nouveau le réchauffe de tendresse (...) Avec son amie il ne peut se suffire de son amour et elle ne désespéra [ pas ](...)
3- mais elle ne pourrait lui donner cette tendresse de l'Univers.
4- Le «mort vivant». Tout est mort-né, il continue à vivre (...)

**ثم قام وتعجّب الأطبّاء وصاح :**

**– ألا ترون أنّي متّ؟ فَلِمَ لا تدفنوني ولا تكفّنوني؟ لِمَ لا تبادرون؟**

**فقالوا :**

**– ما أنت بميّت وما نحن عليك حزنون...**

لا يسمعونه رغم أنّه يصيح ويكـرّر : "أنـا ميّـت..." وأخـذ الميّـت يجـول وحـده دون أن يتحـرّك، إذ فقـد حركـات الأحيـاء ونسـيها واحـدة بعـد أخرى. وفي النهاية نسي أن يأكل فقضى[1]

**"وكـان لا يفـرّق بـين ظـلام ونـور. فاسـتوى عنـده الشـمس والسـواد والليل. وينام فلا تغمض لـه عـين، وتحرّكـه فيقـوم وكأنّـه ليـس بنـائم، وتتركه نائما فلا يكاد يفيق إلاّ أن يحركه أمر...**

وفي يوم من الأيام صار لا يقدر على الكلام : بقي قـادرا علـى المشـي إلاّ أنّه بدأ يفوح منه النتن...

ذات صباح، أحبّت امرأتـه أن توقظـه فجذبتـه مـن ذراعـه إلاّ أن الـذراع انفصلت عن الجسم وظهرت في مستوى مفاصل الكتف آلاف الديدان.

عند ذلك دفنوه.. لقـد مـات منـذ خمسـة عشـر يومـا.. منـذ انقطـع عـن الكلام[2].

**" ثم جاء قومه فصاحوا وبكوْه وقالوا : يرحم ا لله عمران"**

---

1- Ils ne l'entendent pas bien qu'il crie et répète : Je suis mort... Alors le mort se promène seul, immobile ; il ne remuait plus ses membres. Il perd les actes de « vivant » et les oublie un à un et finalement il oublie de manger, et il mourut (...)

2- Puis un beau jour, il ne peut plus parler. Il continue de marcher mais il commence à sentir la puanteur ; et un matin, sa femme voulant le réveiller, le tire par le bras et le bras lui vient dans les mains ; et à l'articulation de l'épaule, des milliers de vers...
Alors on l'enterre, il était mort depuis 15 jours, depuis qu'il n'a plus parlé.

هـذا مخطّـط القصّـة الأوّلي : حَمْـلٌ بمشـروع كبـير

ومرحلـة سـابقة لعسـر المخـاض وراحـة الوضـع

# آل عمران

## العقدة — 1er temps

Comment il perdit le sens social : vanité de la volonté de l'individu ou du groupe. Engrenage des faits humains dépassant les initiat. et les volontés. Mécanisme interne fatal des événements.

بلد الذي اذا سيل عن [illegible] ذهب بالكبير والفنا [illegible]
والادام والمو... etc..
وناهض الحرب ... الخ.

## الوحدة ou الفرد — 2e temps

Il se retire de la société. Il sent qu'elle l'abandonne. [illegible] (وبعد
ايام سعر ~~[illegible]~~ عمران كأن شيئا ذهب منه كريم يعزع منه قلبه او ما يلوث يدهبه الشيطان)
Alors il passe à vivre en individualiste ... mais il sent qu'il est mis en marge de etc. (على طرف الاجتماع) 1ère inquiétude. Mais il y a .. (l'orgueil)
وقال عمران . ~~[illegible]~~ [illegible] . لا بد ان يبعث [illegible] .. وان كان شيئا عزيزا
يترك بعد . ونبعه ابدا فلم يترك لنهبه والا لان الكبرياء!

## 3e temps : l'orgueil — مولد الكبرياء

La vie "en marge" est difficile : il la sent comme 1 position fausse, — il se sent menacé artificielle. Il se sent se dessécher. (وجعل روضة من عزلة وقال لا حريتي)
(لها [illegible] نعيمي وهي الماء وجعل عليها اسوارا من فخار . واعلى عليها صروحا وحاليه وقال
اهنا [illegible] [illegible] اذا بعد العيونا نفسا...)
Peu à peu le sentiment de sa vie fausse, artificielle l'envahit. La négation est inviable... Il se sent menacé de mort. "Le jeu mis chez les autres" alors tient au "jeu à lui-même", jeu de l'esprit. Il a peur... Il voudrait recommencer à croire : il se dit : si j'essayais... mais l'orgueil le retient. L'orgueil des damnés, dit la damnation, ~~[illegible]~~ dure, difficile, 11 lettres de flamme.

## 4e temps : الخلاص بالحب

Il finit par se décider, mais il ne peut + croire : lui ne peut + rien donner. Alors il voudrait qu'on lui donne. Il voudrait que qqc. lui donne de l'amour ou de la tendresse.
وقال : وددت ان [illegible] [illegible] . وذهب [illegible] على الانهار والجبال
والانهار والسماء وسكون الليالي [illegible] الاعوام [illegible] ~~[illegible]~~ وعطر [illegible] . [illegible] قلبه واسطر .
فلم [illegible] ولا حبا ~~[illegible]~~ ولا قبول....
Il s'offre aussi à une chose : rien ne répond... وجاء امه يوما [illegible] [illegible] وقال :
يا امي [illegible] . فقالت : [illegible] . فقال : [illegible] ان [illegible] [illegible] قلبه . [illegible]
[illegible] ~~[illegible]~~ وقالت : هذا ما كنت تقول وانت طفل ايضا .
De pages [illegible] il l'aime?" Car l'amour [illegible] [illegible] [illegible] ici.

[illegible] il ne peut [illegible] fermement [illegible]
[illegible] tendresse [illegible]

وقال : [illegible] لوا حبني الأول والبدو [illegible]

[illegible] il ne peut se [illegible] et [illegible]

وكان يقول [illegible] ~~[illegible]~~ ادين ملك [illegible] او [illegible] او [illegible] او

او [illegible] بسبك من الاوساع )

[illegible] dans cette "tendresse de l'[illegible]" —

الو [illegible] . "[illegible]"

[illegible] Tout [illegible], il continue à [illegible].

وما [illegible] الو [illegible] ارواح [illegible] و [illegible] اجعل [illegible]

( [illegible] lettre )

[illegible] ~~[illegible]~~ [illegible] ~~[illegible]~~ [illegible]

[illegible] لم [illegible] [illegible] وما [illegible]

[illegible] et [illegible].

[illegible], [illegible] il [illegible] plus [illegible] acte de l'[illegible] et [illegible].

( وكان [illegible] والسواد والليل [illegible]

وكذ [illegible] وكان [illegible] اخر

[illegible] ~~[illegible]~~ [illegible] + [illegible]. Il continue à [illegible]

[illegible] ~~[illegible]~~ وكذ [illegible]

[illegible], ses [illegible], [illegible], [illegible] le bras [illegible]

le bras [illegible] et à l'[illegible] de l'[illegible],

[illegible].

Alors [illegible], il était [illegible] depuis 15 [illegible] depuis [illegible] n'a plus [illegible].

[illegible] وقالوا [illegible] —

يقال ان بعض الاشجار تنقلها ارواح حيوانية [illegible] ان [illegible] لتذهب [illegible]

[illegible] شعوره [illegible] وحب السبب [illegible] وحب [illegible] الاعمال

[illegible] و ذلك ~~[illegible]~~ (ونقلت) ~~[illegible]~~ وتسكن [illegible].

[illegible] forme — [illegible] — [illegible] se réalise. [illegible] à bas ses responsabilités, — et il [illegible] vagabond. [illegible], il faut [illegible] accomplir avec la + parfaite conscience, [illegible] la + [illegible] un travail qui ne va nulle part, qui n'a [illegible] aucun lien essentiel, [illegible] comme une création personnelle, [illegible] matérielle, [illegible] obligé à le faire, ni un désir, ni un intérêt, [illegible] humain. Parce qu'à chaque instant [illegible] l'arrêter, [illegible] il ne [illegible] [illegible] actes humains : [illegible]
[illegible]

وإذا قارنّا بين هذا المتصوّر والنصّ المنجز في فترات متقطّعة فإنّنا نلاحظ فرقا كبيرا جدّا بينهما. فمنذ العنوان يبدأ الاختلاف : *آل عمران* في التصوّر، يقابله *من أيام عمران...* في المنجز، دانية لا وجود لها في المتصوّر، دائمة الحضور في المنجز، تكاد شخصيّتها تطغى على شخصية عمران. وهي لها مواقفها ومواجدها التي تلتقي تارة مع مواقف عمران ومواجده وتختلف طورا. جلّ الجمل التي وردت في المتصوّر عُوِّضت في المنجز بجمل أخرى في معناها أو في غير معناها. وهناك اختلافات جوهريّة أخرى لا يتسع المجال لتحليلها في هذا التقديم.ويقيننا أن الكاتب حرّر تصوّره ذاك في صفحتين دفعة واحدة فقدّم قصة متكاملة، متتابعة الأطوار. ثم التهمته مشاغل الحياة فأهملها دهرا بل لم يعد إليها قط وأخذ من حين إلى آخر ينجز نصّا بحسب ما يمليه إلهام اللحظة متذكّرا صورة عمران العامّة كما انتقشت في ذاكرته من خلال ذلك المتصوّر الأول، ومعلوم أنّ كلّ روائيّ لا يحافظ على عناصر شخصيّاته وعلى طبيعة الأحداث كما أثبتها في مخططه الأوليّ. فهي تتطور وتتغير كلما تقدم الكاتب في تحرير فصول روايته[1]. وهذا ما يفسّر إسناد عنصر من شخصية عمران إلى أبي هريرة وآخر إلى مدين ثم إلغاءهما في المنجز.

وبصفة عامّة فالمقارنة بين المتصوّر والمنجز تفضي إلى إدراك قصتين مختلفتين تمام الاختلاف. واختلاف النصوص رحمة.

* * *

1- انظر محمود طرشونة، صنعة الرواية، الحياة الثقافية، نوفمبر 2001، ص 40 - 45.

أمّا التأمّلات فقصتها لا تقلّ طرافة عن قصّة القصّة. فالكشف عنها مرّ بنفس المراحل تقريبا إلاّ أنّ إقرار نصوصها النهائية كان أشدّ ضنى. ذلك لأنّ صاحبها واع أنها تمثّل وجها جديدا له لا يعرفه قراؤه من قبل : وجه الحكيم المتأمّل في الحياة والموت والناس والكون. لم يكتبها بالطبع دفعة واحدة لأنّها ليست سردا ولا بحثا بل هي خواطر تخطر له فيدوّنها على ما يجده أمامه من ورق مهما كان حجمه. ويبدو من تاريخ بعض هذه الأوراق ومن الأحداث الشخصية والعامّة أنّه كتب بعضها في السنوات الأخيرة بل في الأشهر والأيّام الأخيرة. لذلك أولاها عناية خاصة. فانتسخ ما يقارب التسعين منها في كرّاس أسلمه إلى المطبعة.

لكنّ إصرارنا على كشف نصوص أخرى مكّننا من العثور على عشرين خاطرة أخرى بعضها في سطر واحد وبعضها الآخر يتجاوز الصفحتين. ولشدة ولع الكاتب بها أصلح بنفسه ما طبع منها... مرة أولى... ثم ثانية... ثم ثالثة.... وفي كلّ مرّة يحذف خاطرة أو أكثر، ويضيف كلمة أو يغيّر تركيبا. ثم يعود بين الفينة والأخرى فيحذف من جديد، ويضيف من جديد، فنناقشه الحذف والإضافة ويقرّ ما يقتنع به من آرائنا ويرفض ما لا يوافق هوى في نفسه، إلى أن رأينا مع السيدة الفاضلة التي تواطأت معنا على نشر مخطوطاته أن نحجب عنه نهائيا النّصوص المطبوعة حتى لا يتجاوز الإصلاح وقتا معقولا. وقد تزامن هذا الإصلاح مع النبش في خزائن الوثائق والملفات عن النصوص المخطوطة، فلمّا اكتملت قصة *من أيام عمران* اكتملت *التأمّلات* وبدأ التّفكير في جمع المؤلفات الكاملة وتحقيقها.

فهما اليوم إلى اكتمال.

# بطاهر القيروان (*)

## قطعة تمثيلية ذات فصل واحد ومنظر واحد

حرصنا على إثبات هذا النص ضمن "الأعمال الكاملة" لأنّه يمثل أولى تجارب المسعدي في مجال الكتابة الإبداعيّة. والكاتب نفسه يعتبره محاولة "تضحكه" كلّما تذكّرها لأنّه نشرها قبل بلوغ العشرين من عمره لمّا كان تلميذا بالمعهد الصادقي.

والأشعث المذكور في هذه "التمثيلية" يقصد به محمد بن الأشعث الخزاعي، ولاّه المنصور مصر سنة 141 هـ ثم أرسله إلى إفريقيّة للقضاء على ثورة أبي الخطّاب فتمكّن من ذلك إلاّ أن بعض جنده وقواده قد ثاروا عليه وأخرجوه من القيروان سنة 148 فعاد إلى العراق. ثم غزا بلاد الروم مع العباس ابن عم المنصور، فمات في الطريق (انظر الزركلي الأعلام، ج 6، ص 264).

وبالمقارنة نلاحظ أن الكاتب تصرّف في الاسم: الأشعث (عوض ابن الأشعث)، وفي مكان موته، فجعله في القيروان بينما يثبت التاريخ أنه توفي في الطريق بين العراق وبيزنطة.

إلاّ أن توظيف التاريخ الإسلامي وانتقاء اللغة التراثية وانتهاج مسلك الكتابة المسرحية كلّها نواة تنبئ بما سيكون عليه أدب المسعدي بعد عشريّة أخرى.

---

(*) العالم الأدبي، مارس 1930، ص 22-24.
وقد أضاف رئيس تحرير المجلّة في أعلى الصفحة على اليسار عبارة "من زوايا تاريخ تونس".

# الأشخاص

**الأشعـث** - أمير القيروان.

**عبيد الله** - قائد من قواده.

**سـعــاد** - جارية من جواري الأشعث بربرية مسلمة.

## عبيد الله

(يحدث نفسه وهو جالس تحت شجرة بضواحي القيروان
ينظر شبح إنسان ذاهب وقد أمره بالبقاء هناك)

– لقد شاء الله ما شاء والحمد له في البأساء والضرّاء... شاء أن أخرج صبيا من وطني صحاري الدهناء وأن أتبع رفيق شبابي الأشعث إلى الجزيرة وأن يسمى هو واليا على مصر بعد سنين، فأتبعه إليها ثمّ أن يرسل إلى افريقية أبا الأحوص العجلي، فعاد بالويل منها والثبور. فدعي الأمير الأشعث إذ ذاك إلى غزو افريقية من جديد وأن يكون هو قائد الجيش، فأجاب وخرجنا أربعين ألفا إلى بلاد البربر... والآن ها قد مضت سنة وستة أشهر على يوم رأيتني والأشعثَ داخليْن إلى القيروان. سنة وستة أشهر ! ذلك كل ما كتب الله لنا أن نعيشه بهاته البلاد... وقد قضى الله من ناحية أخرى أن يشرف علينا قمر هاته الليلة والفتنة تسيل الدماءَ بالقيروان وقد ثار قواد الأمير عليه. والحال أنه عني مدّة مقامه بالقيروان بضبطها أحسن ضبط. والحال أنه أقام بين أهلها العدل المبين... فلِمَ يا تُرى يثور مثل قواد هذا الأمير الجليل... أواه ! كم يَؤُودُني أن تحدثني نفسي أن منافقي البرابرة كادوا أن يوقعوني في حبائلهم كما أوقعوا فيها سائر القواد... وقد أسرنا مساء هاته

الليلة الثوار بعد أن قتلوا ما بقي معنا من العدد اليسير. أسروني وأسروا الأشعث لكني أراني الآن خالصاً منهم ولا أدري أين الأمير.. أين أين الأمير؟ لا أدري. إلاهي ماذا أصنع؟ أعود للقيروان فأخشى أن يفارقني رشدي وأبقى بين يدي سعاد ولو تحت الذل والعسف؟.. أم لا أعود فأترك الأمير بين الثوار يفعلون به ما يشاؤون؟

(تخرج من خلف الشجرة امرأة متبرقعة في ثياب لينة)

**عبيد ا لله** - (متهيئا لتناول سيفه من غمده) من هذا؟..

**المرأة** - (تزيح برقعها) لا تخف يا عبيد ا لله ها أنا ذي سعاد.

**عبيد ا لله** - أنت سعاد ! هنا !.. من أنقذني من أسري ! أين الأمير؟ كيف علمت بي هنا..؟ قولي !

**سعاد** - اسمعني. أنا أنقذتك.

**عبيد ا لله** - تعيسة أنت ! وكيف تدبرين خلاصي والأمير سجين؟ بربّك قولي لي ما الفائدة في فراري إن كان الأمير لم يخلص من أيدي الثائرين؟ هيا بنا ! سأعود إلى القيروان وأنجيه ولو ذقت في سبيله كأس الموت.. هيا بنا.

**سعاد** - تربص بنفسك قليلا وأصْغِ إليّ. خلّصتك أنت أولا لأنّك كل ما لدي من عزيز في هذا العالم يا عبيد ا لله، ومع ذلك لا تنس أني تمكنت من استخدام أخويّ تهلوب وعكريد في تدبير

حكيم في خلاص الأمير بعد أن أنقذاك. وسيؤتى بالأمير إلى هنا بعد حين فلننظر ماذا أنتما صانعان.

**عبيد الله** – (يقاطعها) أنت دبّرت إنقاذنا.. جعلك الله يا سعاد من بنات الجنان.. لكن... أيخلص الأمير من دون عودتي إليه؟

**سعاد** – نعم اسمعني. إني أتيتك لمثل هذا المكان في مثل هاته الساعة كي أنبئك بكل ذلك أولا، ثم لكي أواجهك بآخر ابتسامة تشهدها مني، فإني عالمة أن حالكم لا يستقيم لكم من جديد في القيروان إلا بغزو حديث، وعالمة أني لا أستطيع فراق جوّ القيروان.. وعالمة فوق كل ذلك أني سأجد عند إيابي إلى منزل أبويّ قَوْما برابرة لا يفقهون من الإسلام أمراً والحال أنهم كانوا بالأمس مؤمنين به... وقد أردت خصيصا في هذا اللقاء أن أقصّ عليك حبي لك يا عبيد الله.. أحبك حبا جمّا. أحبك يا عبيد الله في الله لا في سواه. أحبك لركوبك في الجهاد خطر القتال في سبيل إعلاء كلمة الدين، وأهواك لشجاعتك في الجهاد ولكرمك ولعلوّ همتك يا عبيد الله ولكل تلك الأسباب، لإعجابي برجل مثلك يرفع الإسلام والإيمان نفسه إلى مثل درجتك في الفضل أسلمت وأتيت قصر الأمير الأشعث جارية. ثم رأيتني بقصر الأمير بجوار الجامع فعلمت أنا أنك أحببتني، فسررت وسعدت بمجازاتك حبي لك بحبك لي !. أليس في هذا من السعادة ما فيه كفاية لكلينا يا عبيد الله؟.. قل لي عساني أجد في مقالك لي سلوى عما قد

أجده من العذاب عند أهلي. قل لي حتى إذا قتلوني مـتُّ مرتاحـة الفؤاد.. وعِدَني بالدعاء لي يا عبيد ا لله عسـى دعـاءك يكفيـني مـا أفقده بفقدانك من الحنوّ.

**عبيد ا لله** – سعاد ! كتبت لك السعادة يا سعاد والجزاء الجزيـل على ما صنعت ! ولك عطفي، لك قلبي يا سعاد، لك دعائي، فلقد أحببتك منـذ نبّؤونـي بإسـلامك، مـن يـوم علمـت أنـك أدخلـت بذكائك أهلك الإسلام، لكنهم واسفاه منافقون، وقـد تغلغـل ذاك الحب في قلبي يا سعاد. فأنا أحبك كما أحـب صحـاري الدهنـاء، كما أحب رياح السَّموم وهي تهبّ علـى مفاوزهـا، أحبـك كمـا أحب ذميل البعير، أحبك كما أحب بدر سماء البـلاد العربيـة. آه ! رغم كل ذلك يا سعاد فإني لن أجد مِـن تَركِـكِ وحـدَكِ سـبيلا. الدين والوطن أولا ثـم الحـب... فـإن قتلـوك فمُوتـي مُسـلمة ولا ترهبي شيئا.. وإن قتلك الأعداء فلتعلمي أني لا أنفـك عـن قتـالهم حتى أموت من حيث متّ.

لكن الواجب قبل كل شيء.. واجب الدين والأمير وإن كنـت لا أنسى واجب الحب.

( يحضر رجل متلثم وخلفه رجل آخر وهما أخوا سعاد ) يقول الأول:

– قضي أمرك يا سعاد وكذلك أراد "البآل"[1] ولكن حذار بعد هذا ثم حذار أن تسيل الدماء

1- أو ما يسمّى ( البعل ) وهو من الآلهة التي عُبِدت قبل الإسلام.

(يذهبان وإذا بالأمير على فرس ومعه فرس آخر يتقدم )

**الأمير** – الشكر لرب العالمين ! عبيد ا لله ! سعاد ! بارك ا لله لـك عملك يا سعاد، عـودي يـا بنيـتي إلى المدينـة، عـودي إنّمـا المـوت يتجرعه الرجال

(تذهب سعاد بعد تقبيل يد عبيد ا لله فينظرها هو قليلا ثم يلتفت للأمير فيقول)

**عبيد ا لله** – سيدي !

**الأمير** – خذ كتابي أيها القائد الأمـين واذهـب بـه إلى الخليفـة واستنجده، أما أنا فقد أصابني سهم بعض الثائرين ولا أمل لي بعـد في الحياة، اذهب فإذا عدت بالجيوش فلك جزاء ا لله ولـك إفريقيـة ولك سعاد.

**عبيد ا لله** – سمعا وطاعة أيهـا الأمـير وحمـدا لله (يتنـاول الكتـاب) وعليه الاتكال.

(يسلم على الأمير ثم يمتطي جواده ويرسله في
سير حثيث ولا يلبث أن يغيب وراء الأشجار)

**الأشعث** – (هامسا) لا إله إلا ا لله محمد رسـول ا لله بهـا حييـت وعليها أموت

(ثم يسقط من فوق جواده وقد خلا هيكل جسمه من الحياة)

# مكتبة المسعدي

## كتب ورسائل جامعية

1- **الأخضر (فاطمة)** - *خصائص الأسلوب في أدب المسعدي.* شهادة الكفاءة في البحث[1]، إشراف توفيق بكّار، 1971 نشر حنّبعل للطباعة والنشر، تونس 2002.

2- **ابن صالح (محمّد)** - *مدينة الشعراء: مقدّمات لمقاربة إبداع المسعدي،* تونس 2002.

3- **ابن علي (سلوى)** - *حدّث أبو هريرة قال... مرجعيّات النص.* شهادة الدراسات المعمّقة، إشراف منصور قيسومة، 1999.

4- **ابن نفيسة (محسن)** - *الحديث في "حدث أبو هريرة قال..."* الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1988.

5- **البيّولي (فوزي)** - *البطل في مؤلفات المسعدي،* ش. ك. ب.، إشراف محمود طرشونة، مرقون، كلية الآداب بمنوبة 1988.

6- **الجبالي (محمد)** *دراسة في كتاب "السدّ".* تونس 2000.

7- **الحاجيّ (الهادي)** *الفن الروائي عند م.م. دراسة وتحليل،* ***رسالة ماجستار*** جامعة الموصل، 2001.

8- **حبّوبة (نزار)** *الأسطورة في مؤلفات محمود المسعدي: مولد النسيان وتأملات أخرى.* رسالة شهادة الدراسات المعمقة، إشراف محمد عجينة، كلية الآداب، منّوبة، 1999.

9- **الدريدي (رؤوف)** - *البنية والدلالة في رواية "مولد النسيان"* ، ش.ك. ب. إشراف محمود طرشونة، مرقون، كلية الآداب بمنّوبة 1993.

---

1- سنرمز إليها بالحروف الأولى من كلماتها: ش. ك. ب.

10- **الدعجي (توفيق)** - *المركّب النعتي من خلال "حدث أبو هريرة قال..."*: دراسة بنية المركّب ووظيفته في الخطاب ومختلف علاقاته ببنى الجملة العربيّة. شهادة التعمّق في البحث[2]، مرقون، كلية الآداب بمنوبة 1993.

11- **الزبير (محمد)** - "السد": *الهيكل الدرامي ومدلوله الاجتماعي*. (ش. ك. ب.)، إشراف محمود طرشونة، كلية الآداب بمنوبة، 1978.

12- **الزبير (محمد)**: *الهياكل الفنية ومدلولها الاجتماعي في قصص محمود المسعدي* (ش. ت. ب.) إشراف محمود طرشونة، كلية الآداب بمنوبة 1991. نشر الأخلاء، تونس 1993.

13- **زرياط (فائزة)** - *محمود المسعدي: محاولة حصر بيبليوغرافي مع دراسة بيبليومتريّة*. رسالة ختم الدروس الجامعية لنيل شهادة الأستاذيّة. المعهد الأعلى للتوثيق.

14- **الشريف (محمد صلاح الدين)** - *الجملة عند المسعدي*، (ش. ك. ب.) إشراف عبد القادر المهيري، مرقون، كلية الآداب بمنوبة، 1973.

15- **صمّود** (نور الدين) - *محمود المسعدي وكتابه "السد"* (جمع فيه مقالات لنقّاد مختلفين)، ط 1 1973.

16- **طرشونة (محمود)** - *الأدب المريد في مؤلفات المسعدي*، ط 1، 1978. ط 5، تونس 1996.

17- **الطويلي (أحمد)** - *محمود المسعدي وكتابه "حدث أبو هريرة قال..."*، دار بوسلامة، تونس 1982.

18- **عاشور (منصف)** - *بنية الجملة العربية بين التحليل والنّظريّة من خلال أدب المسعدي*، نشر كلّية الآداب بمنّوبة 1991.

19- **العزيزي (علي)** - *جدلية الموت والحياة في أدب المسعدي*، (ش. ت. ب.)، إشراف توفيق بكّار، مرقون، كلّية الآداب بمنّوبة، 1994.

20- **علوان (الحبيب محمد)** - *محاولة في فهم رواية "السد"*، دار بوسلامة، تونس 1979، ط 4 مزيدة 1994.

21- **الغابري (الهادي)** - *جدلية الثورة والجسد في مسرحية "السد"*، مؤسسة "أبو وجدان"، تونس 1992.

---

2- سنرمز إليها بالحروف الأولى من كلماتها: ش. ت. ب

22- **الغابري (الهادي)** - *الشكل الفنّي في مسرحية "السد"*، مؤسسة "أبو وجدان"، تونس 1993.

23- **الغريبي (خالد)** - *جدلية الأصالة والمعاصرة في أدب المسعدي*، (ش. ت. ب.) إشراف توفيق بكّار، كلّية الآداب بمنّوبة 1988. نشر دار صامد صفاقس 1994.

24- **الكبلوطي (عبد الرحمان)** (وآخرون) - *إرادة الخلق والفعل في "السد"*. تونس 1991.

25- **الماجري (الحفناوي)** - *المسعدي من الثورة إلى الهزيمة في "حدّث أبو هريرة قال..."*، ط 1، 1980. ط 3 1985.

26- **المبخوت (شكري)** - *تقبّل المدرسة للنص الأدبي: "حدّث أبو هريرة قال..." نموذجا* (ش. ك. ب.)، مرقون، كلية الآداب بمنّوبة 1987.

27- **مراصي (محمّد)** - *المرأة في أدب المسعدي*، دار التقدّم، تونس 1984.

28- **مسدّي (عبد السلام)** - (بالاشتراك) - *محمود المسعدي بين الإبداع والإيقاع*، نشر ابن عبد الله، تونس 1997.

29- **المسعودي (حمادي)** - *النّهاية في أدب المسعدي*، (ش. ك. ب.) إشراف محمود طرشونة، مرقون، كلّية الآداب بمنّوبة 1984)

30- **المعلمي (نوّار)** - *جدل الماء والنار في مسرحية "السدّ"*، تونس 1996.

31- **يوسف (ألفة) و خضر (عادل)** - *بحوث في خطاب "السد"*، تونس 1994.

## مقالات وفصول من كتب.

1- **ابن الأخضر (عفيف)** - *السدّ*، الفكر، افريل 1957.

2- **ابن بلقاسم (نور الدين)** - *الشكل والمضمون في أدب المسعدي*. الفكر، ديسمبر 1971، ص 28-36.

3- **ابن سلامة (البشير)** - *اللغة العربية ومشاكل الكتابة* حول لغة المسعدي، ص 119-138 تونس 1971.

4- **ابن عمر (محمد صالح)** - *منزلة أدب محمود المسعدي من الأدب التونسي الحديث والمعاصر*، مجلّة رحاب المعرفة، س 5، ع 26، مارس - أفريل 2002، ص 61-67.

5- **ابن عمر (محمد موسى)** - *الوعي بحركة الزمن في الأدب العربي*، الفصل الخامس : محمود المسعدي، الأخلاء، ماي 86، ص 409-456.

6- **ابن ميلاد (محجوب)** – *مقدّمة "السدّ"* ، ط 1، 1955، ص 8-28. ط 2، 1974، ص 151-183.

7- **ابن يوسف (عبد العزيز)** - *التنمية اللغوية في أدب المسعدي*، منشورات الحياة الثقافية، ملتقى ابن منظور الرابع حول "تنمية اللغة العربية في العصر الحديث"، 1978، ص 67-88.

8- **الأبيض (رضا)** - *فعل الإقناع والإقناع بالفعل*، ح. ث. عدد 97، سبتمبر 1998، ص 55-98.

9- **الباردي (محمد)** - *السرد وإشكالية الجنس الأدبي في كتاب "السد"* مجلّة قصص، عدد 101، جويلية - ديسمبر 1993، ص 82-93.

10- **الباشا (محمد)** – *سد المسعدي: من قتل الصنعة إلى توليد الإبداع*، ح. ث. ع 105. ماي 1999، ص 87-91.

11- **البحري (يوسف)** - *قراءة جديدة في أدب المسعدي - محاولة تأويل "حديث البعث الأول"* ، الموقف، تونس 6 ديسمبر 1990 - 13 ديسمبر 1990.

12- **براهم (محمد الحبيب)** – *ثورة الانهزامية (في مسرح الحكيم والمسعدي)*، مرآة الساحل، أفريل – جوان 1973، ص 50-51.

13- **برجل (ح- س J.C BURGEL)** - *الثورة ضدّ القدر كمشكلة دينية ووجودية في مسرحيّة المسعدي "السد"* ، مجلّة فكر وفنّ (ألمانية)، عدد 37، 1982، ص 62-69.

14- **بسباس (رضا)** - *قراءة في "حديث الهول" من كتاب "حدث أبو هريرة قال..."* القلم، عدد خاص، ع 5، 2000، ص 69-75.

15- **بلاص (شمعون)** – مسرحية *السد لمحمود المسعدي وأبعادها الوجودية*، الكرمل، العدد 2، 1981، ص 1-29.

16- **بكّار (توفيق)** - *جدلية الشرق والغرب (تحليل نص "حديث العمى")*، الحياة الثقافية، جانفي - فيفري 1981، ص 10-22

17- **بكّار (توفيق)** - *مقدّمة لكتاب حدث أبو هريرة قال..." بعنوان "أوجاع الإفاقة على التاريخ العاصف"*، دار الجنوب للنشر، تونس 1980، ص 17-43. ط 2، 1985.

18– **بكّار (توفيق)** – *من أعماق التراث إلى أقصى المعاصرة*، مؤسسة الأبحاث العربية، 1986، ص 167-175.

19– **بكّار (توفيق)** – *مقدمة لكتاب "السد" بعنوان "من دُيجور ونور صفحاته"*، دار الجنوب للنشر، 1992، ص 7-33.

20– **بكّار (توفيق)** – *مقدّمة لكتاب "من أيّام عمران" بعنوان "عمران في مرآة إخوته أو فنّ التنويع في قصة الإنسان"* دار الجنوب للنشر، 2002، ص 27-41.

21– **بولعراس (الحبيب)** – *على حافّة "سدّ" المسعدي: مشكلة إنسان يبحث عن نفسه*،الصباح، 18 مارس 1956.

22– **الجابري (محمد صالح)** – *دراسات في الأدب التونسي المعاصر*، الدار العربية للكتاب، 1978، ص 70-81.

23– **حسين (طه)** – *"السد" قصة تمثيلّية رمزيّة للكاتب التونسي الأستاذ محمود المسعدي، تحليل ونقد*، جريدة الجمهورية 27 فبراير (فيفري) 1957. أعيد نشره في مجلة "الفكر" ماي 1957، وفي الطبعة الثانية لكتاب "السد" 1974، ص 211-228.

24– **حسين (طه)** – *أصداء تونسيّة (ردّ على تعليق المسعدي على نقد طه حسين)*، جريدة الجمهورية 29 ماي 1957. الفكر، جويلية 1973، ص 6-11. السدّ ط 2، 1974، ص 229-246.

25– **الحمزاوي (محمد رشاد)** – *خواطر حول بعض الأحاديث من "حدّث أبو هريرة قال..."* الفكر، جوان 1978، ص 25-46.

26– **الحمزاوي (محمد رشاد)** – *حشاد والمخيّلة الإبداعية: رواية "السد" للمسعدي مرجعا*، العدد 582، جريدة الشعب، 9 ديسمبر 2000، ص 15.

27– **الحنّاشي (يوسف)** – *في أدب الوعي : قراءات في أدب محمود المسعدي*، الشركة التونسية للتوزيع، 1983، ص 9-63.

28– **الحنّاشي (يوسف)** – *صورة لبيد في رواية "حدّث أبو هريرة قال..."*، مجلّة رحاب المعرفة، س 5، ع 26، مارس – أفريل 2002، ص 20-25.

29– **حمدي (أحمد رضا)** – *مسرحيّة "السد" بين الفكر والفنّ*، الاتحاف، ع 69، ماي 1996، ص 45-51.

30– **الخالدي (محمد)** – *عن الأدب العصيّ*، جريدة الصحافة : ورقات ثقافية، 4 مارس 1994.

31- **الخالدي (محمد)** - *عرض كتاب "الإيقاع في السجع العربي"* ، بريد الجنوب، لندن، 10 اكتوبر 1997.

32- **الخبو (محمد)** - *دلالة النّهاية في "حدّث أبو هريرة قال..."* ، الحياة الثقافية، عدد 38، 1985، ص 59 -63.

33- **الخبو (محمد)** - *الشخصيات المسرحية في "السد"* ، حولية الجنوب، 1996.

34- **داود (صلاح)** - *أبو هريرة بين المسخ والإشكال دراسات في عالم البكالوريا*، مطبعة بابيروس، نابل، تونس 1984، ص 103.

35- **داود (صلاح)** - *مولد النسيان*، النشرة التربويّة للتعليم الثانوي عدد 24، جانفي 86، ص 81 -85.

36- **الدريدي (الحبيب)** - *خصائص الأسلوب في حدّث أبو هريرة قال..."* ، مجلّة الاتحاف، ماي - جويلية 1987، ص 25-30.

37- **الدريدي (الحبيب)** - *قراءة في مسرحيّة " السد": الإنسان بين طوق الأرض والتّوق إلى السماء*، الاتحاف، عدد 50، جوان 94، ص 26-37.

38- **الدرويش (محمد)** - *الدفق الروحي في كتاب "السد"* ، الفكر، جويلية 1975، ص 104-112.

39- **زايد (عبد الصمد)** - *مفهوم الزمن ودلالته في الرّواية العربية المعاصرة*، الدار العربية للكتاب.

40- **الزمرلي (فوزي)** - *علاقة الشواهد بالمتن في رواية "حدّث أبو هريرة قال..."* ، ملتقى فريد غازي 2000.

41- **الزمرلي (فوزي)** - *رواية حدّث أبو هريرة قال... ومسألة الأجناس الأدبية*، ملتقى فريد غازي 2001.

42- **الزواري (عبد الحفيظ)** - *الروافد الصوفية في نحت معالم شخصية ميمونة في "السد"* ، الاتحاف، ع 101، ماي 1999، ص 52-57.

43- **السعدي (أبو زيان)** - *في الأدب التونسي المعاصر*، تونس 1974، ص 132-144.

44- **السعدي (أبو زيان)** - *حدّث أبو هريرة قال...* ضمن كتاب *"من أدب الرواية في تونس"* ، (ش. ت. ت.)، 1988، ص 19-22.

45- **السعدي (أبو زيان)** - *المهلهل بين المسعدي والشيخ الزيتوني*، الصباح 1997/2/19.

46– **السماوي (أحمد)** – *مطاولة البناء في السدّ*، الحياة الثقافية، ع 75، ماي 1996، ص 105-112.

47– **الشاذلي (محمد فرج)** – *بين طه حسين والمسعدي*، الفكر، جويلية 1973، ص 4-11.

48– **الشامخي (شكري)**، *"السد": لحظة تحاول الحياة أن تكون*، الإتحاف، عدد 109، جانفي 2000، ص 4-9.

49– **الشبعان (علي)** – *قراءة علامية دلالية في المنظر الأول من كتاب السدّ*، الصحافة : ورقات ثقافية، ع 231، جويلية 1999.

50– **الشريف (الطيب)** – *ألوهة الإنسان ومأساته*، الفكر، فيفري 1958.

51– **الشريطي (سليم)** – *الأسطورة في مسرحيّة "السدّ"*، مجلّة رحاب المعرفة، س 5، ع 26، مارس – افريل 2002، ص 76-86.

52– **شلفوح (علي)** – *مصير الحقيقة في تجربة غيلان*، العمل، 16 و23 سبتمبر 1966.

53– **شلق (علي)** – *"السد" لمحمود المسعدي*، الأديب، س 18، ماي 1959، ص 39-41.

54– **صولة (عبد الله)** – *مفهوم الإيقاع عند م.م. كما يتجلى من خلال كتابه الإيقاع في السجع العربي*، ضمن كتاب جماعي "محمود المسعدي بين الإبداع والإيقاع"، تونس 1997، ص 87-107.

55– **طرشونة (محمود)** – *"وقد تنجح سدود أخرى"*، مجلّة الجيل، ديسمبر 1962.

56– **طرشونة (محمود)** – *بين السد والذباب*، مجلّة الجيل، جوان 1963، ص 8-13.

57– **طرشونة (محمود)** – *مولد النّسيان أو إرادة الخلق*، الفكر، نوفمبر 1964، ص 67-78.

58– **طرشونة (محمود)** – *محمود المسعدي*، مجلّة تبادل (Echanges)، ديسمبر 1980، ص 35-37.

59– **طرشونة (محمود)** – *تصعيد الإرادة في أدب المسعدي*، الحياة الثقافية، جانفي – فيفري 1981 ص 62-66. الأدب المريد، ط 5، ص 70-82.

60– **طرشونة (محمود)** – محمود المسعدي، الموسوعة التونسية، بيت الحكمة، 1991، ص 62-70.

61– **طرشونة (محمود)** – *تكامل الفنون في "السد"*
*– رسالة "السدّ"*
ضمن كتاب *الأدب المريد* ط 5، ص 83-100 تونس 1996.
62– **طرشونة (محمود)** – *مباحث في أدب المسعدي:*
*– توظيف الفن المسرحي في "السد".*
*– إرادة الخلق في " السد ".*
*– حديث البعث الأوّل: لوحة راقصة.*
*– الزمان وقصة خلق الكون.*
*– حديث المستحيل يرغم على الإمكان.*
ضمن كتاب "مباحث في الأدب التونسي المعاصر" ط 2، 1997، ص 131-165.
63– **طرشونة (محمود)** – *حدّث أبو هريرة قال... في المسرح* – ضمن كتاب *إشكالية المنهج في النقد الأدبي*، دار المعارف سوسة 2000، ص 193-207.
64– **عبد المطلب (محمد)**– *نظرية الإيقاع عند المسعدي في ضوء الأسلوبية المعاصرة* ضمن كتاب جماعي "م.م. بين الإبداع والإيقاع"، ص 47-82.
65– **عبد الواحد (عبد الحميد)** *صورة البطل في "حدّث أبو هريرة قال..."* قصص عدد 85 - سبتمبر 1989، ص 69-70.
66– **عبد الواحد (عبد الحميد)** – *التّشبيه في "حدث أبو هريرة قال..."* قصص - عدد 99 - مارس 1993، ص 79-102.
67– **العبيدي (محمد مختار)** – *خواطر حول " مولد النّسيان "* مجلّة تبادل (Echanges) - جويلية 1980، ص 27-31 .
68– **العربي (لطفي)** – *مشكلة الزمان عند المسعدي* – النّشرة التّربوية للتعليم الثانوي - أكتوبر 1983، ص 55-85.
69– **العرف (أحمد حاذق)** *مدخل لدراسة النظرة المأسوية في كتاب الأستاذ المسعدي*، المشعل عدد5 - مارس 1974، ص 24-27.
70– **العريبي (بشير)** – *شخصية المسعدي في "السد"* الفكر س 2، ع 6، مارس 1957، ص 51-55.
71– **العريبي (علي)** – *المسعدي ومفهوم الثّقافة*، الحياة الثقافية، جانفي - فيفري 1981، ص 34-37.

72- **عزيزة (محمد)** - *"السد" ولادة جديدة لبروميثيوس شرقي*، مجلّة المسرح والسينما، جويلية 1966، ص 68-71.

73-**عطيّة (عبد الله)** *قراءة في مسرحية "السد"* - حولية الجنوب 1996.

74- **علوان (الحبيب)** - *قراءة أولى في كتاب "تأصيلا لكيان"*، الحياة الثقافية، جانفي - فيفري 1981، ص 67-73.

75- **العلوي (فوزية)** - *قراءة في "حديث التعارف على الخمر" من رواية حدّث أبو هريرة قال..."* مجلّة رحاب المعرفة س 5، ع 26، مارس - افريل 2002، ص 39-48.

76- **عمران (كمال)** - إشكالية الحوار في "السد": *في أنماط النصوص والأبنية الفنّية والتأويل*، من كتاب جماعي، سراس للنشر، تونس 2001.

77- **عمران (كمال)** - *"المسافر" في آثار المسعدي* - مجلّة رحاب المعرفة، س 5، ع 26، مارس - افريل 2002، ص 68-75.

78- **العمري (محمد)** - *الإيقاع تنظيرا وممارسة في أعمال م.م.* ضمن كتاب جماعي بعنوان "محمود المسعدي بين الإبداع والإيقاع"، ص 111-147.

79- **العوني (عمار)** - *التجربة الوجودية وأبعادها من خلال "حدث أبو هريرة قال"* - الإتحاف ع 18، 1989، ص 9-25.

80- **العيّادي (محمد مختار)** - *مصيبة الموت أو مولد النّسيان*- الفكر، س 14، مارس 1979، ص 102-107.

81- **العيّاري (محمد)** - *محمود المسعدي، دراسات في أدباء البكالوريا*- تونس، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل 1988، ص 108-130.

82- **العياري (يونس)** - *محمود المسعدي مفكّرا ومبدعا من خلال "السد"* الحرية 23 و 30 مارس 2002.

83- **غازي (محمد فريد)** - *الإنسانية في القصّة التونسية* - مجلة "اللغات" العدد الأول، 1966.

84- **الغربي (حسين)** - *محمود المسعدي "حدث أبو هريرة قال..."* - ضمن كتاب "مع أدباء البكالوريا" ج 2. تونس 2002، ص 5-79.

85- **الغريبي (خالد)** - *وظيفة المحدّث ودلالته في "حدّث أبو هريرة قال..."* الحياة الثقافية - عدد 53، 1989، ص 34-43.

86- **الغزّي (محمد)** - *الاحتفال بالجسد في "حدث أبو هريرة قال..."* الحياة الثقافية، جانفي - فيفري 1981، ص 23-28.

87- **فاسي (مصطفى)** - *البطل في القصّة التونسية المعاصرة حتّى الاستقلال* - الجزائر 1985، ص 247-501.

88- **فرحات (سعيد)** - *اتجاهات الحركة الأدبية التونسية المعاصرة*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الكويت 1981، ص 9-22.

89- **القاضي (محمد)** - *الكتابة عند المسعدي ومسألة الأجناس* -ضمن كتاب جماعي بعنوان "م.م. بين الإبداع والإيقاع"، ص 177-198.

90- **القليبي (الشاذلي)** - *مقدّمة "السدّ"* - ط 1 (1955) - ص 49-46. ط 2 ( 1974 ) - ص 185-210.

91- **القليبي (الشاذلي)** - مشكلة *الفعل في "السد"* - الفكر، مارس 1957.

92- **القليبي (عبد الرزّاق)** - *مقدّمة لدراسة أدب محمود المسعدي* - دراسات عربيّة - العددان 11 و 12، (سبتمبر - اكتوبر 1987) ص 110-128.

93- **قويعة (حافظ)** - *قراءة النصّ بين النّظرية والتّطبيق* -مجلّة معهد علوم التّربية، 1990، ص 219-250، أعيد نشره في مجلّة الفكر العربي المعاصر، عدد 84-85 ، جانفي - فيفري 1991 ص 110-120، بعنوان "إشكاليّات القراءة في النصّ المسعدي".

94- **قيسومة (منصور)** - *الوجود والبعث في "حدّث أبو هريرة قال" واللص والكلاب*، دار سحر، تونس 1999.

95- **قيقة (الطاهر)** -*الخيال في "السد"* الفكر، س 2، ع 6، (مارس 1957) ص 43-46.

96- **كِرّو (أبو القاسم محمد)** - *طه حسين والمغرب العربي فصل: محمود المسعدي وطه حسين* - منشورات ابن عبد الله. تونس 2001، ص 105-117.

97- **الكريفي (محسن)** - *قيمة الرمز في الأدب الوجودي* - الإتحاف، ع 42، 1993، ص 29.

98- **الكيلاني (مصطفى)** - *إشكاليّات الرواية التّونسية*- بيت الحكمة، 1990، ص 81-95.

99- **الكيلاني (مصطفى)** - *سؤال "النص الآخر" في أدب محمود المسعدي* - مجلّة رحاب المعرفة، س 5، ع 26، مارس - افريل 2002، ص 49-56.

100– **الكيلاني (مصطفى)** - *المنظر الرابع من "السد" الجماد شاهد هو لآخر على حيوية والحركة* -مجلّة رحاب المعرفة، س 5، ع 26، مارس - افريل 2002، ص 57-60.

101– **عزيز (محجوب)** - *"السد" وتقاليد المسرح في إفريقيا الشمالية* - أضواء، ع 152، 26/ 12/ 1962.

102– **المدني (عز الدّين)** - *جوانب من الإبداع الفنّي في "حدّث أبو هريرة قال..."* - قصص عدد 47 (جانفي 1980)، ص 43-56.

103– **مراصي (محمد)** - *النهاية في "حدّث أبو هريرة قال..."*، الفكر - جوان 1982، ص 41-49.

104– **المرزوقي (سمير) وشاكر (جميل)** - *مدخل إلى دراسة القصّة*- الدّار التّونسية للنشر، 1985، ص 101-111.

105– **مزالي (فتحية)** - *المرأة في "السد"*، الفكر، مارس 1957.

106– **المزوغي (الهادي)** - *قضيّة الإنسان في أدب المسعدي* -الفكر - جوان 1993. ص 54-64.

107– **المسدي (عبد السلام)** - *محمود المسعدي وإيقاع اللغة* - ضمن كتاب جماعي بعنوان "محمود المسعدي بين الإبداع والإيقاع"، تونس 1997، ص 7-42.

108– **المسعودي (حمادي)** - *النهاية في أدب المسعدي* -ضمن كتاب "في الأدب القديم والحديث"، مؤسسة سعيدان 1989، ص 85-122.

109– **الموسوي (محسن جاسم)** - *محمود المسعدي والرواية الحديثة* ضمن كتاب "انفراط العقد المقدس: منعطفات الرواية العربية بعد محفوظ" ص 277، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999، ص 151-173. سبق نشره في الكتاب الجماعي "م.م. بين الإبداع والإيقاع" ص 149-173.

110– **ميهوب (محمد آيت)** - *التصدير في "حدّث أبو هريرة قال..." فضاء للتّناص ومجاز للدّلالة* -مجلّة رحاب المعرفة، س 5، ع 26، مارس - افريل 2002، ص 26-38.

111– **ناجي (نجيب)** - *في الأدب التّونسي*- فكر وفنّ، س 21، ع 41، 1985، ص 56-58.

112– **النّاعوري (عيسى)** - *محمود المسعدي و"السدّ"* -الفكر - ديسمبر 1966.

113– **النفطي (الأزهر)** - *الأبعاد الأسطورية والرمزيّة والدلالية في لغة "السد"*- الإتحاف ع 66، فيفري 1996، ص 26-36.

114- **الهاني (عبد العزيز)** - *كيف كان أبـو هريـرة بطـل أحـاديث المسـعدي ؟*- الحيـاة الثقافيّة عدد 31، 1984، ص 56-60.

115- **وناّس (منصف)** - *ملامح البطل والإبداع الروائي في السدّ*، الحياة الثقافية، جـانفي - فيفري 1981، ص 45-49.

116- **الوهايبي (منصف)** - *الإشراقات الصّوفية والاحتفـال بـا لله في "حـدّث أبـو هريـرة قال..."* الحياة الثقّافية، جانفي - فيفري 1981، ص 23-28.

117- **اليعـلاوي (محمـد)** - *الشـكل في "حـدّث أبـو هريـرة قـال..."* ، حوليّـات الجامعـة التّونسيّة 1975، ص 98-97.

118- **اليعلاوي (محمد)** - *من ابتكارات محمود المسعدي مدرّسا: مصطلح نقدّي: خيـال النحاة.* مجلّة رحاب المعرفة، س 5، ع 26، مارس - افريل 2002، ص 4-8.

119- **يوسف (عبد المجيد)** - *الدلالة المعاصرة للأسطورة في سـد المسـعدي*- الإتحـاف ع 93، سبتمبر 1998، ص17-24.

120- **يوسف (عبد المجيد)** - *قراءة تاريخيـة لسـد المسـعدي* - الإتحـاف، ع 84، ديسـمبر 1994، ص 41-44.

# فـــي لـغــات أجـنـبـيّــة

1– **ABDELMALEK, Anouar** – *La pensée politique arabe contemporaine.* Paris, Seuil, 1970 - p.p211 – 217.

2– **AZIZA, Mohamed** – *Regards sur le théâtre arabe contemporain* – M.I.D. 1970.

3–**BACCAR, Taoufik** – *Mahmoud Messâdi*: *Une métaphysique de l'homme et une esthétique de l'écriture.* Echanges, décembre 1980, p.p. 211-222.

4– **BACCAR, Taoufik** et **GARMADI, Salah** – *Ecrivains de Tunisie.* Ed. Sindbad, Paris 1981, p.p. 68- 86.

5– **BELHAJ Nasr, Abdelkader** – *Quelques aspects du roman tunisien*, M.T.E. Tunis 1981.

6– **BOULLATA, Issa** – *Contempory arab writers and the literary heritage.* I.J.M.E.S. vol 15 N°1 (février 1983) p.p. 111- 119.

7– **BOUZID, Dorra** - *Le voyage immense de l'inorganique vers l'inanimé* – L'Action, lundi 13/12/1982

8– **BOUZID, Dorra** – *Acte et pensée : Messaâdi et les traductions*, La Presse, 14 janvier 1994

9– **BOUZID, Dorra** – *L'apothéose d'une œuvre exemplaire* – La Presse, 29/04/1996

10– **GHAZI, Férid** – *Le roman et la nouvelle en Tunisie* – M.T.E. 1970. P.P 36- 47

11- **GHAZI, Férid** – *La littérature tunisienne contemporaine* – Orient, 4è trimestre 1959. p.p. 131 – 163.

12- **GONZALEZ, Rebolledo Victoria** – *"Al-Sudd" de M.M: El hombre entre la fe y la duda, entre la esperanza y la acción* – Grupo de Investigacion Estudios Arabes Contemporaneos, Granada 1995, p73-96.

13- **IBLA** - *Un écrivain tunisien : Mahmoud Messaâdi* – IBLA – N° 123, 1969. p.p.1-16.

14- **Kéfi, Ridha** – *Mahmoud Messaâdi, le ministre philosophe-* Jeune Afrique N°1843, 12-18 juin 1996 – p37.

15- **Maged, Jaâfar** – *La presse littéraire en Tunisie de 1904 à 1955* – Publications de l'Université de Tunis, 1979.

16- **Mezzi, Faouzia** – *Le dragon n'a pas livré tous ses secrets* – La Presse, 14 janvier 1994.

17- **OSTLE, R.C.** - *Messaâdi and Tunisia's « last generation »* - Journal of Arabic literature. Vol.VIII (1977) p.p. 351 – 366.

18- **SKARZYNSKA, – Bouchenska,**– *Al Masaâdi Mahmoud and philosophy of life and death in his existentialist novels* – Quaderni di studia a. N°10 – p.p.109 – 120.

19– **TARCHOUNA, Mahmoud** – *Eclairage sur des textes pluriels* – La Presse. 14 janvier 1994.

20– **TARCHOUNA, Mahmoud** – *Problématique de fond de "La genèse de l'oubli"* La Presse, 7 juin 1996.

21– **TOUILI, Ahmed** – *Le vouloir et le devenir dans l'œuvre de Messâdi* – Dialogue N° 234 du 24/02/79.

22– **TOUILI, Ahmed** – *A la recherche d'une authenticité* – Dialogue N° 264 du 24/09/79.

23- **TOUILI, Ahmed** – *Le sens d'une œuvre-* Dialogue N° 316 du 22/09/80.

## LES TRADUCTIONS

En Français


1– **ABDELMALEK, Anouar** - *Anthologie de la littérature arabe contemporaine*- T II Les essais. STD, 1978, p.p.390 - 395 . ( *La liberté de l'écrivain.* )

2– **GUELLOUZ, Ezzeddine** - *Le barrage: drame en 8 tableaux* - Traducion d'As-Sud , Préface de J-Berque, Canada Ed Naâman 1981.

3– **BACCAR, Taoufik** - *La génèse de l'oubli* - Traduction de *Mawlid Annisyân*, Bayt Al Hikma, Tunis 1993.

4– **MESSAADI, Mahmoud** - *Sindbad et la pureté*, Faïza 10/1960 p.p. 28-30. p.p52-53.

5– **BACCAR, Taoufik** - *Sindbad et la pureté* - Ecrivains de Tunisie, Ed. Sindbad. Paris p.p. 69 - 86.

6– **BORMANS** - *Le barrage, Tableaux III et IV* - IBLA 123, 1969, p.p 4 - 9.

7– **GHAZI, Férid** - *La littérature tunisienne contemporaine* - Traduction de quelques passages du « Barrage », Orient, 4è trimestre 1959, p.p 157 - 163.

8– **MONTEIL, Vincent** - *Le barrage, Tableaux I, V, VI, VIII* - Anthologie bilingue de la littérature arabe contemporaine, Beyrouth 1961, p.p 241 - 255.

9- BEN OTHMAN, Ahmed - *Le dit de la quête vaine de l'invisible* - Europe 1985.


### En Hollandais


1– **Vertaald door Marcelle van de Pol** - *De geboorte van het vergeten* - Traduction de Mawlid Annisyân, Amsterdam 1995.

En Espagnol

1– **Santiago Martinez de Francisco** - *Nos lo contó Abù Hurayra* - Traduction espagnole de Haddatha Abù Hurayra qâl, Ed Unesco 1996.

2– **VIGUERA, Maria Jesus** - *Transmitó Abù Hurayra que..* - Literatura Tunicina contemporanea, p.p. 12 - 13.

3– **EPALZA, Mikel de** - *La presa I y VI* - L.T.C p.p 33 - 47.

En Anglais

1– **JARROW, J.F** - The Dam - (As-Sud) Carthage N°4, Dec 1966.

En Allemand

1- BURGEL, J.C - Die Welt des Islams - XXI, 1-4 (1981) p.p 30 - 79.

En Russe

1- ABOLOV, N - "Plotina" Tinusskogo pisatelia - (As-Sud), Vostochnaia Filologria, I, 18 - 27.

# الفهرس

تـم طبع هذا الكتاب في شهر ديسمبر 2002
بـمعامل الطباعة فنزي - دوار هيشر - تونس
الهاتف : 622 623 71 (216)

آدم

9 789973 844194

ISBN : 9973-844-19-X

الثمن : 15 د.ت.